أدباء وعلماء ومؤرخون

في تاريخ السودان

تأليف

د. محمد ابراهيم أبو سليم

دار الجيل

بيروت

أدباء وعلماء ومؤرخون

في تاريخ السودان

أدباء وعلماء ومؤرخون
في تاريخ السودان

تأليف

د. محمد ابراهيم أبو سليم

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

مقدمة

هذه بحوث أعدت في اوقات متباعدة، ومناسبات متباينة، وقد جعلتها بين دفتي هذا الكتاب لتكون مجتمعة بين يدي القارئ، لما بينها من وشيجة القربى، ولأنها اذا اجتمعت بينت طرفا مهما من فكر السودان وتاريخه.

والبحث الأول عن محمد احمد محجوب، وهو كاتب وشاعر وسياسي مرموق، وقد نشرت الطرف الأول منه بمناسبة وفاته، الا انني عدلت فيه هنا وهناك عند اعداد هذا الكتاب. واصله المقدمة التي اعددتها لكتاب « نحو الغد » والتي لم تظهر مع الكتاب عند طبعه لسبب لا أعرفه. ثم اضفت الصفحات التالية لأجعل البحث عن المحجوب مكتملا. وكان المقال الذي نشرته قد فاز باستحسان قدر من القراء، وكان من المفروض ان اتبعه بمقال آخر كنت اعددته بالفعل، ولكن وقعت محاولة انقلابية بعد وفاة المحجوب بقليل، ونصحني البعض بإرجاء نشره حتى لا اثير الخواطر. وهكذا نام المقال بين اوراقي. وكان صديقي المرحوم عثمان حسن احمد معجبا بالمقال ويراه من أحسن ما كتبت، وقد رجاني، المرة بعد المرة، وبإلحاح ان اكمله. واني اذ اكملته واضعه في هذا الكتاب ارجو ان ترضى روحه الطاهرة بما فعلت وان يثيبه الله بثوابه.

والبحث الثاني عن القاضي عبدالله احمد يوسف وكتاب « النخيل » الذي صنفه، وقد اعددته ودفعت به الى جريدة الصحافة بعد ان اكملت تحقيق

الكتاب وسلمته الى مطبعة الجامعة. وقد جاء مختصرا لأني قصدت ان اطول مقدمة الكتاب واذكر فيها حصيلة أكبر.

وبحثي عن الطبقات، وهو الثالث في الكتاب، اعددته في جمهورية ملاوي، في ايام جميلة قضيتها بين مؤتمرين للأرشيف. وفي هذه الأيام راجعت تحقيق البروفسير يوسف فضل حسن للطبقات مراجعة دقيقة وملأت هوامش الكتاب بتعليقاتي ومواقفي ثم راجعت ما كتبه الآخرون عن الطبقات. فلما استوى ذلك اقبلت على مخطوط ابراهيم عبد الدافع والسلاوي اللذين وضعا فيه اولياء السودان في رجز والحقاه بشرح فحققت نصه واعددت مقدمته. وقد قام البروفسير يوسف فضل بمراجعة ما اعددت واستحسنه وصدر الكتاب بعنوان «الذيل والتكملة». وعند اعداد هذا الكتاب نظرت في المقدمة فعدلت فيها وزدت عليها.

والبحث عن احمد السلاوي، العالم المغربي، اعد لندوة العلماء الافارقة ومساهماتهم في الحضارة العربية الاسلامية التي عقدت في الخرطوم في يوليو ١٩٨٣. وقد نشر في مطبوعة ضمت مساهمات هذه الندوة، الا ان نصها جاء مشوها لكثرة الاخطاء المطبعية.

والبحث الرابع عن كتاب «الابانة النورانية في تاريخ الختم»، وهو من تأليف احمد بن ادريس الرباطابي. وقد حققت هذا الكتاب وجعلت له مقدمة طويلة.

والبحث عن اسماعيل عبد القادر الكردفاني وكتابيه جاء في طرفين، في الطرف الأول قدمنا لكتاب «سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي»، وفي الطرف الثاني قدمنا لكتاب «الطراز المنقوش بقتل يوحنا ملك الحبوش»، وعند جمع الطرفين في هذا الكتاب اجرينا بعض المراجعة وحذفنا الفقرات المكررة. وقد اوردنا ملخصا للدارستين في كتابنا «الحركة الفكرية في المهدية».

وجاء البحث عن نعوم شقير في مناسبة تالية. فقد كنت مهتما بتاريخ نعوم لأنه كتاب مشهور ويعتمد عليه قطاع كبير من القراء. ومع اني لم اعتمد كثيرا على هذا التاريخ في دراساتي، بحكم اني رجعت الى وثائق المهدية وتقارير المخابرات المصرية واعتمدت عليها، فاني رأيت ان اراجعه لصالح قرائه. وبالفعل اعددت طبعة اسقطت فيها الطرف الاول من الكتاب وهو الخاص بالجغرافيا، والطرف الاخير منه وهو الخاص بالسنوات الاولى من العهد الثنائي، واقتصرتها على التاريخ. وقد نشرت دار الجيل هذه الطبعة بمقدمة صغيرة اعددتها للمناسبة. ثم اعددت هذا البحث المطول للمؤتمر العالمي لتاريخ المهدية الذي عقد بالخرطوم في نوفمبر/ ديسمبر ١٩٨١. وقد دفع ذلك المرحوم محمد شريف الامين الى اعداد استدراكات على تاريخ نعوم فيما يخص شرق السودان، ويراها القارئ في نهاية بحثي.

اما بحثي عن الدكتور مكي شبيكة، شيخ مؤرخي السودان، فقد جاء لمناسبتين: الأولى انه تقاعد عن التدريس في جامعة الخرطوم بعد ان قضى سنوات طويلة في خدمة تاريخ السودان، واخراهما انه كان مرشحا لجائزة الدولة التقديرية، وكنت ايدت ترشيحه بكل ما استطيع، ولكن الجائزة ذهبت لغيره. ولهذا رأيت ان اكتب عنه مقالات انشرها بجريدة الصحافة تحية له لما انجز وتعويضا لما فقد. ولما اقيم حفل تأبين له بجامعة الخرطوم بعد وفاته اخذت المقالات بالمراجعة، واضفت اليها اضافات، وتولت الجامعة طبعها في مطبوعة صغيرة.

وكان من المقدر ان اضم الى المجموعة بحثا كتبته عن المرحوم الدكتور جعفر محمد علي بخيت ونشرته جريدة الايام، ولكنه لم يتوفر لي عند الاعداد. ومن العجيب انني لا احتفظ بنسخة من هذا البحث، وذلك على غير عادتي. وسبب ذلك ان محرر الجريدة استعجلني فاعطيته النسخة الوحيدة ولم يعدها.

وكان في عزمي ان اعد بحوثا مماثلة عن المرحوم موسى المبارك والمرحوم

عباس ابراهيم محمد علي وعثمان حسن احمد وبعض مؤرخين آخرين، على سبيل الذكرى والتقدير، ولكني لم اقم بعد بما اعتزمت، وهي ما زالت في بالي لا تبرحه، والله ارجو ان يوفقني وان يشمل برحمته هؤلاء ويسكنهم مع الأبرار.

محمد أحمد محجوب

تخرج في كلية غردون التذكارية في زمن لا ينال فيه ذلك الا القليلون، وعمل مهندسا بمصلحة الاشغال، ثم أصبح قانونيا فمارس القضاء اولا ثم المحاماة ثانيا. وقد صار نقيبا للمحامين لعدة سنوات. وطني شارك في الحركة الوطنية بفكره ووجدانه. ومنذ ان ولدت حلقات القراءة ومناشط الاندية يسهم فيها بنشاط ثر. كاتب معلم ذو اهداف فكرية وسياسية واجتماعية، وقد الف نثرا وكتب شعرا، وهو في كليهما في الطليعة. وزير ثم رئيس للوزراء، برلماني كان عضوا في برلمانات السودان المتعاقبة. دبلوماسي لمع في المحافل الاقليمية والدولية وتكلم باسم العرب جميعا في الامم المتحدة بعد هزيمة ١٩٦٧ مدافعا عن العرب. نظم بالاشتراك مع المؤتلفين معه في الحكم وبمعاونة الدبلوماسيين السودانيين مؤتمر الرؤساء العرب والملوك في الخرطوم ورتب الصلح التاريخي بين الملك فيصل والرئيس عبد الناصر والذي تم بمنزله.

هذا الرجل ذو المواهب المتعددة والانجازات المتميزة هو محمد احمد محجوب.

خلفية تاريخية:

ينتمي المحجوب بأمه الى اسرة الهاشماب المعروفة، وهم فرع من قبيلة الجعليين. وقد ذكرنا نشأة هذه الاسرة في كتاب «الحركة الفكرية في المهدية». وقد عمل اجداده في ديوان المهدية وكتبوا للامام المهدي وللخليفة

عبدالله. وهم من بيروطراقيي السودان. ولهم في هذا المجال القدح المعلى الى هذا الآن. وكانوا من اوائل من اتبع الطريقة التجانية، وهذا ابعدهم عن مصطرع الطرق الكبرى ومهد لهم الوصول الى الوظائف الدينية العليا في اوائل الحكم الثنائي كالقضاء والافتاء ورئاسة هيئة العلماء وقيادة المعهد العلمي والوظائف الديوانية في المهدية، وهم في ذلك شبيهون بأسرة اسماعيل الولي. وكان جده لأمه الامير عبد الحليم مساعد الهاشمي الذي كان الساعد الأيمن للأمير عبد الرحمن النجومي حتى فتح الخرطوم. ثم كلف بعد فتح دنقلا بحماية الجبهة الشمالية فعسكر في صواردة وفي فركة. وقد نشأت في قرية بشمال فركة وسمعت الآباء والاجداد يرددون اسم هذا الامير والشدة التي كان يأخذ بها المخالفين، كما رأيت بيته، وبيت ماله قرب بيته، والسجن ومكان المسجد في ديم الانصار بفركة، وكانت هذه المواضع باقية الى وقت قريب. وقد هدمها ناظر لمدرسة أنشئت بجوارها، لأنه اراد ان يزيل الخرائب فيما قال، وهكذا ازال ديم الانصار. ولنا رأي ذكرناه في «تاريخ الخرطوم»، عن العمران الجديد الذي يقضي على العمران القديم، وهو انه ما قامت مدينة جديدة بجوار مدينة قديمة الا واسرعت بخراب القديمة، لحاجة الناس الى مواد البناء. ولكن الاعتداء الآثم على ديم فركة لم يكن لذلك، وانما كان لمجرد القضاء على الخرائب وفتح سهلة بجوار المدرسة للملاعب. وبجوار هذه المدرسة منزل مشهور يسمى بيت كروان، وهو منزل صغير، وقد بني لسكنى المستر كيروان الذي قام بحفريات فركة في اواخر الثلاثينات. وقد اعجب كيروان بالتحريف النوبي لاسمه لانه صار كروان وهو اسم طير مشهور بجمال صوته.

وعندما استقر الجيش المصري بحلفا نقل عبد الحليم معسكره الى صرص تي كانت تقع جنوب حلفا بعدة أميال. ونحن نقول هنا كانت لأن حلفا وصرص الآن تحت مياه بحيرة النوبة ـ وقد أقام عبد الحليم بهذا المعسكر حتى انضم الى النجومي عندما جاء زاحفا على مصر واستشهد معه في واقعة توشكي في ١٩٨٩.

إن هذه الخلفية التاريخية ضرورية لأنها هي التي، ضمن عوامل اخرى، وضعت المحجوب في صف الانصار وفي مقدمة جماعة الاستقلاليين سياسة وفكرا.

ولد المحجوب بمدينة الدويم في ١٩٠٨. وكان ذلك وقتا يستجمع فيه السودان انفاسه بعد هزيمة المهدية على ارض المعركة ويبدأ عهدا جديدا من الزمان. وقد شهد هذا العام حركة ود حبوبة، آخر حركات أصحاب المهدي المثيرة، والتي رفعت راية الجهاد المقدس. وفي قرى السودان المختلفة كان يولد جيل المحجوب، وهو الجيل الذي تعلم في مدارس النظام الجديد، وحمل راية كفاح تختلف عن راية ود حبوبة، وفي عالم غير عالمه وبهدف غير هدفه. جيل يقرأ ويتعلم. جيل يرى السودان امة واحدة تنتظم برباط القومية، بعيدا عن رباط الطائفية والقبلية، جيل جعل نفسه معلما وهاديا وحمل نفسه مهمة بناء أمة واعتبر انه لسان حال هذه الامة والمعبر عن مشيئتها وحامل رايتها.

محجوب والهندسة

انتظم المحجوب في المدرسة مع ابن خاله وصديقه عبد الحليم محمد والذي وضع معه فيما بعد كتاب «موت دنيا»، وظل يترقى في سلم التعليم متفوقا حتى تخرج في كلية غردون التذكارية مهندسا في مقتبل عام ١٩٢٩. وقد التحق بمصلحة الاشغال بعد تخرجه مباشرة وعمل بمدينة الخرطوم. وكان من المقرر ان ينال النجاح في هذا المجال لو انه استمر فيه. وشاهد ذلك ما قاله عنه رؤساؤه.

يقول عنه تقرير في ملف خدمته انه كان دقيقا في عمله ومثابرا ومعتدا بكفاءته. وقد جاء في تقرير لمدير الاشغال محرر في ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٣٤ انه أكفأ وأقدر من أقرانه السودانيين الذين يسبقونه في الخدمة بعشر او خمس عشرة سنة. وجاء في تقرير آخر أنه سريع الانجاز غير أنه يضحي احيانا بالدقة بعامل السرعة وانه يميل الى الغرور بكفاءته - تقرير ١٣ ديسمبر

١٩٣٨. وفي تقرير ايضا ان عقله يتميز بسرعة التفكير.

وكان من انجازاته الهندسية الذي سجلته له المصلحة في ملف خدمته الاشراف على امتداد لمستشفى الخرطوم الملكي والاشراف على بناء حوض للسباحة في معسكر الجيش البريطاني. ولعل ابناء هذا الجيل ممن يرون انجازات المهندسين في مجالات الهندسة كشف الطرق وتشييد العمارات، ومد خطوط السكة الحديد والانابيب وحفر الترع واقامة المصانع، والتخطيط لكل ذلك، يستصغرون من شأن امتداد مبنى او حوض سباحة، ولكن ذلك كان يعد انجازا باهرا في تلك الايام، لأن ابناء السودان كانوا عندئذٍ في اول مسيرتهم. وانت اذا رجعت الى كتاب «المهندسين الملكيين في مصر والسودان» تجد ان الغالب الاعظم مما انجز في مجال الهندسة في السودان في اوائل هذا القرن من عمل هؤلاء المهندسين البريطانيين، وستجد ان مؤلفه يذكر فيما يذكر انشاءات صغيرة قاموا بها، وهي صغيرة بمقياس اليوم ولكنها كبيرة بمقياس ذلك الوقت.

وان تعجب فاعجب! لقد كان مرتب المحجوب الذي بدأ به خدمته عند تخرجه من الكلية، وهي اعلى معهد تعليمي، ١٥٦ جنيها في السنة، أي بواقع ١٣ جنيها في الشهر وهو أقل مما يتقاضاه الآن عامل عادي في اليوم الواحد.

محجوب والقانون:

وسار المحجوب في عمله مواظبا مجدا ينال من تقدير رؤسائه ما تقدم حتى قرر فجأة ان يعدل عن الهندسة وان يتجه في حياته اتجاها جديدا، فالتحق في يناير ١٩٣٦ بمدرسة الحقوق.

ترى لماذا عدل المحجوب عن العمل الذي واظبه واجتهد فيه، والذي شهد له فيه رؤساؤه بالتفوق. ان المحجوب لا يذكر فيما كتب سببا مباشرا لتصرفه هذا كما ان ملف خدمته لا يحفل بهذا التحول الخطير من موظف في مصلحة الاشغال الى موظف في سلك القضاء. غير اننا نستطيع ان نقول ان نفسيته

القلقة ما كانت لتوائم عالم الهندسة الذي يقرر فيه كل شيء بالخطوط والارقام. وقد ذكر المحجوب شيئا من تبرمه من الرياضة والعلوم في كتاب «موت دنيا» عندما وصف مهنة الطب التي يمتهنها صديقه عبد الحليم بالجمود. اننا نحسب ان اهتمامه بالآداب والفنون كثيرا - وهو اهتمام مبكر عنده - وميله الى السياسة والاجتماع وشغفه بالقضايا العامة واتجاهه في كل ذلك اتجاها مثاليا، هو الذي حدد الوجهة التي اتجه اليها، ويمكن ان يضاف الى ذلك بريق العمل في القضاء وهو فوق بريق الهندسة.

ونحن نقصد بهذا التقصي قضية اتجاهه الى القانون بالذات ولا نقصد مجرد تغيير المهنة. فقد كان تغيير المهنة ميسورا في الجيل الماضي وشائعا بين الطموحين منهم. فأنت ترى هذا يبدأ محاسبا او كاتبا ثم اذا به يعدل ويصير اداريا. وذلك يبدأ كاتبا في دواوين الدولة واذا به بعد ذلك مهندس او طبيب. وكم من رجل بدأ جنديا عاديا او عاملا ثم انتهى به اجتهاده الى اعلى المراقي. أما الآن فان مثل هذا التحول لا يكون، لأن التخصص أضحى يكلف جهدا ووقتا ندر من يقوى عليه، وقد مضى وقت كانت الحكومة فيه تدفع للموظف مرتبه وهو ذاهب الى الدراسة بعد توظيفه. وليس ميسورا الآن ان ينتقل الطالب بالشهادة نفسها، كما كان الامر من قبل، من كلية الى كلية الا بحساب، أو أن يؤوب الموظف طالبا من غير خطه الذي كان فيه قد تخصص الا فيما ندر من حالات.

انتظم المحجوب في سلك القضاء بعد تخرجه مباشرة، وكان ذلك في نوفمبر ١٩٣٨م. ومن الطريف ان مكتب الأمن العام كان يتابع نشاطه وهو في كلية الحقوق ونشاط اترابه، لأنهم كانوا يعدون في عداد موظفي الحكومة، ليقرر أين يكون هذا وأين يكون ذاك وكيف تكون المعاملة ازاءه في مجال الخدمة والترقي. وقد جاء أنه قد لوحظ تمرده في العمل على رؤسائه وتردده على جريدة النيل. وقد اقترح بناء على ذلك ابعاده عند تخرجه الى الاقاليم.

ويلحظ المرء في التقارير المتتابعة ان رؤساءه الانجليز رغم تقديرهم لكفاءته

كانوا يتضايقون من تعاليه واعتداده. وكان ذلك يعد تمردا على الرؤساء في بعض الاحيان. وفي احيان اخرى يعتبر ترفعا على رؤسائه الانجليز ونظرة استصغار بشأنهم. وبالفعل ارسل المحجوب الى الابيض شبه مبعد عن العاصمة وبدأ بها عمله في القضاء. وبعد سنة واحدة قدر رئيسه في سلك القضاء ان نصوص القانون لا تستبعد شخصيته وان دراسته للقانون لم تنل من حسه الطبيعي وتقديره العام عند اصداره للأحكام. وقال عنه انه شخص تتملكه روح التفوق والعلم بكل شيء، انه معروف بأنه كاتب سياسي يبشر بأفكار متقدمة.

محجوب والمؤتمر:

وفي نوفمبر سنة ١٩٤١ نقل إلى دائرة شندي القضائية خلفا لاحمد متولي العتباني. وكانت دائرة شندي القضائية تشمل مدينة عطبرة. وفي هاتين المدينتين اشترك المحجوب في العمل السياسي بشكل عده رؤساؤه سافرا. فقد ترأس المؤتمر في شندى، وكان ذلك ايام مذكرة المؤتمر وتوسيع عضويته وجمع الاشتراكات، وقد ضجر الناظر من هذا واشتكى.

وبدأ المفتش يكتب عنه فيما يشبه الصراخ. وقد تردد انه نجح في ضم الناظر الى المؤتمر في النهاية. أما في عطبرة فقد انصرف الى القاء المحاضرات وعقد المؤتمرات وحلقات النقاش. وفي احدى هذه المحاضرات (يونيو ١٩٤٢م) طرح فكرة انشاء اتحاد لعمال السودان ينتظم كل طوائف العمال على نطاق القطر، لا بهدف خلق قوة سياسية او جبهة مناهضة للنظام، وانما بهدف النهوض بالعمال فنيا واجتماعيا، وخلق مجالات أرحب لهم، والمطالب بالخدمات الاجتماعية والصحية والتعليمية لهم. وقد انتقد حال العمال واستنكر ان يكون العمال السودانيون مجرد أسطوات.

ان هدفه من هذه المحاولة هو خلق القاعدة العمالية القوية والنهوض بمستوى المهن والاداء، وهو امتداد لهدفه الاصلاحي الذي ينشد فيه ترقية المجتمع.

محجوب والوجدان الوطني:

وفي عامي ١٩٤١- ١٩٤٢ ساءت علاقات الاقباط بالمسلمين بمدينة عطبرة، وكان السبب الاساسي للصراع المدرسة الوسطى، وقد تطور الامر في مارس ١٩٤٢ الى مقاطعة سينما برقس، والتي اوضحت موقفا جماعيا من قبل المسلمين ضد الأقباط. وكانت هناك موجة من التذمر احتجاجا على سيطرة الأقباط على السكة الحديد وعلى قسم الحسابات بها على وجه الخصوص. وقد قيل ان ابناء الاقباط كانوا يتفوقون في الامتحانات على ابناء السودان بسبب وقوف آبائهم مسبقا على الاسئلة وأنهم يحظون بكل الوظائف. وبحكم ان الاقباط كانوا يحتلون موقعا وسطا بين الانجليز والسودانيين فان وضعهم كان حرجا ازاء الآخرين، كما أن وضعهم ازاء الاولين قد جلب لهم تهمة ممالأة المستعمرين. وبالطبع فان نمو عدد الموظفين السودانيين كان يتم على حساب الاقباط. وهذا يجعل الاقباط في موقف الدفاع كما يجعل السودانيين في موقف الهجوم. ثم ان طابع التقوقع القبطي وتكاتفهم الشديد كان يثير الخواطر ضدهم. هكذا بدأت الفتنة. وهكذا جرت، وتطورت تنافسا على الوظائف بين طائفتين تتوليان القطاعات الدنيا من وظائف السكة الحديد وعلى المكانة الاجتماعية.

وكانت الفتنة بعيدة عن التعصب الديني، اي بين الاسلام والمسيحية، ولم تؤد الى صراع بين المسلمين والمسيحيين كطائفتين دينيتين، ولكن الحماس كان شديدا باعتبار ان الاقباط غرباء. وهكذا نلمح في الصراع بداية وجدان وطني وان كان على اساس غير سليم.

ولقد اشترك المحجوب في هذا الصراع العنصري باعتباره قضية وطنية وقاد الحملة على الاقباط بكل حماس، وان كان محتاطا بالنظر الى منصبه القضائي فلا يظهر علانية وانما يحرك من الظلام. وفي ظن الانجليز أنه استطاع ان يؤثر على ضابطي البوليس وان يستميلهما الى جانبه، وهما بابكر الديب وحمد الفيل ونائب المأمور علي الحاج كما استطاع ان يحرك سليمان موسى

العامل النشط بالقسم الميكانيكي بالسكة الحديد والذي وصفته التقارير بأنه كان مستعدا دائما للتحرك ضد الأقباط. ولعل ذلك كان بداية سليمان موسى للعمل بين الجماهير. وفيما بعد أسهم هذا الرجل بقدر وافر في الحركة العمالية. والاحساس بغبن طائفة والعمل من اجلها قد يكون بداية العمل للجميع. ولقد قصدت بذكر هؤلاء ان ابين ان الامر قد أخذ من قبل الوطنيين على اعتبار انه صراع وطني، وان ذلك دعا لاشتراك كبار الخريجين بالمدينة وعلى رأسهم القاضي ونائب المأمور وضابطا البوليس. لقد كان الاحساس الوطني مرتبطا آنذاك من وجه او آخر بالسخط على الغرباء - الاقباط والسوريين والارمن والاغاريق - وعلى ما يحظى به هؤلاء من نعيم وسعادة مع استهوانهم بأمر البلاد واهلها.

وانك سوف ترى ادناه ما يقوله المحجوب عن يهودية أظهرت برما من السودان وغير ذلك.

ولعلنا نذكر كيف نظر التجاني يوسف بشير الى الخرطوم والى ما يلقاه الاجانب فيها من نعيم وكيف استأسد الأرمني:

هـــي للنـــازحين مـــورد جـــود	وهـــي للآهلين مبعـــث ضـــن
يستـدر الاجـــانـــب الخير منهـــا	والثراء العـــريـــض في غير مـــن
أبطـــرتهم بلادنـــا فتعـــالى ابـ	ـــن أثيـــنـــا واستكـــبـــر الأرمني

وإزاء هذا النشاط السياسي واشتراكه في فتنة الاقباط قررت الحكومة نقله الى مدينة كسلا، وكان ذلك في أغسطس ١٩٤٩م. وقد اعتبر المحجوب ذلك ماسا بكرامته فتقدم باستقالته في نوفمبر، ثم عاد فسحبها مكرها بعد ان قيل له انه لن ينال رخصة المحاماة. ومن كسلا نقل الى مدني، ومنها قدم استقالته، وقد قبلت في اكتوبر ١٩٤٩، وأعطي رخصة المحاماة. وقيل انه حصل عليها بعد ان توسط له بعض الكبار.

محجوب والمحاماة:

ومنذ وقت مبكر كان المحجوب يرغب في التخلي عن القضاء، وقد قيده عن العمل العام، والانتساب الى سلك المحاماة اذ هو ارحب بامثاله من الطموحين ويمهد لهم مجال العمل العام. غير ان السلطات كانت ترد رغبته بشتى الحجج. وكان منها ان السوابق البريطانية تسد باب المحاماة امام القضاة الى اجل، ومنها ان عمله القضائي مرغوب فيه، وان الحكومة تكفلت بتعليمه في مدرسة الحقوق ومن حقها عليه ان تستفيد منه. وسبب ثالث يخطر ببالنا ولكن لا يصرح به المسئولون وهو تقييده بالوظيفة حتى لا ينحرف للسياسة وخلق المتاعب. ثم هناك الاهم وهو الخوف من فتح مجال المحاماة امام القضاة السودانيين مما يسرع بتحولهم من القضاء الى المحاماة ويترك فراغا في القضائية.

وهناك مساجلات طريفة بينه وبين سكرتير القضاء حول حدود العمل الوطني ـ والعمل الوظيفي واين يجتمعان بغير ضرر واين يتعارضان ويفضيان الى الضرر. وقد ترك المحجوب لنفسه تقدير الحد بينهما بحيث يستقيل من تلقاء نفسه اذا احس ان عمله الوطني يتعارض مع عمله في القضاء، في حين ذهبت سلطات القضاء إلى ان تقدير الحدود بين طبيعة العمل القضائي وما عداه ينبغي ان يترك لرؤساء المحجوب لا إليه. وهناك قضية اخرى اتصلت بمسيرة المحجوب، وهي موضع المحامي السوداني في المجتمع وفي المحاكم. وقد رأيت في ملفه كيف اخذ المسئولون هذا الامر ونظروا فيه. وانه لملف بالغ الاهمية في تاريخ المحاماة في السودان، وقد يحفل به مؤرخ المستقبل اكثر مما نحفل به الآن. ان فيه تقويما طيبا لحال المحاماة في السودان ووضعها ازاء القضاء ووضع المحامين الاجانب وما يؤدونه واثر دخول السودانيين في هذا المجال على هؤلاء وعلى عملهم وعلى المهنة نفسها، وهل يحتاج السودان الى المحامي الوطني، وهل العدد المتوفر يكفي، وهل يجوز لقاض ان يستقيل وأن يصير لتوه محاميا. كل ذلك درس وقيم. وكان الانجليز على ما جبلوا في

بلادهم ينظرون الى القضاء نظرة تنزهه عن السياسة وكل ما يصرفه عن الحيدة والعدالة.

محجوب والعمل السياسي:

وفي فترة ما بعد الاستقلال عاش المحجوب أحفل وأخصب مراحل حياته السياسية. وفي ظننا ان مجده السياسي الحقيقي بدأ عندما تولى زعامة المعارضة وشارك اسماعيل الازهري في رفع العلم ثم انتهى بمؤتمر الرؤساء والملوك العرب بالخرطوم. اما ما بعد ذلك فكان وضعه السياسي مجرد تحصيل لصراع حزبي. وكان المحجوب شبه معطل عن العمل خصوصا بعد ان أصيب بالنوبة القلبية. أما مجده الأدبي فكان في الفترة السابقة لاستقالته من القضاء.

تولى المحجوب بعد استقالته من القضاء في ١٩٤٧ سكرتارية الجبهة الاستقلالية، وكانت مكونة من حزب الامة وبعض المتعاطفين معه. وهي غير الجبهة التي كونت قبيل الاستقلال وشملت عددا اكبر من الأحزاب، وكان غرضها التأييد لمسعى الاستقلال بعد ان أتت الانتخابات بالاتحاديين الى السلطة.

وطاف المحجوب أوربا وأمريكا داعيا لاستقلال السودان واشترك في وفود الاستقلاليين في الهيئات الدولية.

وقد اشترك في الجمعية التشريعية، وكان من أعضائها البارزين الذين يعتمد عليهم السيد عبد الرحمن المهدي. ولما لاحت في الأفق امكانية الوصول الى تسوية بين مصر وبريطانيا مما يخشى على مستقبل السودان، تحرك حزب الامة وقدم اقتراحا الى الجمعية التشريعية يهدف الى اعطاء الحكم الذاتي الى السودان. وقد مال المحجوب بكل ثقله الى هذا الاقتراح. كذلك قاد حركة الاحتجاج من داخل الجمعية على رفع مرتبات الموظفين البريطانيين. وقد استقال من الجمعية بعد ان فشل في مسعاه. وكان احد الفرسان الثلاثة فيما سمتهم الصحافة. اما الآخران فكانا احمد يوسف هاشم وصالح عبد القادر.

وقيل انه استشهد ببيت للشريف حسين بن علي قاله في قصيدة وهو يغادر مكة نادما على تعاونه مع الانجليز:

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها

وقد استعار الاستاذ احمد سليمان من الشطر الأول عنوان كتابه المشهور الذي تعرض فيه الى الماركسية والمسار الماركسي. وهكذا اوحى هذا البيت ما اوحى لسياسيين سودانيين خرجا على ما كان عليه بالصوت العالي.

وفي الانتخابات الاولى انتخب المحجوب في دوائر الخريجين، وكان ترتيبه الثاني بعد مبارك زروق. وقد اختارته المعارضة الاستقلالية زعيما لها في مجلس النواب، ومن ثم اشترك مع السيد اسماعيل الازهري رئيس الوزراء في أمجاد ايام الاستقلال المجيدة ومنها رفع علم السودان.

والطريف انه أعلن انضمامه لحزب الامة بعد ذلك وألزم نفسه بخطه بعد ان كان استقلاليا مستقلا حق الاستقلال، وقال في ذلك فيما بعد: «انضممت الى حزب الامة خلال مهرجان سياسي في كانون الاول ١٩٥٦، وسببه الرئيسي هو انني كنت قد تعاونت مع الحزب عندما كنت امينا للجبهة الاستقلالية. وكان حزب الامة آنذاك الوحيد الذي تتوافق سياسته مع قناعاتي السياسية».

واشترك المحجوب بعد تردد طويل في حكومة عبدالله بك خليل الاولى في يوليو ١٩٥٦ وزيرا للخارجية خلفا لمنافسه المرموق مبارك زروق، وفي عهد عبود كان في مقدمة المعارضين، وقد سجن من جراء ذلك مع سياسيين آخرين في جوبا. وبعد ثورة اكتوبر تولى وزارة الخارجية مرة اخرى. ثم صار رئيسا للوزراء في يونيو ١٩٦٥ بعد الانتخابات التي تلت ثورة اكتوبر.

واثر انشقاق حزب الامة وائتلاف جناح الصادق المهدي والحزب الاتحادي الديمقراطي سقطت حكومته، وتولى رئاسة الوزراء الصادق المهدي مؤتلفا بجناحه مع الحزب الاتحادي الديمقراطي. ثم عاد المحجوب الى رئاسة الحكومة

بعد سقوط هذا الائتلاف وقيام ائتلاف جديد بين الحزب الاتحادي الديمقراطي وجناح الامام الهادي في مايو ١٩٦٧ وظل يقود الوزارة حتى قيام ثورة مايو في ٢٥ مايو ١٩٦٩ . وقد توفي الى رحمة الله في ٢٢ يونيو ١٩٧٦م.

جيل ورسالة:

دالت دولة المهدية وجاءت ادارة العهد الثنائي وتسلم ادارة البلاد كبار ضباط الجيش الفاتح وتولت المخابرات ادارة العلاقات العامة للحكم الجديد من شئون دينية وقبلية بقيادة سلاطين باشا اسير المهدية من قبل والذي كان يحمل عداء في نفسه للمهدية فوق عداء جهاز المخابرات. وتولى ادارة المديريات والمراكز ضباط بريطانيون يعاونهم مآمير مصريون.

وقد هجر الانصار المدن وارتدوا الى الاقاليم نتيجة للهزيمة وكفرا بالنظام الجديد او هربا منه او لأنهم ارغموا على العودة الى ديارهم القديمة بعدا بهم عن مواقعهم التي احتلوها ايام المهدية وفي محاولة الى اقامة تنظيماتهم القبلية التي تبعدهم عن الفكر المهدوي. وقد قضي على زعمائهم، إما في المعارك وإما في حوادث تالية، ومن نجا منهم اودع السجن او ابعد عن فرص التأثير. وقد تحالف مع الادارة الجديدة زعماء الطرق الصوفية بقيادة السيد علي الميرغني والعلماء الذين تولوا المناصب الدينية وبالأخص مشيخة العلماء ومناصب القضاء العليا والوجاهات الاجتماعية عموما. لقد حظي هؤلاء في هذا الجو بمكانة عالية. وفي الاقاليم عاد بريق زعماء العشائر وصدرت قوانين متتالية تدعم من سلطاتهم القانونية وتعزز من مكانتهم.

وقد جاءت المعارضة للإدارة الجديدة من عمق وجدان الشعب متمثلة في الثورات القبلية دفاعا عن الكينونة الاجتماعية من طائلة تغول الحكومة، والثورات الدينية دفاعا عن الكينونة او تعبيرا عن تطلعات دينية.

ثم جاءت الثورة المصرية ضد الاحتلال البريطاني والقت بظلالها على السودان، وقد وقفت القيادات الدينية والقبلية والوجاهات دفاعا عن الادارة

الثنائية وطالبت جهارا بحماية السودان من غائلة الثورة المصرية وضمانا لعدم عودة السودان الى ادارة مصر، وكان ذلك حقيقة، مولد فكرة سودان مختلف عن مصر وقائم بنفسه، طالب به هؤلاء واكدها لهم اللورد اللينبي المندوب السامي البريطاني في مصر والذي جاء الى الخرطوم خصيصا لهذا الغرض.

وقد قاد هذه الدعوة السيد علي الذي كان اثناءها راضيا بالحال وسعيدا بالحكم الجديد. وقد هال هذا الموقف المهادئ للاستعمار الشباب المتنور واندلعت ثورة ١٩٢٤ المشهورة مطالبة بانسحاب الجيش الانجليزي من مصر والسودان ووحدة وادي النيل، وكان ذلك مولد الدعوة الاتحادية. كانت الدعوة الاولى وليدة الخوف من التغيير بعد الامن والهدوء الذي ساد، والخوف من العودة الى المهدية وويلاتها او الى التركية ومظالمها، وكانت الثانية رفضا للاحتلال ولقاء بالثورة المصرية، كانت الاولى تتحرك من خوف الماضي ومآسيه وكانت الثانية تطلعا الى المستقبل، وشذ رجل يظهر لأول مرة بقوة، هدفه نيل الاعتراف به وبجماعته ووضع اساس للتعاون مع الادارة الانجليزية ليتسنى له جمع جماعته وبناء طائفته وشق طريقه، ذلك هو السيد عبد الرحمن المهدي. لقد انتهز الفرصة ونال ما اراد ولكنه شق طريقا وعرا. وفي النهاية قهرت الثورة بالقوة وتدعم موقف الادارة الانجليزية، واصبح تاريخ السودان من بعد يدور حول هذه الادارة وعلاقة جماعات السودانيين بها وحول هاتين الدعوتين - الاستقلال والاتحاد - ومواقف الناس منها. وكان من عواقب الثورة اجراءات حدت من مسار التعليم واضعفت قوة المتعلمين وعززت من نفوذ الزعامة الدينية والقبلية. وكان مردود ذلك، من جهة، توجس المتعلمين من الطائفية والقبلية، والمطالبة بابعادها عن مسرح السياسة، ومن جهة اخرى، هيمنة الطائفية والزعامة القبلية على المسرح الاجتماعي بفضل دعم الادارة البريطانية وبفضل نفوذها الجماهيري الخاص. وهؤلاء بدورهم قد نظروا بتوجس الى المتعلمين وادركوا خطورتهم. وقد اضعف كل ذلك من قوة المتعلمين في المجتمع. ومع ان هؤلاء كانوا يتحالفون مع الطائفية والزعامة

القبلية من وقت لآخر نزولا على حكم الضرورة، فان الصراع بينهم وبين الطائفية و القبلية اضحى، وعلى الدوام، عنصرا مهما في مسار الحركة الوطنية.

على صعيد المقاومة التقليدية فشلت الثورات القبلية والدينية وعلى صعيد القوة الجديدة فشلت ثورة ١٩٢٤. لقد انتهت الموجة الاولى من حركة المتعلمين بنكسة خطيرة.

كان المحجوب يبلغ نحو ١٦ عاما عندما جاءت ثورة ١٩٢٤. وقد ولد جيله بعد محنة انكسار المهدية وعاش بؤس اوائل العهد الثنائي وغطرسته العسكرية. وفي ظل سياسة ما بعد ثورة ١٩٢٤ واجه مزيدا من العنت في مرحلة الدراسة ثم في الحياة العملية. ونتيجة لتجربة هذه الثورة وانكسار المهدية من قبلها اتجه المتعلمون وجهة اخرى وهي الابتعاد عن الاصطدام مع الادارة القائمة والاعداد لخلق حركة فكرية تؤدي الى وعي متحضر من شأنه ان يرتفع بمستوى الشعب وينمي ملكاته ويؤدي في النهاية الى الاستقلال.

يقول المحجوب في ذلك «جاء جيلنا الى العالم في وقت كان الفاتح الجديد يوطد سلطته في بلد يذكر تماما المعارك التي خاض غمارها ليبعد عنه الاجنبي. وانتهى عهد المهدي، اما الروح الوطنية التي الهبها فقد بقيت نشيطة جدا وقامت اعمال العصيان المسلح في مختلف اجزاء البلد، لكن قمعت بقوة السلاح. بدأنا ندرك اننا في حاجة الى اسلحة تختلف عن تلك التي استعلمها آباؤنا. كنا ورثة ماض بطولي مجيد وسدنة حاضر مظلم وخطاب مستقبل مجهول. فإذا كنا نريد أداء دورنا واستعادة حرية بلدنا فان علينا ان ننبذ السيف والرمح ونستعمل الاسلحة الجديدة الخاصة بالتربية والمعرفة والثقافة الحديثة.

اتجه المتعلمون الى انشاء جمعيات القراءة وعقد الندوات، ثم تبلور نشاطهم في الصحف والمجلات التي صدرت في الثلاثينات كالنيل وجريدة السودان والنهضة السودانية والفجر والمرآة. وقد ساهم المحجوب في هذه الحركة بقسط

وافر، وكان من ابرز وانشط اعضاء جمعية القراءة بالهاشمباب. وكان من بين اعضاء هذه الجمعية عبد الحليم محمد وعرفات محمد عبدالله واحمد يوسف هاشم ويوسف مصطفى التني وعبدالله عشري الصديق واخوه محمد عشري الصديق وامين بابكر والسيد الفيل. وكانت مجلة الفجر اساسا وانعكاسا لنشاط هذه المجموعة وكانوا من قبل يعاونون في اصدار النهضة. ثم تطورت المجموعة الى جماعة الهاشماب السياسية والتي كانت تنافس جماعة الاشقاء داخل مجموعة الخريجين الذين يتعاونون مع السيد عبد الرحمن المهدي، ثم انتهت بالارتباط نهائيا بالسيد عبد الرحمن وبالحركة الاستقلالية بينما شق الاشقاء طريقا آخر، هو الحركة الاتحادية والعمل في ساحة الختمية. وكانت هناك جمعية اخرى ذات نفوذ هي جمعية الجاروف، وكان من ابرز اعضائها ابراهيم عثمان اسحق، ابراهيم يوسف سليمان، مكاوي سليمان اكرت، خضر حمد، الهادي ابو بكر، حسن عثمان واخوه حسين عثمان. وقد عرف بعضهم بالميل الى جماعة فابيان الانجليزية، ومن هؤلاء مكاوي وابراهيم يوسف وحسن عثمان. وكانت جمعية مدني تقوم بنشاط بارز، وقد ولدت فكرة مؤتمر الخريجين في هذه الجمعية.

اتجه المتعلمون الى قراءة التراث العربي والاهتمام بالمناسبات الدينية، وكانوا يلقون في هذه المناسبات انتاجهم من شعر ونثر. وكان هذا الاجراء نفسه نوعا من العمل الوطني، لأنه تحد بالتراث للقوة التي تحارب هذا التراث. وقد قرأوا ايضا لكتاب اوربا المحدثين، وساعدهم في ذلك ما تلقوه في الكلية واولعوا بما قرأوا، وهذا اوصلهم بالتيارات العالمية في الأدب والفكر. وكان اكثر ما تأثروا به تيارات الثقافة في مصر. وكان بمصر اتجاهان: الاتجاه المولع بالتراث العربي الاسلامي ويمضي محافظا عليه ومتمسكا به تمسكه بكيانه ودينه، واذا جد جديد فلا بد ان يكون الجديد في اطار هذا التراث وروحه وعلى منواله، لا محاكاة للغرب ولا استعارة من آدابه. واتجاه آخر تأثر بثقافة الغرب وعاد ينظر الى التراث العربي الاسلامي بمنظار محدث وينهج بنهج الغرب، وكان اصحاب هذا المنهج - وفي مقدمتهم العقاد وطه حسين واحمد امين -

متمكنين من هذا التراث، وكان عرضهم رائعا وانتاجهم فتحا. وقد تأثر المحجوب ورفاقه بهذا الاتجاه، وكان اكثرهم تأثيرا العقاد، لأنه اقرب اليهم فكرا لتأثره بالمدرسة الانجليزية التي ينهلون هم ايضا منها. إلا ان ادباء السودان كانوا يطالعون كتب التراث مباشرة ويتصلون بآداب اوربا مباشرة ايضا بفضل اتقانهم للغة الانجليزية. فالتأثر بالاتجاه المصري توافق اتجاه وليس تلمذة. وقد انكر المحجوب وبعض رفاقه ان تكون ثقافة السودان جزءا من ثقافة مصر وذهبوا الى ان ثقافة السودان ينبغي ان تكون نابعة من مجتمعه وتعبر عن آلامه وآماله، وهو ما يدل على استقلاليتهم في الأخذ والعطاء. وكان في السودان ايضا انصار التراث العربي الاسلامي الذين ينهجون بنهجه ويسيرون على منواله. وابرز من يمثل هؤلاء عبدالله احمد يوسف في كتابه «النخيل».

لقد حمل هذا الجيل رسالة عظيمة هي بناء السودان الحديث. لقد بنى بمسئولية وجسارة صرح الحركة القومية بعمقها واتساعها، وشيدها بعمدها الثقافية والاجتماعية والسياسية، وحمل مشعلها الى ربوع السودان حتى غدت حركة شعبية واسعة تنشد التقدم وتسعى الى الحرية. وقد اعطى للسودان قوامه كأمة ذات كيان وابعاد. انظر الى ما حقق هذا الجيل في مجالات الحياة المختلفة: في انتاجه في مجال الشعر والنثر الفني، في الادبيات الاجتماعية والسياسية، في العمل السياسي، في الصحافة، في التعليم، في الغناء والموسيقى، في الرياضة، في التجارة، في الصناعة، في الزراعة، في الهندسة، في الري، وفي اجهزة الدولة من الادارة والقضاء والخدمات الفنية والجيش والبوليس حتى تسلموا ادارة البلاد عن جدارة، وباختصار انجز الجيل بوعي متقدم في شتى ضروب الحياة. انها حركة قومية متسعة وعميقة ونشطة. وقد قاد الحركة السياسية باقتدار. بدأ المشوار بجمعيات القراءة ومضى عبر الاندية والمهرجانات الأدبية وحركة التعليم الاهلي ومؤتمر الخريجين والاحزاب حتى استقل السودان: مشوار طويل، ثقيل الخطو، وفق فيه الجيل توفيقا عظيما وبلغ قمته يوم رفع

العلم. الا انه اخفق في قيادة السودان المستقل لضعف اجهزته السياسية وطغيان الطائفية والتدخلات الخارجية وفقدان الاتجاه، واصبح العمل السياسي محصلة للشللية والطموحات الشخصية وعراك القوى والمناورات. وكانت النهاية المسرحية للجيل عندما خرجت دبابات مايو، وعزلت حكومة المحجوب والتي تجمعت فيها كل تناقضات الجيل وسلبياته.

كان المحجوب من ابرز رموز هذا الجيل. وكان متعدد الملكات، نشطا جادا، معتدا بنفسه وبانجازه، مؤمنا بدور الثقافة والفكر في بناء المجتمعات ورقيها، وقد انجز في الادب، وفي القانون قاضيا ومحاميا، وفي السياسة والاجتماع كاتبا ووزيرا، وقد استمد المحجوب في كل ذلك من ملكاته الشخصية ومن تراث اسرته ومن اطلاعه الواسع ومكانته الاجتماعية المرموقة.

ولعل اول ما اثر فيه وطء الانضباط الانجليزي في المدارس والذي طبق في الكلية ومحاولة ابعاد الطلبة عن التراث العربي. يقول المحجوب في ذلك في موت دنيا: «لقد كنا نضحك في الم لأن لرئيس الطلبة في الكلية مطلق التصرف، وان مفتش الداخلية لا يستمع لشكاة احد ما دام قدمه الرئيس، وكانت سنته الجلد اولا ثم النظر في القضية» بتهمة قراءة الصحف والمجلات. وكان المؤثر الثاني هو خاله ومربيه، فهو كما يقول في موت دنيا: «لم ينس والدا رحيما وحديثه المسهب عن الرسول صلوات الله عليه، وهو يتساءل: «الا تظن ان الدكتور طه حسين لم يعد في كتابه على هامش السيرة الا ذلك الحديث المتصل الذي كان يفيض به ذلك الوالد الاديب وان مات دون ان يخط سطرا». فقد كان هذا الوالد باحاديثه وهداياه من كتب وقراءات نورا لا يقل عن نور القراءة والاطلاع. وكان المحجوب معجبا بتراث اجداده اذ هو من اسرة كبيرة في السودان. وقد برز منها ادباء وعلماء ومحاربون تركوا في نفسه اثرا بعيدا، وقد ذكرهم كثيرا في ادبياته، مما يشهد على هذا الأثر. اما القراءة فقد اشار الى تجربته في فقرة مهمة في «موت دنيا»، يقول: «اما القمر والنسيم العليل والاحاديث الخلية والطلية ونتف من ديوان ابي الطيب

المتنبي وديوان الحماسة، تلك هي الدنيا الحبيبة التي لا تموت ابدا، وهي التي الهمت الكثيرين روائع الادب وطرائف الفن وآيات الشعر وهي الدنيا التي اوحت بكل ما كتب من شعر ونثر في مجلتي النهضة السودانية والفجر».

ويمضي المحجوب في اعطاء ابعاد جديدة للصورة بتسجيله كيف كان يشيح عن شعر ابي الطيب الغارق في المديح والاستجداء، ذلك لأنه كان يرى ان الاخلاق مقياس كل شيء، بيد انه سرعان ما اصبح يتذوقه متجاوزا ناحيته الاخلاقية. وقد وجد المخرج لنفسه في قول ذلك الأديب الانجليزي اوسكار وايلد: الفن لا يعرف الاخلاق. ويقول المحجوب في حديث لمجلة المصور المصرية انه تأثر بما كان يكتبه العقاد. وفي كثير مما كتب يطل علينا الكتاب الذين قرأ لهم واستجاب لآرائهم قبولا او رفضا.

آراؤه وأعماله:

ان آراء المحجوب مضمنة في انتاج فكري واسع المدى. منه مقالات نشرها في مجلة النهضة السودانية (١٩٣١- ١٩٣٢) التي اصدرها عباس ابو الريش وفي مجلة الفجر (١٩٣٤- ١٩٣٧) التي اصدرها عرفات محمد عبدالله بمعاونة المحجوب وبعض اصحابه ثم واصلها احمد يوسف هاشم لفترة بعد وفاة عرفات، وقد صدرت هذه في كتاب بعنوان «نحو الغد»، ثم في كتاب «الحركة الفكرية في السودان، إلى اين يجب ان تتجه؟» (١٩٤١)، وفي كتاب «الحكومة المحلية في السودان» (١٩٤٤)، وفي كتاب «موت دنيا» الذي وضعه بالاشتراك مع خليله ورفيق عمره الدكتور عبد الحليم محمد، ثم في آخر كتبه «الديمقراطية في الميزان»، وفي عدد من المحاضرات لم نقف الا على طرف يسير منها ومقالات متفرقة نشرت في الصحف ولم يتوفر جمعها بشكل كامل الى الآن، وهناك ما انتجه في القانون قاضيا ومحاميا وهو ما يزال بعيدا عن متناولنا بحكم انه ما زال في اضابير القضايا او ملفاته الخاصة، وهي باللغة الانجليزية. وهذا انتاج مهم، ولا بد ان ينظر فيه مؤرخ المستقبل وعلى

الخصوص مؤرخ الفكر القضائي في السودان. وقد اتيح للاستاذ قاسم عثمان نور ان يضع في مقال له بجريدة الصحافة تعريفا جيدا بمؤلفاته المنشورة، الا ان حصره لم يكن كاملا. ونحن نضيف الى ما ذكر بحثا لم يقدر له النشر وهو «الشاعر القروي». وفي اطروحة جامعية بعنوان «محمد احمد محجوب اديبا»، للاستاذ السماني كمال الدين محمد، حصر اجود لانتاجه النثري والشعري.

وفيما يلي نستعرض انتاجه.

نحو الغد:

اعتزم المحجوب نشر مقالاته التي نشرت في النهضة و الفجر في كتاب بعنوان «نحو الغد» منذ ١٩٣٩. وقد كتب مقدمته ولم يبق الا ان ينقل النصوص من المجلتين ويدفع بالكتاب الى المطبعة. ولكنه ارجأ الامر لسبب غير معروف حتى اواخر الستينات. وقد شاءت المقادير ان يكون اعداد الكتاب على يدي وبمعاونة صديقي الاستاذ محمد صالح حسن. وقد اعطانا المحجوب مجموعة المجلتين ومقدمته وترك لنا نقل النصوص وترتيبها. اما المقدمة فكانت بخط يده، وتحمل تاريخ ٢٢ يونيو ١٩٣٩، وقد اوردناها في الكتاب كما هي، لأنها كاملة ومستوفية، ولم يشأ صاحبها ان يعيد النظر فيها. وهذا يعني ان مشروع الكتاب كان مكتملا، وقد احتفظت بالنسخة الخطية للمقدمة ضمن مقتنياتي الخاصة، كما احتفظت بنسخة مصورة من كتاب الشاعر القروي، واني اعتبر اني اصبت مغنما اثريا مهما. اما مجموعتي النهضة والفجر فقد اعارهما المحجوب لدار الوثائق من قبل وسمح بتصويرهما ونشرهما، وقد تم ذلك باريحيته، وعرضناهما في مجلدات ونفذت في وقت وجيز.

وقد رتبنا المقالات حسب تتابع نشرها، وهكذا جاءت مجموعة النهضة اولا، و مسلسلة حسب توالي نشرها، ثم جاءت مجموعة الفجر، وحسب تواليها في النشر ايضا، ثم جاءت مقالته عن عرفات في مجموعة الفجر التي اصدرها أحمد يوسف هاشم. وفي النهاية جاءت محاضرته عن الحركة الفكرية، وكان

ذلك بناء على رغبته. وواضح ان هذه المحاضرة لم تكن في اصل مشروعه، لأنها كتبت في وقت لاحق لاعداد مشروع «نحو الغد» اذ اعد المشروع في ١٩٣٩ بينما نشرت المحاضرة في ١٩٤١.

وعند دراستي لمحتويات الكتاب تبين لي اننا اسقطنا في رصدنا للمقالات مقالة عن صالح عبد القادر، ولكننا اثبتناه في الكتاب، واننا اسقطنا من مقالاتـه مقالة بعنوان: الثقافة السودانية يجب ان تقوم بذاتها الخ، وقد نشرت في الفجر في عدد ١٨ بتاريخ ١٩٣٥/٤/١، ومقالة بعنوان: شعب يساء، والمسئولون عن اساءته ابناؤه. ولست ادري أفات علينا ان نضمنها ـ وهذا هو الاقرب ـ ام كان ذلك لرأي للمحجوب او لنا في المقالين وموضعهما من الكتاب!

وبمناسبة جمعنا للمقالات ووقوف المحجوب على حصيلتي عنه وعن اعماله عرض عليّ كتاب الشاعر القروي ومشروعه لكتاب المهدي لانظر فيهما ثم عهد إليّ بكتابة مقدمة لنحو الغد، وقد اعددتها بسرعة، فلما اطلع اعجب بها غاية، واطرى اسلوبي ومنحاي، وتعجب من بعض ما اوردته عن حياته، وكنت اخذت ذلك من ملفه في الدار. وقد دفعنا الكتاب الى المطبعة، وبعد ذلك بقليل جاءت مايو، وتعثر طبع الكتاب، ثم ظهر في السنة التالية، ولكن مقدمتي اسقطت ولم تضمن. وقد نشرت المقدمة بشكل معدل عند وفاة المحجوب، ثم هي ترد في اول هذا البحث بعد مزيد من التعديل.

يتضمن الكتاب مقدمة و٣٧ مقالا ومحاضرة الحركة الفكرية. ونحن نتناول القطعة الاخيرة في عرض مستقل. اما المقالات فيمكن تقسيمها الى مجموعتين، مجموعة في الأدب والنقد، وهذه تبلغ ١٨ قطعة، ومجموعة تتناول خليطا من الموضوعات منها قطع ادبية وتأملات ونظرات، ومنها قضايا مثل قضية الثقافة السودانية، ودور الادب في ترقية المجتمع والمثل العليا في الحياة عموما وفي التعليم وفي الاجتماع والسياسية. وهذه المجموعة تبلغ ١٨ قطعة ايضا.

اما المقدمة فتتناول خلفية هذه المقالات، وقد وفق فيها المحجوب الى درجة بعيدة. وهي تقع في أربع مراحل.

اما في المرحلة الاولى فقد تناول رسالة جيله في الحياة واسهامه هو في هذه الرسالة. يقول انه كان مؤمنا بدور جيله ومهمته، وهي مهمة صعبة، ويزيدها صعوبة انهم في بلد محتل. ثم ان جيله ورث تركة مثقلة بعد سقوط المهدية وفشل ثورة ١٩٢٤، وانه كان على هذا الجيل ان يفتح صفحة جديدة وان يدرك انه لا خير في حركة قومية او سياسية لا تدعمها ثقافة حقة وخلق رصين ومقدرة على تعرف صعاب الحياة والخروج منها بحسن تدبير، ولهذا اندفعوا الى الاطلاع الواسع المثمر والتروي في الامور ووضع الاساس لنهضة قومية في شتى فروع الحياة. وقد اقبلوا على قراءة ما تخرجه المطابع المصرية وبعض ما تخرجه المطابع الانجليزية، وبعض، وهم قلة، قرأوا في الاقتصاد والسياسة وبعض في الآداب واللغة الانجليزية. وهكذا يعطي خلفية المقالات ويربطها بحركة الخريجين.

وفي المرحلة الثانية يذكر كيف اتجه باله الى طبع المقالات في كتاب، ويذكر انه فكر في ذلك بعد موت النهضة والفجر وان بعض اخوانه ممن تحملوا المسئولية معه شجعوه.

وفي المرحلة الثالثة وصف الاعمال وبين ما يربط بينها وهدفه من جمعها. ويقول في ذلك ان المقالات تمت الى بعضها البعض بوشائج القربى، ليس فقط في انها من نتائج قلم واحد ولكن لأنها كتبت في شئون متقاربة وفي كثير من الاحيان يتفرع بعضها عن بعض. وهناك وشيجة اخرى اقوى من هذه واثبت وهي ان هذه المقالات والمحاضرات جميعها كتبت بغرض واحد الا وهو وضع الاساس لحياة ادبية واجتماعية للوطن. وعلى ذلك فان هذه الفصول تمهيد لما هو آت، وهي توجيه نحو الغد المنشود، ومن هنا كانت تسمية هذا الكتاب «نحو الغد».

وفي المرحلة الرابعة والاخيرة يصف هذا الغد الذي يعمل له. انه غد خال من الاحن والضغائن، وسيكون عماده الحرية الذاتية والتسامح الشامل والتعاون مع الجيران والعالم، وسيقوم على ثقافة سودانية هي نتاج ثقافات متعددة، ولكن بعد ان تأخذ الصبغة السودانية، وسيقبل على خلق ادبه الخاص وفلسفته الخاصة.

الحركة الفكرية في السودان ـ الى اين يجب ان يتجه؟

هذا بحث توجيهي اهداه الى المهرجان الأدبي بام درمان عام ١٩٤١، وهو يتضمن آراءه في الأدب والاجتماع ويبرز في صفحته الاولى ايمان كاتبه بالصفوة المختارة من «المثقفين وغيرهم من المخلصين من اصحاب المثل العليا ودورهم في دفع حركة الحياة». ويقرر المحجوب باسلوب المعلم: ان بعض الافراد بحكم تأثرهم بما خلفته اجيال ماضيه من الجهل والحماقة او لما عندهم من غريزة الشر المتمكنة من نفوسهم، لا ينفعهم التعليم الشريف الغرض. ثم يضيف ان كل جهد لاصلاحهم ضائع، وهل يصلح العطار ما افسد الدهر! ويضع هؤلاء في كفة مع الرجعيين الجامدين الذين لا يقبلون المستحدث من الآراء. ومن هنا يضع عبء تغيير الحياة على اكتاف المخلصين المتفانين من دعاة المثل الاعلى. وفي ثقة يقدم بحثه بقوله: «ولا تثريب علينا من ان نكون منهم لحظة ونضع المثل الاعلى للحياة الفكرية التي نريدها لهذه البلاد الناشئة». ثم يستدرك قائلا، وفي شيء من التواضع يندر ان يتكرر عنده: «ولا ادعي في ذلك انني من الموهوبين الذين تتكشف لهم حجب العصور ويطوون الزمان القهقرى ويرون ما كانت عليهم الامم وما صادفتهم في حياتها الفكرية من نجاح وفشل ثم ينظرون الى المستقبل البعيد ويكشفون عن غيبه وما يتطلبه من آراء واعمال ويضعون اصدق مثل للحياة الفكرية في بلادهم، فذلك شرف ليس لي إليه من سبيل، غير اني سأحاول جهد المقل».

طبع هذا الكتاب في مطبعة التمدن بالخرطوم في ١٩٤١. وعندما جمعت

مقالات المحجوب في كتابه «نحو الغد» اضيف إليه وبلغ فيه ٢٦ صفحة.
تناول الكتاب مراحل الحركة الفكرية من اقدم العصور وما اكتنفهامن مؤثرات ثم يخلص الى ان المثل الاعلى الذي يجب ان تتجه نحوه الحركة الفكرية على ضوء هذا العرض التاريخي هو «ثقافة إسلامية عربية تسندها ثقافة غربية مكتسبة»، وذلك «لخلق ادب قومي اصيل». ومقدمات القضية تأتي وفق اتجاه المحجوب، وهو معرفة الماضي والاستنباط منه، وذلك ما يدفعه في كل كتبه الى التعرض الى تاريخ السودان. ان القضايا تولد وتخلق في ثنايا التاريخ وهي تدرك بمطالعة هذا التاريخ. ومن هنا فان الفكر عنده جزء من مكون الامة تاريخيا وثم حاضرا، باعتبار أن الحاضر متولد من الماضي وان للحاضر احكامه البيئية والنفسية. وهذا يؤدي به الى ان للسودان مجتمعا خاصا وحياة خاصة وجدير به ان تكون له ثقافته النابعة منه ومن وجدانه.
اما القضية ذاتها فانت تراها تجمع بين الاسلامية والعربية، وهذه هي الثقافة السائدة التي تسندها ادواتها من كتابة ونشر، وتسندها ثقافة غربية، وهي ما قامت عليه حركة التجديد الأدبي في مصر، والتي نظرت الى الثقافة الاسلامية والعربية بمنظار الثقافة الغربية وطبقت عليه اساليب البحث والتقصي الغربية.
تلك كانت رسالة العقاد وطه حسين وشكري والمازني واحمد امين ومن إليهم.
وهذا هو الدرب الذي يسير عليه المحجوب وأصحابه. وانت ترى في ذلك انه لا يحفل بالتراث المحلي في السودان ولا بالثقافة الافريقية. وربما كان ذلك لأن الاتجاه السائد كان نحو مصر واوربا والتراث العربي، ولم يكن من الادب الافريقي ما هو مكتوب ليلفت نظر المحجوب، ولا كانت معارف العامة تحسب في دنيا الثقافة والفكر، فذلك وقت لم يكن المثقفون فيه على دراية بالفكر الافريقي او احساس بأهمية التراث المحلي واعتباره من بحر الثقافة. اما الآن فان الجامعات والمعاهد تعطي عناية كبيرة للتراث المحلي، وفي السودان علماء في ثقافة العامة «فولكلور»، وصارت هذه مادة ثابتة للتعليم. والجامعات تعنى ايضا بالدراسات الافريقية، وفي جامعة الخرطوم معهد يقوم بهذه المهمة

ونحسب ان لو كتب المحجوب كتابه هذا في هذا الوقت لما فاته ان يذكر التراث المحلي والثقافة الافريقية. ان هذه قد اضحت بعد جيل المحجوب مكونا رئيسيا من فكر السودان وركيزة هامة من ركائزه. واذا كان ذلك الجيل لم يكن مدركا او مقدرا لها على مقدارها وعمقها فما احرى هذا الجيل ان يبذل من الجهد مزيدا للتعريف بهذه الثقافة وتطويرها.

الحكومة المحلية في السودان

صدر هذا الكتاب بمصر في ١٩٤٥ في ٢٢١ صفحة من الحجم الصغير. وقد اهداه الى المزارعين في القرى والى العمال واصحاب الحرف الصغيرة في المدن والى الفقراء باعتبار ان الحكومة المحلية المثالية توجه عنايتها الكبرى إليهم ومن اجلهم تشن الحرب ضد الفقر والمرض والجهل. وقد قدم لموضوعه بمقدمة هامة تتضمن القضايا الرئيسية التي يتناولها الكتاب واتجاهات مؤلفه.

يقول في هدفه من الكتاب: «ان «اهتمام الحكومة بالحكم المحلي جعل اهتمام الناس بأمر الحكم الذاتي المحلي يتزايد»، ويبدو هنا الخلط عنده بين الحكم المحلي والحكم الذاتي، وهو خلط يتكرر في مواضع اخرى من الكتاب. ثم يقول: «ايماني اكيد بحاجة بلادي الى قيام حكم محلي قويم في كل مدينة من مدنها وفي كل ريف من اريافها حتى تنهض البلاد ويرتفع مستوى المعيشة والصحة والتعليم، ولاني عظيم الثقة في الحكومة المحلية وانها خير نظم الحكم اللامركزي لبلاد مترامية الاطراف كالسودان متنوعة الطبائع مختلفة المطالب» وفي الحكم بالجهل خطر كبير «ولهذا فانني اكتب لانير السبيل واعرف الناس بالحكومة المحلية في البلاد ساردا تطور نظام الحكم ونشوء الحكم الذاتي المحلي وتقدُّمِهِ مقارنا ما عندنا من حكم محلي بمثيلاته في البلاد الاخرى مبينا العيوب ومصورا المثل الاعلى للحكم الذاتي المحلي الذي اريده لبلادي» - «واخيرا خرجت من تلك المقارنات والنقد والتفصيل بما اراه المثل الاعلى للحكومة المحلية في السودان» - «والمثل الاعلى متجدد مع الزمن، وكلما حقق الإنسان

بعض الشيء من مثله الاعلى تفتحت امامه آفاق جديدة وتجدد امامه مثل اعلى ارفع من سابقه، ويظل بنو الإنسان في سعي مستمر عساهم ان يصلوا الى الكمال الإنساني المنشود». ثم يصف كتابه وهدفه منه بأنه «عمل متواضع اتقدم به كلبنة في اساس نهضتنا القومية وجهادنا في سبيل ترقية بلادنا ونيل استقلالنا كشعب يحكم نفسه بنفسه. واذا اثار هذا الكتاب اهتمام مختلف طبقات الشعب بالحكومة المحلية في السودان وجعل الناخبين يقدرون مسئوليتهم في انتخاب ممثليهم في مجالس الحكومة المحلية وجعل الاعضاء يشعرون بواجبهم الضخم والتضحيات المتطلبة منهم في ادارة دفة الحكم المحلي وشن الحرب ضد الفقر والمرض والجهل، وبعث في المتعلمين شعورا بمسئوليتهم نحو تثقيف مواطنيهم، ومواصلة البحث في الحكومة المحلية ونظم الحكم الاخرى، فانني سأكون سعيدا بما قدر له من نجاح... واذا قدر لهذا الكتاب ان ينبه الحكومة الى بعض النقص في النظام القائم والى اصلاحه وان يوضح رغبة ابناء الشعب في الحكم المحلي وهدف الشعب الاسمى ومثله الاعلى للعمل مع الشعب يدا وقلبا فذلك اقصى ما اتمناه».

هذه اجزاء من مقدمته الهامة اقتطفناها لأنها تصور نظر المحجوب في كتابه وهدفه منه. وبيانا للموضوعات التي يعالجها المؤلف ننقل رؤوس الموضوعات من فهرس الكتاب، وهي كالآتي: نظرة عامة للبلاد واهلها. تاريخ البلاد. تطور نظام الحكم ـ ان هذه الموضوعات ترد في فصلين وتشغل من صفحة ١٩ حتى صفحة ٥٠ . وفي الطرف التالي من الكتاب يتناول قضايا الحكم المحلي على النحو التالي: تاريخ الادارة الاهلية وتطورها. الحكم غير المباشر. قوانين ولوائح الحكومة المحلية. الحكومة المحلية في طور التنفيذ. سياسة الانتقال المحلي لمجالس المدن. اللجان. الموظفون. المالية. مجالس الارياف. واجبات الحكومة المحلية، اعضاء المجالس. واجباتهم وحقوقهم. علاقة الحكومة المركزية بالحكومة المحلية. مجالس المديريات. عيوب الحكومة المحلية. الحكومة المحلية في انجلترا. مقارنات. الحكومة المحلية المثالية.

يتناول المحجوب الادارة الاهلية فيبين ان اولها كان السلطة القضائية التي اعطيت لزعماء العشائر في الارياف في قوانين متوالية ثم السلطة الادارية التي اعطيت لهم في عهد المستر مفي. وقد انتقد المحجوب هذه الادارة نقدا شديدا. ثم اتجهت الحكومة منذ ١٩٣١ نحو الحكم المحلي، وهو ما يرحب به المحجوب ويسهم فيه بجهده هذا.

يقوم نقده للادارة الاهلية على انها قائمة على القبلية وهي رابطة اجتماعية عتيقة وتتعارض مع القومية، ولأنها تجمع في حالات قبائل متعددة تحت ادارة واحدة فتؤدي الى الفتنة بين القبائل والخصومات. وهو يريد الوحدة الادارية جغرافية نأيا بالعصبية القبلية. ثم ان قادة الادارة الاهلية اميون ويجهلون اصول الادارة واهدافها، ويقول في ذلك «فوجدتهم بعيدين كل البعد عن فهم روح الجريمة والعقاب وتقرير العقوبة حسب ظروف القضية وظروف المتهم الخاصة». وقد جاء تعاقب قياداتها بالوراثة، وهذا يحجب المقتدرين وفي نفس الوقت قد يأتي بمن لا يستحقون. ولجهل الزعماء بالادارة وعدم بريقها فانهم يركزون على الجانب القضائي، وهكذا يهربون من الادارة وخدمة الناس واسعادهم. وهنا يقول: «ولكن الرؤساء ومساعديهم وجدوا في القضاء خير اداة لاظهار سلطانهم ولهذا التفتوا إليه دون شئون الادارة والتنفيذ المناط بهم، ولهم في ذلك عذرهم. ويتضح من هذا ان دمج السلطة القضائية والسلطة التنفيذية يؤدي الى اضرار كثيرة واهمال جانب من العمل والاهتمام بالجانب الآخر. وربما كانت هذه المحاكم تؤدي عملها احسن في داخل المقاطعة ونظرت استئنافاتها قضاة من المصلحة القضائية، بدلا من رجال السلك الاداري». واجمالا فإنه يرى الادارة الاهلية رجعة الى الوراء. وارجو ان اضيف ان المحجوب يعبر عن رأي القضاة عموما في تركيب الادارة الاهلية، فهم يرفضون الجمع بين القضاء والادارة ويرفضون ان يكون القضاء اداة لتقوية الادارة، وينادون بأن تكون السلطة القضائية للادارة تحت اشراف القضاء. ولكن الاداريين يرون وجها آخر، فالإدارة الاهلية بتركيبها اداة

فاعلة وقليلة التكلفة ومهمة للامن، وهي لازمة ضرورية في مجتمعات البداوة. هذا الاختلاف بين الرأيين وحصيلة المظالم وتنازع القوى الاقليمية ورياح التحديث واعاصير اكتوبر قد صعد به حتى شغل الحاكم والمحكوم وقد ادى في النهاية الى تصفية الادارة الاهلية في اول العهد المايوي. ولكن المردود كان مكلفا، وهذا ما دعا الآن الى اعادة هذه الادارة وتعزيزها في مواطن البدو.

ونرجع الى المحجوب وننتقل الى نظره في الحكم المحلي. يدرك المحجوب واجبات الحكم المحلي ويختصرها في ثلاث نقاط هي الحماية والرفاهية والراحة. وهو يعدد ادوات هذا الحكم من قوانين ولوائح واجهزة وموظفين واعضاء ويعطي لكل جانب حقه اخذا وعطاء ثم يتعرض الى مآخذ الحكم المحلي ويلخصها في ست نقاط هي: (١) ان الانتخابات لا تأتي بالافضل. وهو يعتقد ان معالجة هذا النقص يمكن ان يتم بوجود الموظف المختبر وتعيين الاعضاء ذوي الخبرة في اللجان. (٢) يخشى على المجالس من القبلية، ولذلك يقترح الابقاء على الحدود الادارية للمديريات والمراكز والمدن لتتحول الى مجالس، اي انه يريد المحافظةعلى الاساس الجغرافي بعدا بالمجالس عن القبلية. (٣) يخشى من نظام الانتخابات في مجتمع غير متطور. (٤) ينتقد السلطات الواسعة للمديرين في التعيين في عضوية المجالس. (٥) اساس الضريبة غير واضح، ولا يمكن ن يكون الاساس الموحد لكل السودان بل لا بد من التنوع والتفاوت بالنسبة لظروف المناطق. (٦) الخوف من انحراف الموظفين واعضاء المجلس نحو المصالح الخاصة خصوصا في غياب الوعي.

وبشكل مجمل فان المحجوب قد وضع دراسة ممتازة، وقد ساعده في النجاح تمكنه من الجانب القانوني وتجربته المباشرة من مراقبته لاعمال زعماء العشائر من موقعه القضائي.

ان كتاب الحكومة المحلية له اهميتان، اولها ان المحجوب يعالج موضوعا يقع في دائرة اختصاصه بصفته قانونيا وبصفته مفكرا سياسيا. اما الاهمية الاخرى فهي ان إدخال نظام الحكومة المحلية قد أثار الخريجين إثارة بعيدة.

وبينما كانت هذه الطبقة تعارض الادارة الاهلية وترميها بالجمود والرجعية وتتهم الحكومة بانها ادخلت هذا النظام للوقيعة بين المتعلمين وبين زعماء العشائر وللفصل بين المتعلمين وغير المتعلمين، ولكي تجعل من زعماء العشائر اداة طيعة لها وقوة مناوئة للتجديد فانها رأت في نظام الحكم المحلي، وقد كان مطبقا في بلاد الانجليز نفسها، تجديدا في نظام الحكم والادارة. ومن هنا انصرفت الى المشاركة في بنائه عن طريق الكتابة والبحث وعن طريق المشاركة الفعلية في اجهزته. ولو رجعنا بالذاكرة الى الاربعينات واوائل الخمسينات لوجدنا ان قادة الخريجين هم الذين كانوا يقودون المجالس المحلية، ولوجدنا ان الاحزاب كانت ترشح الصف الاول من رجالها في هذه المجالس. غير ان هؤلاء قد اتجهوا فيما بعد الى عضوية البرلمان والى المناصب الوزارية وبالتالي حرمت المجالس من الاعضاء المقتدرين.

وعلى هذا ينبغي ان ننظر في اتجاه المحجوب في كتابه «الحكومة المحلية» في اطار الاتجاه التعليمي السائد بين قادة جيله، والذي يهدف الى خلق وعي عام يؤدي الى ترقية المجتمع ليكون قادرا على التصدي لمهامه في عملية التنظيم والترقّي. وفي نفس هذا الخط نجد كتابين مهمين، اولها كتاب ادارة الجمعيات الذي وضعه مكي عباس ليكون هاديا للجمعيات المدرسية. لقد علم هذا الكتاب النشء كيف ينظم ويقود الجمعيات. ومع هذه الجمعيات انشئت في المدارس الجمعيات الادبية وصدرت الجرائد المدرسية. واذكر هنا ان جريدة البداية التي كان يصدرها طلاب حلفا الوسطى استمرت لعدة سنوات وكانت موضع عناية اساتذة اجلاء على رأسهم المرحوم عبد الرحيم الامين وابو القاسم بدري ومحمد توفيق احمد، وكنا نتبادل هذه الجريدة مع مدارس اخرى. لقد كان تأثير الجمعيات ومن ورائها كتاب مكي عباس ـ والنشاط الأدبي مؤثرا في أجيال من الطلبة. ومن المؤسف انه لا يتوفر عندي كتاب الجمعيات حتى اعرض محتوياته للقارئ، اما الكتاب الثاني فهو كتاب «الطريق الى البرلمان» لاسماعيل الأزهري، وقد وضعه ليكون هاديا للجمعيات المدرسية والخيرية

والرياضية والأحزاب وطبع تصرفات الاعضاء بالسلوك المنظم واذا ما تقدمت البلاد واستقلت يكون الكتاب قد مهد لهذا الاستقلال بمسئولياته بوضع التقاليد البرلمانية التي انطبع بها الناس وصارت جزءا من سلوكهم. فالفكرة عند الازهري متبلورة اكثر، وهو اكثر قربا الى المحجوب.

وقد طبع كتاب الأزهري بمصر اولا في اوائل الاربعينات، وقد استقبل بحماس، ربما للحاجة الى مثل هذا الكتاب في ذلك الوقت وربما ايضا لأهمية مؤلفه وتوهج دعوته السياسية. واذكر ان مجلة الرسالة قد نوهت به وأشادت بمؤلفه. وعندما اعدت هذه الورقة لم تتوفر عندي نسخة من هذه الطبعة، فليعذرنا القارئ اذا لم نذكر ابعادها وتاريخ صدورها. ثم طبع ثانيا بعناية دار الثقافة ببيروت. وهذه الطبعة بغير تاريخ. وتبلغ صفحاتها ٣١٩ من القطع الصغير.

ان كتاب الأزهري تتصدره مقدمة معبرة عن هدفه من الكتاب، اما المادة نفسها فتتكون من ١٠٢٥ فقرة تقع في ابواب. وهو كتاب واف في بابه، دقيق في تتبع الجزئيات، ومنضبط في سوق القواعد والفوائد. ومصداقا لما اقول اذكر ان خلافا وقع بين اعضاء مجلس الشعب حول أمر فلجأ إلينا المرحوم الدكتور جعفر بخيت - وكان له موقف من الأمر بخلاف ما عليه آخرون - فعُدنا معا الى المراجع ومن بينها نظم مجالس السودان فإذا بالأزهري هو الأدق والأوفى.

موت دنيا

وضع المحجوب هذا الكتاب بالاشتراك مع خليله الدكتور عبد الحليم، وهو طبيب مشهور ومن قادة الحركة الرياضية، واديب مشهود له. وقد ترقى في سلم وظائف الطب حتى صار مديرا لمستشفى الخرطوم، وهو اكبر مستشفيات السودان. وكان عضوا بمجلس السيادة بعد ثورة اكتوبر، وقد

استقال منه لأنه برم منه ومن السياسة، فحليم ليس ممن تستهويهم السياسة وصخبها.

وقد صدر الكتاب عن مطابع دار اخبار اليوم بالقاهرة في اواخر ١٩٤٦. وهو يبلغ ١٨٠ صفحة من الحجم المتوسط. وقد أهدياه الى روح محمد عبد الحليم، والد عبد الحليم وخال المحجوب ومربيه. ويقع الكتاب في مقدمة وثلاثين قطعة كل منها تعبر عن موقف او تعرض موضوعا. والكتاب بجملته ترجمة ذاتية، ان صح هذا التعبير، للكاتبين وجيلهما، وقد شعر الكاتبان انهما اديا دورا مهما ورائدا فيما قام به جيلهما العظيم، وان في هذا الدور قدرا يستحق ان يراجعه ابناء الجيل وان يتدبرها ابناء الاجيال القادمة ويتخذوا منه العبر.

واصدق وصف للكتاب وهدفه ما ذكراه في المقدمة، انهما يقولان: «انها دنيا ولا كدنيا الناس، عشناها في نضرة الشباب وبهجته، وقوة الفتوة وتوثبها، وتضحيات الرجولة ونبلها، شأننا في ذلك شأن كل ابناء جيلنا، شعرنا بالحرمان في باكورة الصبا، وبجفاف العيش وعبوسه»، وتمضي المقدمة تصف نعيم الحياة وسعادتها بعد العسر ثم زوال هذا النعيم وبهجته لما اصاب مجتمعهم من تحزب بغيض، «ومرت بالبلاد سبع سنوات عجاف تركت اثرها في الافراد والجماعات وكادت تعطل سير الاصلاح وتعوق الإدارة الحكومية عن الدوران، وهالنا ما رأينا وعز علينا ان نحيا في عالم من نسج خيالنا وبلادنا تعاني من الألم والحرمان»، ففارقا هذه الحياة، هذه الحياة اذن ماتت، وانقلبا الى الجد: «واذا الأدب الرفيع واذا الفن الجميل وسيلة الى ايقاظ الشعور وخلق الوعي القومي بعد ان كنا نتخذ هذا وذاك غاية لذاته لا وسيلة» ثم تتعرض المقدمة الى وصف الكتاب «ونحن اذ نقدم للقراء صورا واضحة من حياة اثنين من ابناء هذا الجيل، عاشا في دار واحدة، ونهلا الثقافة من مورد واحد، وخفق قلباهما بالحب ونبضا بأدق الاحاسيس، وفكرا في امر بلادهما تفكيرا خالصا غير مغرض، وعبرا عن آمالها وآلامها، والفا الحياة معا حتى لا

يجد احدهما للحياة معنى الا اذا قاسمه الآخر ملذات الحياة ومباهجها، وشاطره آلامها واحزانها، انما نقدم صورا من حياة جيلنا... واننا لنأمل ان يجد ابناء جيلنا ومن عاصرنا في هذا الكتاب صورة واضحة لجيل جاء في احرج الفترات التي تمر بالشعوب وان يلمحوا صور حياتهم الخاصة والعامة منبثة في الكلمات وبين السطور.... واننا لنأمل ان تجد فيه الأجيال المقبلة صورة من صور كفاح جيل في سبيل الحياة، ليس لأشخاصه الفانية بقدر ما هو لاسعاد امته الباقية».

هذه مقدمة جيدة كتبت بوعي، ونحسب انها بقلم المحجوب، والمحجوب يحسن كتابة مقدماته ويضع فيها عصارة كتبه وجماع افكاره ولب روحه.

ويتوالى الكتاب في قطع مرقمة تبلغ ثلاثين، تطول وتقصر حسب ما تتناول من موضوعات. وقد وصفا حياتهما النفسية والفكرية واباناً ما شغل جيلهما من قضايا وافكار، وفيه صدى لما ردده المحجوب في مقالاته وكتبه ولما قرأ من كتب ومقالات.

انه كتاب يقرأ للامتاع بهذا الاسلوب الأدبي الراقي، وللترجمة الجيدة لاتجاهات الكاتبين النفسية والفكرية ولاتجاهات الجيل بأسره.

الديمقراطية في الميزان:

وقفت على هذا الكتاب في نصه الاصلي باللغة الانجليزية عند صدوره، فقد ارسله إليّ المحجوب مع كلمة اهداء رقيقة دونها بخطه، وقد اخذته معي الى الجنوب اثناء طوافي على انحائه لإعادة تخطيط مديرياته، وقرأته وانا على الباخرة في رحلة جميلة بين ملكال وفانجاك، ثم منها الى بنتيو. وقد خصصت هذا الوقت بالذات لقراءته لأنني كنت تواقا لقراءة مستوعبة لهذا السفر توفرها رحلة نيلية بهذا الصفو ويحيط بها هذا الجمال الاخاذ الذي حبا الله به الجنوب من مياه عذبة وخضرة على مدى البصر ومختلف الطير والحيوان. بيد ان الكتاب صدمني لكثرة ما فيه من الذاتية، فصرت انصرف عنه ثم اعود

إليه حتى بلغت نهايته على كره مني. ولما شاء الله ان اكتب عنه في هذه الدراسة استعنت بالترجمة العربية، طلبا لسرعة المراجعة ولم يواجهني العسر في هذه المرة بقدر ما واجهني اولا، لأن المؤلف قد مات، والمرء يقبل من الأموات ما لا يقبله من الاحياء، ولأن الترجمة العربية قد خففت بعضا مما لم يعجبني.

صدر الكتاب في ١٩٧٤ ونال شهرة بعيدة نظرا لشخصية المؤلف وشهرته، وقد زاد من وجاهته تقديم اللورد كرادون، الدبلوماسي البريطاني المشهور والذي اعد مسودة القرار رقم ٢٤٢ المشهور بشأن مشكلة الشرق الاوسط بعد حرب الستة ايام. ان هذا التقديم والذي قرظ فيه كرادون الكتاب باسلوب انجليزي يتسلق القمة بجماله ورصانته لدليل على وجاهة المحجوب ومركزه. وقد اهدى المحجوب كتابه لاسرته اعترافا بما عانته معه. ويقع الكتاب في ٣١٨ صفحة من الحجم الكبير، وهو يتكون من سبعة ابواب متصلة ومتداخلة تتجلى فيها براعة المحجوب ككاتب متمكن من موضوعه ولغته ومستوعب للتجارب التي يعالجها. وقد تضمن الكتاب مجموعة من الصور للمؤلف في مواقف وطنية وعالمية.

أما الترجمة العربية فاننا وقفنا منها على الطبعة الثالثة (١٩٨٩) والتي تولى اصدارها دار جامعة الخرطوم للنشر وتولت طبعها دار الاهرام. وفيما نحسب فان هذه الطبعة لا تختلف عن الطبعتين السابقتين. وتقع هذه الطبعة في ٣٤٩ صفحة من الحجم الصغير. وهناك اخطاء مطبعية لا تخطأها العين. واسوأ من ذلك اخطاء الترجمة والتي قد لا ينتبه إليها القارئ العادي وخاصة غير السوداني. وكان حريا بدار النشر مراجعة الترجمة. وقد اسقط الاهداء واسقطت الصور. وقد جاء العنوان الفرعي: «تأملات حول السياسات الافريقية» بعد اسم المؤلف، وكان الاحرى ان تأتي بعد العنوان الاصلي. ولست ادري ان كانت «الديمقراطية في الميزان» ترجمة دقيقة لعبارة «Democracy on Trial» ولكنها على اي حال عبارة اخاذة تجذب القارئ ولا

تبعد كثيرا عن غرض الكتاب.

ونظرة سريعة الى القضايا التي يتعرض إليها الكتاب والطريقة التي يعالج بها المحجوب هذه القضايا ترينا ان الكتاب عبارة عن تأملات رجل عايش الحوادث ويملك الخبرة على تقييمها اكثر من كونها محاسبة للديمقراطية أو تقييما لمحاولاتها. وقد وصف المحجوب عمله بأنه تأملات في اكثر من موضع الى ان العنوان الجانبي اصدق من العنوان الرئيسي. ويقع الكتاب في مقدمة للورد كارادون وسبعة أقسام. وكل قسم مقسَّم الى فصول تطول أو تقصر حسب الموضوعات.

تناول في القسم الأول بإيجاز وعن اقتدار التحولات التاريخية والسياسية في السودان حتى الاستقلال. وقد قيم العهد التركي والمهدية والعهد الثنائي تقيما سريعا وقيما كما عرض اتجاهات الحركة الوطنية بشقيها الاستقلالي والوحدوي. وفي القسم الثاني تعرض الى سياسات عبد الناصر والحوادث الضخمة التي جرت في عهده. وتقييمه لعبد الناصر هو انه فشل في سياساته الا انه خلق صورة لبعث القضية العربية، ولأنه كان في موضع قريب فانه تعرض في هذا القسم والقسم الثالث الى انعكاسات سياسة عبد الناصر وبخاصة قضية القناة وحرب الستة ايام ومؤتمر القمة العربي. وفي القسم الرابع تعرض الى حرب اليمن وفي القسم الخامس عاد الى السودان في سنواته المضطربة فبين اخفاق الاحزاب فيما بعد الاستقلال. ثم تعرض الى عهد عبود والى ثورة اكتوبر والعهد الديمقراطي الثاني ثم عهد مايو. وقد وقف وقفات مركزة حول مشكلة الجنوب والاصطدامات السياسية في الشمال وبالذات في العهد المايوي. وفي القسم السادس تعرض الى السودان وتطلعه نحو افريقيا ومشاركته في الحركات الافريقية نحو التحرر وبناء الدول ونمو الوحدة الافريقية والعمل المشترك. وفي القسم السابع يصل الى خلاصة تأملاته التي يسميها اخطاء الماضي واماني المستقبل، وينتهي هذا الفصل برسالة امل الى الجيل التالي.

يتناول هذا الكتاب فترة مليئة بالحوادث الجسام في منطقة مضطربة دائمة

التوتر، من السودان، الى مصر، الى اليمن، الى البلاد العربية، المشكلة العربية، اسرائيل، مشكلة قناة السويس، الى الامم المتحدة، الى افريقيا المتطلعة، وذلك بتعقيداتها ومنعرجاتها وحروبها وثوراتها. وقد تناول كل ذلك بالدراسة والتحليل. وبما ان المؤلف قد شارك في هذه الدوائر، او اهمها، على الأقل، بصفته وزيرا لخارجية السودان او رئيسا للوزراء فإنه كان ملما بما جرى ومتتبعا، وقد اعطى للقارئ صورة لما تم وختمها بتأملات عميقة. الا ان الذاتية المفرطة سيطرت عليه فاعطى لنفسه اكثر مما كان له حقيقة. وهذا يشوه الامور في عين القارئ ويخلق التوتر في نفس القارئ الملم، وفي النهاية ينزل بمستوى الكتاب. فالسودان لم يكن بالوزن الذي طرحه في السياسة العالمية والاقليمية. ولعل مندوبه يقدم ليمثل العرب لبعده عن الانحياز للأطراف وليس لوزن سياسي. ولم تكن مفاتيح السياسة السودانية في يد المحجوب بحيث يتصرف على النحو الذي يصوره الكتاب، بل كانت الحكومات التي اشترك فيها حكومات ائتلافية تتوزع فيها سلطة اتخاذ القرار. ومن الخطأ أن يفضل المحجوب حزبه والحزب المؤتلف معه ويصور الأمر وكأنه المنفرد به. ومن الظلم ان يغفل الدبلوماسيين السودانيين الذين رتبوا الأمور بالدراسة والمذكرات. ومؤتمر الخرطوم المشهور والصلح بين عبد الناصر والملك فيصل لم يكن ثمرة جهده الخاص وانما كان حصيلة جهد الحكومة بشقيها المؤتلفين وجهد الدبلوماسيين السودانيين.

ومع ذلك، وغير ذلك، فان هذا كتاب مهم ويحتل مكانه المرموق في المكتبة السودانية. ولا شك انه أهم مؤلف للمحجوب.

الشاعر القروي:

وهو بحث اعده ليلقى في مهرجان مدني الأدبي. وقد وقفت على نسخة خطية منه اعارها لي المحجوب واذن لي بتصويرها فصورت نسخة واحدة واحتفظت بها، وهي التي عليها اعتمادنا الآن. وهذه النسخة بخط يده، ويرد

في نهايتها امضاؤه. وهي تبلغ ٣٤ صفحة من الحجم الصغير. وبهذه النسخة سقط يبلغ صفحتين هما ١٥ و١٦. ويقول المحجوب انه تلقى دعوة لإلقاء محاضرة في هذا المهرجان، وما زال يقلب النظر في الأمر حتى استقر رأيه على الاستجابة وعلى أن يكون اسهامه رسالة عن «الشعر والوطنية مع عرض وتحليل لديوان الشاعر القروي رشيد سليم الخوري - الأعاصير».

وقد استهل المحاضرة بتقدير خاص لمثقفي مدني وتحية لجهودهم المثمرة، وسعادته بأن يعيش بينهم ويشاركهم نشاطهم. وقد خص من جهودهم بالذكر مؤتمر الخريجين الذي جاءت الدعوة لإنشائه منهم. ثم تناول الشاعر وشعره.

والذي يستهوي المحجوب من شعر القروي هو اولا جانبه الوطني، ذلك لأنه عبر عن حبه للبنان وارتباطه القوي به بالرغم من انه هاجر واتخذ الدنيا الجديدة موطنا. فهذه الرابطة الوجدانية التي تربط الشاعر بتراب لبنان اثارت نفس المحجوب وحركت وجدانه.

«والشاعر القروي شديد الفكرة الوطنية وايمانه بالوطن يكاد يطبع كل افكاره، فهو وان كان ممن يقولون بأن تقدير الحسن والحب مما لا يعرف دينا ولا وطنا الا انه يعرض عن حب «الاجنبيات» لأن في وطنه صيحة للجهاد». ثم «الا والله انه ايمان بالوطنية وصل الى درجة العقيدة، والمرء الذي لا يرجو سوى وطنه وابناء وطنه في أوقات المحن والكرب وإن شطت به الدار فهو الرجل الصادق الوطنية الأكيد الإيمان الثابت العقيدة. وهذا الرجاء الوطني هو الذي يدفعه ليعمل ويجاهد حتى يحفظ كرامة وطنه وهو بعيد عنه فيكون له نعم السفير في بلاد الغرب... والشاعر يؤمن بدين الوطنية ايمانه بدين العقيدة. لهذا يحلو له ان يقرن بين الاثنين. وفي هذا ما فيه من المقدرة على اخذ الناس بدين الوطنية كإيمانهم بدين الله. وقديما قيل «حب الوطن من الإيمان».

ثم هو ثانيا مأخوذ بأدائه النظمي لأنه مطبوع لا يتكلف، صادق في

تعبيره، جميل في لفظه، ودقيق في تصويره: «والشاعر القروي صاحب اسلوب في الشعر ممتاز، وذلك لأنه شاعر مطبوع لا يتكلف الشعر ولا يتصيد الالفاظ النابية بل هو سلس سهل اللفظ جيده»، «أفلا تسمع في هذه الأبيات اللفظ البسيط والمعنى الجليل مع فخامة في الاسلوب وصخب في الموسيقى، وهي كل ما يتطلبه الشعر القومي الذي يثير النفوس ويدفع بالناس الى الثورة واسترداد الحقوق المغصوبة. وللشاعر القروي ميزة في ايراد المعاني المبتكرة وفي سهولة تدعو الى التقدير والإعجاب به ليس كشاعر فحسب بل كشاعر يجري في كل حلبة من ميادين البيان فيبز ولا يبز».

لقد عرض المؤلف احكاما ونظرات في شعر الشاعر القروي، وقد اصاب كثيرا، ولكنه لم يقم بالطرف الثاني من البحث وهو التحليل. وقد افسد عرضه تهافته على دلائل الوطنية وخطابيته الجامعة في الاسلوب. وقد جاءت فكرة المحاضرة فجة لهذا السبب، فشعراء السودان لم يقصروا في التعبير عن الوطنية وحب بلادهم حتى نلومهم على القعود عنه، وأنت والمؤلف وانا ندرك ان شعراء السودان نظموا قدرا كبيرا في الوطنيات. وما قولك في وطنيات توفيق صالح جبريل وصالح عبد القادر وعبدالله عبد الرحمن وشاعر المؤتمر - مثلا - وقصيدة مدثر البوشي التي ولدت شرارة الثورة. وقصيدة عبيد عبد النور. لم يقصر شعراء السودان في هذا المجال ولا قصروا في مستوى النظم فيه. وهل - حقا - يحتاج شعراء السودان الى ان نذكرهم برسالة الشعر الوطنية حتى ندرس لهم ديوان الشاعر القروي ونقيم لهم به الحجة ونضع به ميزان هذا الشعر. لقد ظلم المحجوب نفسه والشعراء بهذه الشطحة، وقد دفعه إليها حب الاستعراض بما قرأ والتركيز على ما يحب ان يرى.

محاضرة عن الحركة الثقافية

ونذكر ان المحجوب القى محاضرة في الخمسينات بدار الثقافة عن الحركة الثقافية في السودان، وقد حضرت هذه المحاضرة وانا طالب بالجامعة ومعي

مجموعة من الطلبة، ونحسب ان تلك المحاضرة كانت امتدادا لآرائه المضمنة في كتاب الحركة الفكرية، غير اننا لم نعثر على نص للمحاضرة، وقد كانت مكتوبة يقرأها المحاضر. ومن الطريف انه رفض في هذه المحاضرة الاخذ بالفكر الماركسي باعتباره فكرا وافدا بينما هو يتمسك بما هو سوداني نابع من السودان، فانبرى له شاب من جماعة ماركس، وسأله كيف اذن تقبل الاسلام وهو وافد الى السودان، فارتبك المحجوب قليلا ثم تخلص من المأزق بقوله ان الاسلام ليس من البشر وانما جاء من السماء.

دواوينه

بدأ المحجوب النظم من حياته الباكرة ونظم شعرا كثيرا. وقد ظل ينظم حتى ايامه الاخيرة مع انه توقف عن الانتاج الفكري لفترة طويلة. وقد روى في كتاب الديمقراطية في الميزان انه نظم قدرا من الشعر وهو مسجون في جوبا في عهد الفريق عبود، وهذا الكتاب هو الانتاج الوحيد في سنواته الاخيرة، وقد جاء بالطبع بظروفه فلتة. وفي ديوان مسبحتي ودني يذكر ان بعضهم زعم انه توقف عن الشعر، ثم يرد عليهم بأنه ظل ينظم، وان قصائد هذا الديوان دليل حيويته الشاعرية. وقد نظم قصيدة ذات الرداء بعد ان اخذ بجمال طالبة تحركت بثوبها امامه وهو يلقي خطابه الرسمي كرئيس للوزراء في احتفال الشهادات بجامعة الخرطوم، اي ان المحجوب كان ينظم الشعر في فترة توقفه عن التأليف. الا انه والحق يقال كان مقلا في ذلك لظروف السن ومشغوليات السياسة.

وكان المحجوب معجبا بشعره، وكان يطربه ان يحمد شعره وان ينشد. واذكر هنا انه اولم وليمة عشاء للمستشرق الفرنسي جاك بيرك ودعا عددا من المثقفين والوزراء، وقد انشد له الاستاذ مكاوي مصطفى بعض شعره - ومنه ذات الرداء - بصوت جميل، وقد أطربه ذلك الى حد بعيد، وما زال به يطلب المزيد حتى اوشك الليل الى النهار.

وقد نشر المحجوب قدرا كبيرا من انتاجه الشعري في الصحف، وبالأخص في النهضة والفجر والحضارة، ثم ضمن جانبا منه في دواوين.

ومن المؤسف انه لا يذكر في دواوينه تواريخ قصائده، وفي ذلك ضياع كثير، لأن الباحث لا يدرك تتابع القصائد، ومن ثم تطور فكر المحجوب ونظمه الا اذا توفرت له التواريخ. وبالطبع يمكن تحديد بعض التواريخ - بقدر ما - من تواريخ النشر في الصحف. وهو ايضا لا يحفل بذكر مناسبات القصائد، وهذا ايضا مما يشكو منه الباحث.

وقد تناول الاستاذ السماني كمال الدين محمد في اطروحة جيدة بعنوان «محمد احمد محجوب اديبا» قصائده ودواوينه، وخرج من دراسته بحصيلة جيدة من الفوائد العلمية. فليرجع إليه من شاء الاستفاضة.

وقد نشر المحجوب عدة دواوين، ولكنها لم تستوعب كل شعره، بل ان البحث عن مجمل القصائد ما زال ينتظر من يتصدى له، وهذا يعني العودة الى اوراقه الخاصة والى الصحف القديمة، وبالأخص صحيفة الحضارة، ودون ذلك مصاعب، منها ندرة مجموعات الصحف القديمة والحالة السيئة لما هو محفوظ منها.

وديوانه الاول صدورا هو «قصة قلب» وقد صدر عن دار الثقافة ببيروت في ١٩٦١. وهو يتضمن ٦٩ قصيدة ومقطوعة. وواضح ان هذا الديوان لا يتضمن كل شعره، بل ولا حتى كل ما نشر في الصحف.

والديوان الثاني هو «قلب وتجارب»، وقد صدر في بيروت في ١٩٦٤ عن مكتبة الحياة. وهو يتضمن ٨٥ قصيدة ومقطوعة من ضمنها كل ما ورد في الديوان الأول. وهذا ايضا لا يتسع لكل شعره.

والديوان الثالث ديوان صغير، وهو الاندلس المفقود. وهو يتضمن قصيدة واحدة بهذا العنوان - وقد اضافها في الديوان التالي. وتبلغ صفحاته ٣٠ صفحة من الحجم الصغير، وقد صدر عن دار العودة ببيروت في ١٩٦٩.

وتتصدر الديوان مقدمة للاستاذ عبد الرحمن الشرقاوي اطرى فيها المحجوب وشعره.

والديوان الرابع والاخير «مسبحتي ودنى»، وهو يتضمن ١٢ قصيدة ومقطوعة من ضمنها قصيدة «الاندلس المفقود» التي افرد لها الديوان السابق. وقد صدر عن دار المعارف بمصر في ١٩٧٧، وقد سمي على القصيدة الاولى به.

وعلى ما ذكر الاستاذ السماني فان القطع التي نشرت في النهضة والفجر ولم تضمن في الدواوين تبلغ خمسة. كذلك لم تضمن القصائد التي نشرت في الحضارة، وقد يؤخذ من ذلك انه استبعد شعر الشباب، كما يؤخذ انه اختار من شعره بعض القصائد وترك ما عداها. ولعله رأى ان يترك ما ليس في مستوى ما يريد، او لعل بعضها على الاقل، لم يكن متوفرا عنده. ولكنا في هذه الحالة لا نرى عذرا ازاء القصائد التي نشرت في النهضة والفجر، فهذه كانت طوعه ان اراد في مجوعتي المجلتين عنده. ولهذا نميل الى انه اختار ما احب وابعد ما لم يرضه. وهذا ما يفعله الشعراء، اذ لا يضمن شاعر في ديوانه كل ما نظم. وبعضهم يكفر بشعره كما فعل المازني او ببعضه كما فعل غيره.

مؤلفات مؤجلة

رتب المحجوب في رأسه مشروعات كتب لم يقيض لها الله ان ترى النور مكتوبة على الصحائف، لأسباب لعل أهمها انشغاله بالسياسة والأنشطة الاجتماعية، ولعله ارجأ اعداد «نحو الغد» ونشره لهذا السبب نفسه. ثم جاء تقدم العمر واعتلال الصحة. وقد وقفنا منها على ثلاثة كتب، هي:

١ - كتاب «في الشعر والشعراء»، وقد ذكره كاتب بتوقيع «اديب صغير» في معرض مجالات للكتابة يحددها ويقترح لها من يكتب فيها. وكان هذا الاديب معجبا بما يكتبه المحجوب حول الشعر والشعراء الى حد يحمله

الى القول بأن المحجوب سيقوم بواجب الاستاذية والارشاد بكتابه هذا. والمحجوب نفسه لا يذكر هذا الكتاب، ولكن ربما كان الأديب الصغير على علم بنيته، والا فكيف له أن يذكر كتابا لمؤلف وبعنوانه ما لم يكن على بينة منه، او لعله على الأقل يتصور مثل هذا الكتاب من وحي ما كان يكتبه المحجوب حول الشعر واراد ان يحثه على ان يكمله الى كتاب. ولعلنا نحسب ان مقالاته: صالح عبد القادر، الملاح التائه او المهندس الشاعر، الشعر الهام وصناعة، الرثاء عند ابي العلاء المعري، ابو القاسم الشاعر، الشعر القومي، كانت من فصول مشروع هذا الكتاب. ولكنه وضعها بغير تردد ضمن المقالات التي تضمنها كتابه «نحو الغد».

٢ - كتاب في تاريخ السودان، ذكره في كتابه «الديمقراطية في الميزان»، وقال انه مقدمة لدراسة عن السودان خلال اربعة اجيال وبعض التوقعات عما سيكون عليه الجيل المقبل. وقد خطط له في ايام السجن في جوبا حيث اتيح له ان يقرأ ويبحث في شئون البلاد وان ينظم بعض الشعر ايضا، ولكنه لم يعد الى هذا الكتاب بعدها[1]. الا ان لنا وقفة هنا. فللمحجوب غرام بتاريخ السودان والكتابة فيه لاعتقاده بأن هذا التاريخ عامل مهم في تكوين السودان المعاصر. وقد تناوله على هذا المنحى في كتابه عن الحكومة المحلية وكتابه عن الحركة الفكرية واتجاهها وكتابه الديمقراطية في الميزان. بيد انه يورد منه في كل منها ما يناسبه بما يهيئ القارئ للموضوع الذي يطرحه في الكتاب. اما في كتاب التاريخ هذا فلعله اراد ان يخص تاريخ السودان بما يقوم بذاته كتابا، لا تهيئة. وقد اورد في الديمقراطية في الميزان تاريخا وتأملات، وذلك يعني انه وضع فيه بعض ما اراده في كتاب التاريخ.

٣ - كتاب المهدي، وهو أهم مشاريعه التي لم تكتب، ولعله لو رأى النور لصار أهم مؤلفاته.

---

(١) الديمقراطية في الميزان ص ٢٠٤.

وقد اتصل بي المحجوب قبل مرضه واطلعني على مشروع هذا الكتاب وطلب عوني في تنظيم مادته، فقمت ومعي زميل يساعدني للمهمة ونظرت، واذا به قد وضع مشروعا واعد بطاقات وحدد مراجع يرجع إليها. وقد وجدنا ضمنها كتاب منشورات المهدي الذي حصل عليه من دار الوثائق، ونحسب انه كان يريد ان يعتمد عليه في الكتابة عن اسلوب المهدي، ومن هنا يتبين لنا هدفه من اقتناء هذا الكتاب. وكانت البطاقات غير منظمة وغير كاملة لأنه فيا نحسب اعتمد على الذاكرة واراد ان يدون افكارا. اما في التحرير فلم يقم بشيء. وقد نظمنا له البطاقات ووضعنا له مذكرة واقترحنا عليه امورا استحسنها. الا اني لم اكن مؤملا، لأنه كان غارقا في السياسة، ولأن الكتابة تحتاج الى صبر دونه نفس المحجوب عندئذٍ وإلى عافية دونها حاله.

لقد رتب المحجوب مشروعه في مقدمة وسبعة فصول وخاتمة. وكان موضوع المقدمة يدور حول النقاط التالية: السودان وسكانه وظروفهم المعيشية وانتشار الاسلام. انفجار ثورة ذات صفة تحريرية ودينية في قلب افريقيا ـ اي في السودان. ظهور هذه الثورة التحريرية في وقت الغزو الامبريالي لافريقيا وإعادة تقسيم المستعمرات بين دول اوربا الصناعية. الثورة المهدية هي الثورة الوحيدة التي نجحت في الشرق العربي الأوسط او في افريقيا في تحرير البلاد. اسباب نجاح هذه الثورة مرتبطة اوثق ارتباط بشخصية الامام المهدي وجوهر دعوته الدينية التي استهدفت تحرير الدين ايضا من البدع. وقد كتب هنا عبارة «Puritan movement» بما يعني انه يعتبر تركيز المهدي على صفاء العقيدة ونقائها ومحاربته للبدع موازيا لحركة نقاء العقيدة في المسيحية.

ويدور الفصل الأول حول الموضوعات التالية:

موجز لتاريخ السودان منذ ١٨٢٠ اي عام الفتح التركي الى ١٨٨١ عشية الثورة. الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في هذه الفترة. المظالم وسوءات

الحكم التركي. الاضمحلال الذي اصاب البلاد في عهد الحكم التركي وكيف ادى الى انتزاع كل حيوية في الدين الاسلامي والى انتشار البدع وازدهار المذاهب الصوفية.

ويدور الفصل الثاني حول الموضوعات التالية:

سيرة الامام المهدي ـ مولده ـ اصله ـ نشأته الاولى. بربر ـ الدامر ـ الخرطوم ـ ابا ـ صدامه الاول مع الصوفية. منشورات المهدي بداية حركة دعائية لتعبئة السودان نحو الثورة. اسلوب المهدي في المنشورات والرسائل. تأثره بالأدب الصوفي. الاسلوب السائد في الادب العربي في ازمان المهدي. نظرة المهدي الثابتة في اختيار الرجال. الخليفة عبدالله. اعتماده على الجعليين. قدرة المهدي التنظيمية وكيف استطاع وهو في ابا ان يبني شبكة واسعة من الانصار في شتى انحاء السودان.

ويدور الفصل الثالث حول الموضوعات التالية:

المهدي الثائر على الاوضاع الاجتماعية. المهدي الثائر على الطرق الصوفية واسباب هذه الثورة. المهدي المصلح الاجتماعي. المهدي المصلح الديني.

ويدور الفصل الرابع حول الموضوعات التالية:

انفجار الثورة المهدية واتمام تحرير السودان. تاريخ الحركة المهدية منذ واقعة ابا الى سقوط الخرطوم. عودة الدين الى مصدريه الاساسيين الكتاب والسنة.

ويدور الفصل الخامس حول:

الاسس والقواعد التي وضعها المهدي للحكم على ضوء تطور فكرة الدولة في الاسلام. الاسلام دين ودولة في عهد الامام المهدي. صدى اثر المهدي في الكتب والقصائد التي كتبها معاصروه. صداها في العالم الاسلامي. مقارنة بين

حركة الامام محمد احمد المهدي والحركات التي ادعت المهدية قبل حركته وبعدها.

ويدور الفصل السادس حول:

العوامل التي ادت الى نجاح الثورة. فساد الحياة الاجتماعية. التدهور الخلقي والانحلال الديني. انفجار الثورة العرابية. الاحتلال الانجليزي. حكومة غلادستون. شخصية الامام المهدي ومعرفته بالرجال والقتال. قدرته القيادية والتنظيمية. قدرته الادبية.

وتحت الفصل السابع والخاتمة لم يبين شيئا.

تلك هي الموضوعات التي حددها المحجوب لفصول كتابه في مشروعه الاصلي. واهم ما يذكره في المقدمة ان المهدية اهملت في الدراسات العربية بالرغم من انها الثورة الانجح. وان المصادر الافرنجية اقرب الى التقييم العلمي. والفصل الأول طويل جدا. والثاني لم يدون له بطاقات والرابع اطول الفصول ولكن بطاقاته غير كاملة. والخامس لا بطاقات له. ولم يحدد موضوعات الخاتمة ولكنها تدور عموما فيما يبدو من البطاقات حول نهاية الدولة المهدية وانجازاتها. ومع هذا الترتيب وجدنا الحاقين، يجري اولهما على النحو التالي بغير بيان للفصول

مقدمة. (١) تمهيد - تطور فكرة الدولة في الاسلام. (٢) الحياة الاجتماعية (التعليم والطرق الصوفية) (أ) في عهد الفنج. (ب) في العهد التركي (ج) في عهد المهدية. (٣) خصائص قبائل السودان. (٤) ترجمة الامام المهدي. (٥) اسلوبه في مسائل العبادات (٦) اسلوبه في الخطب (٧) اسلوبه في المنشورات والرسائل. (٨) اثر الأدب الصوفي في اسلوبه وتفكيره. (٩) الاسلوب السائد في العالم العربي في عهد المهدي. (١٠) كيف اثر بيان المهدي في الناس. (١١) صدى اثره في الكتب والرسائل والقصائد التي كتبها معاصروه. (١٢) كيف ما زج بين الدين والادب والسياسة. (١٣) كيف

نفـذ الى نفسيـات الجماهير. (١٤) نجاح الثـورة المهــديــة. (١٥) الاسس والقواعد التي وضعها للحكم (١٦) خاتمة.

وكما فعل من قبل فإنه لا يذكر هنا ايضا شيئا تحت الخاتمة. وبمقارنة هذا الالحاق بالتبويب السالف نجد انه عدل في خطة الكتاب بحيث قلل من المادة التاريخية وزاد من المادة الأدبية. اما الامور المتصلة بخلفية المهدي وشخصيته وتقييم المحجوب للفترة السابقة للمهدية فقد بقيت كما هي وان اعيد تشكيلها.

اما الالحاق الثاني فقد ورد ايضا في نقاط دون ذكر الفصول، وقد قال المحجوب في نهايته: «تضاف هذه الابواب في مواضعها من تبويب البحث السابق». وتفصيله كما يلي: (١) تطور فكرة الدولة في الاسلام (٢) الاسلام دين ودولة (٣) المهدية في الاسلام (٤) الحياة الاجتماعية والتعليم: في عهد الفنج و في العهد التركي (٥) المظالم: في عهد الفنج وفي العهد التركي (٧) الطرق الصوفية: في عهد الفنج وفي العهد التركي (٨) المهدي الثائر: على الاوضاع الاجتماعية وعلى الطرق (٩) المهدي المصلح الاجتماعي (١٠) المهدي المصلح الديني (١١) عودة بالدين الى مصدريه الرئيسيين الكتاب والسنة.

هذه الموضوعات تشكيلة اخرى للقضايا التي يتناولها الكتاب، وبعض نقاطها ذكر في الالحاق الاول، وبعضها اضافة، وبعضها تفصيل لأمور ذكرها من قبل. وبما انه يقترح اضافة الالحاق لمشروعه السابق فانا نتوقع ان يغفل هنا ما هو ثابت هناك، مثل الخاتمة واسلوب المهدي في الكتابة. وظاهر انه لم يبين النقطة السادسة، بل هو كتب الرقم ٦ ثم شطب وكتب الرقم ٧، ومعنى هذا ان الموضوع السادس ثابت في اصل المشروع. وقد ذكر انه يعتمد على كتاب «الفكر العربي في عصر النهضة» لالبرت حوراني عند كلامه عن تطور فكرة الدولة في الاسلام، وتطور الفكر في الدولة العثمانية، وثورة ابن عبد الوهاب. ثم ذكر حاجته الى معلومات عن الفترة بين سقوط الخرطوم ووفاة المهدي. وظاهر ان المحجوب وقف على الاصل الانجليزي لكتاب الحوراني،

ولم يقف على الترجمة العربية والتي صدرت في بيروت، لأنه ذكره بعنوانه الانجليزي.

ولعلك تعجب من اهتمامنا بكتب لم تكتب، وان نكتب بهذا الطول عن كتاب المهدي مع انه لم يخط. والإجابة على ذلك اننا لا نضع معجما او قاموسا للمؤلفات، وانما نعنى بفكر المحجوب واهتماماته. ولا شك ان هذه الكتب امتداد لفكره، ولا شك ايضا ان مشروع كتاب المهدي بالتفصيل الذي عرض به موضوعاته، وبتعديلاته واضافاته يبين نظرة المؤلف الى المهدي ودعوته، وتقييمه لشخصه وانجازه التاريخي والقلمي، يبين منهج المؤلف في التأليف وكيف كان يقلب النظر فيما يعد ويراجع ما يريد كتابته. وها هنا ربما تتوفر شواهد التأليف وقراءة اعماله الرأي وتقليبه بأكثر مما في المؤلفات التي تصلنا كاملة، على نحو ما تفيدنا مسودات قصيدة بمخاض النظم وتقليبه حتى يستقيم على آخره.

تقييم:

كان المحجوب رجلا طويل القامة، ممتلئ الجسم: ليس بالسمين ولا بالنحيف، وكان اذا وقف برز بين الرجال بطوله، وكان رأسه يميل الى الأمام قليلا. وكان متأنقا في لبسه، يلبس البدلة الافرنجية الكاملة او الجلابية مع العباءة، واحيانا يحمل مسبحة جيلة. وقد ساعده دخله الواسع من المحاماة ليعيش عيشا هنيئا، كما ان مهنته هذه، ومن قبلها القضاء، وتوفيقه قد رفعت مكانته الاجتماعية. وكان مترفعا على الناس لاحساسه القوي بتفوقه ومقدراته وملكاته، ولأنه لا يؤمن إلا بالخاصة، وهم المثقفون عموما والعلماء خاصة. الا انه كان اذا آنس إليك يصبح لطيفا ودودا وبسيطا. وكان معجبا بشعره وكتبه اعجابا فائقا ويعتبر نفسه في مقدمة كتاب العرب، وكان يحب الاطراء ويميل إليه بكل وجدانه. وكان يسره ان يخاطب بالبص BOSS اي الرئيس، وتلك كانت عادة محبيه واللصيقين به. وكان على علاقة متينة بالسيد عبد

الرحمن المهدي، وقد اخلص وظل على الوفاء له، وله قصيدة جيدة في رثائه، وقد امتدت صداقاته الى العلية، وشمل فيما شمل الملك حسين ملك الأردن والملك الحسن ملك المغرب. ولا اتصور اللورد كرادون يكتب مقدمة لكتابه لولا علاقة تربطه. وكان يحب مجالس الصفوة ويؤثر ذلك حتى على عمل الدولة - على الاقل في أواخر عهده.

هذا إذًا رجل يعشق العلو والاعالي ويؤمن ان مكانه هناك. ولكنه في نفس الوقت يؤمن ايمانا عميقا بأن مهمته، بل ومهمة امثاله جميعا، ان يعملوا لرفعة الطبقات الكادحة. هو يؤمن بالصفوة ويخاطبها بشعره ونثره، ولا يرضى ان ينزل بنفسه عن مستوى الصفوة. ولكنه يؤمن برسالتها، وبالتالي برسالة الكلمة. ولعل هذه هي فضيلته الاولى والتي لازمته في كل ادبياته. ان كلمته موجهة، انها كلمة استاذ يوجه ويحدد ويشير، وان هدف هذه الكلمة هو خدمة المجتمع ببث الوعي وتنظيمه وتوفير اسباب رفعته وراحته.

ويمكن تقسيم حياة المحجوب الى فترات. في الفترة الاولى انتج انتاجا فكريا واسعا من شعر ونثر، وهي مرحلة الحضارة والنهضة السودانية والفجر. وفي المجلة الاخيرة كان اسهامه متميزا، وقد نضج ما يكتب. وكان انتاجه في هذه الفترة يتركز على المقالة. وواضح انه أجاد فيما كتب لأنه يتناول في كل مقال موضوعا يأخذه بالدراسة الجادة مقدما ثم مناقشا ثم منتهيا من ذلك كله الى بلورة الموضوع وبيان ما يصل اليه. وهو لا ينزع الى الاستطراد ولا يميل مع المناسبة الى ما يبعده عن قضيته. وقد كتب مقالاته باسلوب عربي فصيح سلس. والغريب انه يظهر بهذا المستوى من اول ما نشر مما يعني انه استعد للكتابة بالقراءة والاستيعاب، والمران على التحرير. الا ان اسلوبه في غالبه تقريري، وقد يعبر عن ضجر، ولا يدري المرء مصدر ضجره هذا، أهو من الحوادث المعينة التي احتج عليها فيعتبره المرء رد فعل مباشر، ام هو من قلق كامن في نفسه يدعوه الى ما صور من ضجر وسأم ويدفعه الى الجموح النفسي اذا انطلق فينتقل من موقف الى موقف جد بعيد، كقوله لحسناء قابلها على

ضفاف بحيرة جنيف بعد ان اطراها واطرى جالها بأنه لاسعادها سوف يشق بنهر النيل ويوصله إليها عند البحيرة او كقوله عندما تضايق من اليهودية التي اشتكت من حر السودان ووصفته بالجحيم بأن الحل هو اعلان استقلال بلاد الجحيم حتى تكون لأهلها فقط.

وفي المرحلة الثانية ـ إلى بعد توقف الفجر ـ شغله القضاء قليلا وتوقف عن كتابة المقالات، ولهذا فكر في نشر مقالاته في كتاب. أتراه احسن بأنه ادى الرسالة ام تراه يترك عالم عرفات! ان مقاله عن عرفات وتقييمه له يوحي بأنه ودع هذه الدنيا واكتفى بحفظها في كتاب. وفي هذه الفترة شارك في انشطة المؤتمر، وقد انتقل من المقالة الى المحاضرة والادبيات السياسية. والمحاضرة اطول من المقال وتخاطب جمهورا اوسع من قراء المقالة، والتوجيه العام فيها اظهر. وقد كتب في هذه المرحلة محاضرات بلغنا منها: الحركة الفكرية والشاعر القروي. وهناك محاضرات لم نقف على نصوصها ولكننا وقفنا على خبرها واوردنا بعض ما نعرف عنها. وبالطبع هناك ما لم نسمع به. وفي هذه الفترة ايضا وضع كتابه عن الحكومة المحلية.

وباستقالته من القضاء تبدأ المرحلة الثالثة من حياته. وفي هذه المرحلة قل نشاطه في التأليف، واتجه الى السياسة في مسار يدور حول اتجاه السيد عبد الرحمن المهدي والدعوة الاستقلالية، وذلك لصلاته المتينة به ولايمانه العميق باستقلال السودان. وقد خدم في هذا المجال بنشاط ومثابرة مستغلا فصاحته وبديهته ولفتاته وخطابيته وخبرته القانونية. وهذا مهد له ليكون سكرتيرا للجبهة الاستقلالية وليلج منابر السياسة ورفع به الى زعامة المعارضة في البرلمان الاول ومشاركة الازهري في رفع العلم.

وقد انضم الى حزب الامة، الا انه لم يكن يستمد قوته في الحزب من قاعدة انصارية كالمرحوم عبدالله عبد الرحمن نقدالله وحسن محجوب وامين التوم او مركز تاريخي في الحزب مثل عبدالله خليل وابراهيم احمد، ولا كانت له شلة خاصة من المؤيدين، وانما كان يستمد قوته من ملكاته وشخصيته.

وموقفه هذا مثل موقف المرحوم جعفر بخيت بين جماعات الاتحاد الاشتراكي.

ولما جاءت ثورة اكتوبر كانت الزعامات التاريخية للحزب قد افلت: مات السيد الصديق المهدي وعبدالله الفاضل وشاخ عبدالله خليل وانزوى، وبالتالي تقدم المحجوب ليتولى رئاسة الوزارة. وقد تكون هذه بدايةمرحلة رابعة من حياته.

لقد وقع المحجوب بانضمامه لحزب الامة في تناقص، ولا يشفه له كثيرا ان ميوله تلتقي مع اهداف الحزب، اذ كيف به في حزب طائفي يقود حكومته وهو الذي كرس قلمه لبناء سودان خال من الطائفية والقبلية. انه فكريا يرفض الطائفية ويصر على ذلك حتى في كتابه الديمقراطية في الميزان والذي كتبه في اواخر عمره، ولكنه سياسيا ينتمي الى حزب طائفي. وقد بلغ به الأمر إلى الحد الذي اعتبر نفسه جنديا في جحافل الصديق المهدي:

فيا ابا الصادق الصديق انت لها   بعد الامام ونحن الجحفل اللجب

وعندما انشق حزب الامة تمادى في التناقض ووقف في الجانب الذي يمثل قيادة الطائفة، وهو جناح الامام الهادي المهدي. وقد حمله البعض قدرا من المسئولية فيما جرى من انقسام واتساع فيه. ومن الغريب ان يبرر المحجوب موقفه بأنه اراد ان يصد جموح الصادق نحو السلطة ليقيه منها خوفا عليه من صغر السن وقلة التجارب، واغرب من ذلك ان يتباهى بسقوط الصادق وفوزه على احمد المهدي في الانتخابات، لأن الانصار - حقيقة - اتبعوا إشارة امامهم واعطوا من اراد ومنعوا من شاء ان يمنع، وكان من حظ المحجوب ان إشارة الإمام كانت بجانبه! والإشارة الامامية وخضوع الناس لها من غير نقاش او روية هي نقطة ارتكاز المحجوب في هجومه على الطائفية باعتبار ان ذلك سلب لحرية الجمهور وتجميد لتفكيره وحركته الذاتية. الا اننا لا ينبغي ان نغالي في مؤاخذته، لأن الظروف السياسية، وانشقاق حزب الامة، واستغلال الاتحادي الديمقراطي لهذا الانشقاق ورغبة قيادات في حزب الامة -

بخلاف السيد الهادي - وفي الحزب الاتحادي الديمقراطي الحليف، بل وفي الحزب الشيوعي الذي خطط لابعاد الصادق من القيادة وحرق فرصه، وثم مصلحته الشخصية كانت تغريه الى هذا الموقف. ومع هذا الاعتذار له تبقى النقطة الجوهرية وهي تناقضه مع فكره وقبوله ما ينكره.

كان المحجوب وزيرا موفقا للخارجية لأنه كان يعتمد على صفوة الدبلوماسيين وعلى حسن استيعابه للمواقف وتعامله البليغ مع الحدث واستفادته من خبرته القانونية وملكته الادبية. ولما صار رئيسا للوزارة كان مقبولا من قبل وزرائه لأنه لم يتدخل في اعمال الوزراء ولأن الوزراء المؤثرين من امثال الشريف حسين الهندي كانوا يريدونه. الا انه في وزارته الثانية فقد الفعالية في الاداء لتردي صحته. ومع ذلك بقي في السلطة في محصلة لانشقاق حزب الامة وارتكان الامام الهادي إليه في مواجهة الصادق وتكريس لارادة الحزب الاتحادي الديمقراطي. ومن جانب آخر لم يوفق في تعامله مع جهاز حزبه، وكان اغلب رموزه المؤثرين من الشباب الذين يقودهم الصادق، وكان هؤلاء يريدون ان يكون التوجيه السياسي والاداء نابعا من الحزب وليس من المبادرة الفردية او اشارة الامام. وهذا كان من اسباب الخلاف.

وعلى اي حال فان المحجوب يبقى من أوجه من تولوا رئاسة الوزارة وأرفعهم صوتا وجلجلة!.

ولنترك السياسة ونرجع الى المحجوب الكاتب الشاعر! انه من غير شك من ابرز كتاب السودان وشعرائه. وقد تميزت كتابته بالتنوع والجدية والعبارة الجيدة وتماسك القطعة بمقدماتها ونتائجها. وكان المحجوب واعيا لدور الأدب ومؤمنا بان رسالة الأدب ليست الترف الذوقي وانما الاصلاح الاجتماعي. وقد ظل على هذا الموقف الى آخر عمره. وقد كتب مقدمات جيدة لكتبه، وترجع اجادته الى انه يحصر نفسه في نطاق موضوعه المحدد والى تبينه لرسالته ككاتب وهدفه من كتبه، ولعل اجود مقدماته ما قدم به كتابه «نحو الغد».

وبالرغم من الطابع التقريري عامة واللهجة الاصلاحية التي تغلب على ادبياته فأنه يأخذك بومضاته وبيانه الغني. وهنا نشير الى ثلاث مقطوعات يمكن اعتبارها في إطار الكتابة الفنية، وهي الشمعة وسر المهنة وبلاد الجحيم.

ان المحجوب هنا لا يقدم قضية ولا يدفعك الى رأي في موقف وانما هو يريد ان يصور، وهو في ذلك اقرب الى النثر الفني الذي ينزع الى جمال الاسلوب ودقة التصوير. ففي مقطوعة الشمعة يحدد ملامح دقيقة لإحدى الشخصيات ومن خلال تشخيصه لها واضفاء صور العلم والجهاد يقرر ان « بلدكم هذا عقيم لا يرحب بعظماء الرجال». اما سر المهنة فرواية تمثيلية من فصل واحد وتدور احداثها في نادي الخريجين بام درمان. وفي مقطوعة بلاد الجحيم يظهر سخطه وضيقه من الاجانب الذين يثرون من دم الشعب ويعبر عن ضيقه من سيدة يهودية جمعتها وإياه المصادفة في الترام، وكانت تكرر عبارة « بلاد الجحيم » في حديثها ضجرة من جو البلد الذي آواها وأثراها، ثم يسوق مثلا آخر عن نزيل اثرى هو الآخر في هذا الجحيم، وفي النهاية يدعو في ثورة الى « ان نعلن استقلالنا داخل هذا الجحيم».

وينزع المحجوب في كتاباته الى المثالية، ويطلب المثل العليا في كل ما يطلب، ولكنه لا يقودك الى التفاصيل وانما يتركك في العموميات، وفي احيان يكون دعواه في غير قضية وعراكه في غير معترك، وهذا الذي جر الى اتهامه بالسطحية، وهو الذي يدفعه حتى في بعض الامور البسيطة الى ان يطلب الاهداف والغايات والمثل العليا. كان يمكن للمحجوب ـ مثلا ـ ان يقدم دراسة ادبية لشعر الشاعر القروي، ولكنه مدفوعا بهذه الخصلة يجعل دراسته تدور حول الوطنية في شعره لينتهي منها الى دعوة شعراء السودان ليحذوا حذوه وينظموا على منواله في الوطنيات. والحق ان وطنيات شاعره ليست بالسمو الذي يضرب المثل بجودته ولا كان شعراء السودان مقصرين في الوطنيات.

وفي النقد تأثر المحجوب بمدرسة العقاد، ولكن ذلك كان في المنهج والاتجاه، اما في النقد نفسه فانه اعتمد على محصوله وذوقه وتأملاته. اما شعره فقد جاء جيد السبل، قوى المعني، جليل العبارة، وقد تغنى بالحب والجمال. وله دور رائد في الشعر المرسل.

والسودان في نظر المحجوب، بالرغم من اتساع رقعته وتنوع عناصر سكانه، يكون شعبا له سماته المميزة. وهذا الذي يدعوه الى البحث عن اصول الثقافة في السودان، والانحياز لثقافة سودانية متميزة والبحث في فكر السودان وما ينبغي ان يكون عليه. وقد خاض في سبيل هذا الاتجاه معارك مشهورة لعل ابرزها دعوته الى ثقافة سودانية معبرة عن وجدان السودان في تعارض لمن يدعون بربط ثقافة السودان بثقافة مصر.

ثم نأتي الى معلم مهم من معالم شخصيته، وهو الانفعال مع المناسبة والاستجابة لها. ويتمثل ذلك في ثلاث ظواهر: اولها الاسلوب الخطابي الذي يتعرض به احيانا الى القضايا والمواقف، وثانيها اتجاهه الى اسلوب الافحام في الكتابة وخصوصا في المحاورة ويمكن ان نضع هذين المظهرين تحت الاتجاه المنبري في تناول الامور. وثالثها تدبير اسباب او شواهد او تبني صور ليست من اصل القضية ولا لها مكان في الحقيقة، ولكن يخلقها المحجوب من خياله القوي حتى يرجع بتصرفاته الى دواع منطقية. ومن الممكن ان نستشهد بمواضع كثيرة لتأكيد هذا السلوك ولكننا بالنظر الى أن هذا البحث امتد الى اكثر مما كنا نتوقع له سوف نكتفي بموضع واحد، وهو السبب الذي يسوقه باعتبار انه الدافع وراء تأليف كتاب «موت دنيا». ان الغرض من وضع هذا الكتاب واضح وهو الترجمة لحياة المؤلفين ورسالة جيلهما، وهو غرض عظيم ويستحق ان يعد له كتاب، ولكن المحجوب يريد مشهدًا مسرحيا، ولذلك يقول انهما كانا في راحة ودعة ونعيم ومستغرقين في الحب حتى صدما بالتحزب بين الخريجين وظهور الاحزاب فتركا هذه الدنيا الجميلة واقبلا على الجهاد وقررا ان يؤرخا لجيلهما. كل نقطة من هذه النقاط لا تتفق مع الحقيقة. فالمحجوب

لم يكن في دعة، وانشغاله بالحب والجمال مجرد تصوير ذهني لا يمثل الواقع. وهما لم يصدا من ظهور الحزبية بين الخريجين لانهما كانا ينتميان الى مجموعة انضمت الى حزب، وكان لهما ارتباط قوي بهذا الحزب ومرشده، وقد انضما إليه فيما بعد رسميا. ثم انهما لم يقبلا على الجهاد ولا على شيء منه ولم يغير نمط حياتيهما، وكل ما فعلوه هو انهما اعدا هذا الكتاب الجيد الممتع ليصورا به حياة جيل وحياتيهما على الخصوص، وهو امر لا يتصل بجهاد. وفي هذا الكتاب بالذات تتكرر مشاهد التصوير الذهني للمواقف.

وبعد،

لقد تعرفت بالمحجوب عندما قدم الى دار الوثائق المركزية ليشتري نسخة من كتاب منشورات المهدي الذي اصدرته دار الوثائق مطبوعة بالزيروكس، وكان ذلك اول طبع لمنشورات المهدي بعد زوال المهدية. وقد اتضح لي فيما بعد انه كان يرجو ان يعتمد عليه في كتابه عن المهدي، وكان المحجوب وقتها في جبهة المعارضة لحكم عبود. وقد سرني مقدمه وقدمت له نسخة هدية من الدار، فأباها بنهرة قائلا: ده مش بتـع ابوك وانما بتعت الشعب السوداني! فقلت له: ان الشعب السوداني لا يستكثر مني ان اهدي نسخة من كتاب المنشورات لرجل من قادة الفكر وابن متميز من ابنائه. وقد سره هذا الكلام فتبسط واسترسل في الحديث، ومن ذلك الوقت توثقت علاقتي به. وقد اتفقنا على ان تتولى الدار اصدار مجلتي النهضة والفجر، مصورة ايضا، وتطوع المحجوب بتوفير مجموعتي المجلتين. وقد بر بوعده واحضر المجموعتين وتولت الدار تصويرهما ونشرهما. وكنت قلقا من حقوق التأليف والنشر بغير اذن من ورثة صاحبي المجلتين، الا انه اكد لي من موقعه القانوني اني لا اتحمل تبعة قانونية، وانه هو بالذات يمكنه ان يعطي تصديقا كتابيا لنشر الفجر لأنه من اصحاب الحق فيها. ومع ذلك اتصلت بآل ابي الريس والاستـاذ ابي شرف واستـأذنـت، واشهـد اني لقيـت الترحيـب الحار مـن الاسرتين، بل لقد دفع ذلك الاستاذ شفيق شوقي لاهداء اصدارة احد

يوسف هاشم من الفجر الى الدار.

ثم كلفني فيما بعد بجمع مقالاته من الفجر والنهضة واعداد كتابه نحو الغد، وقد فعلت ذلك بعون صديقي الاستاذ محمد صالح حسن، وبهذه المناسبة نفحني المحجوب بالنسخة الخطية لمقدمة نحو الغد ونسخة من كتابه عن الشاعر القروي واذن لي بتصويرها.

وهنا اذكر طريفة: فقد طلب اليّ المحجوب ان اكتب مقدمة لكتاب نحو الغد، فكتبت المقدمة وعرضتها عليه فقبلها بعد ان صحح، على حد تعبيره، بعض رواسب العجمي، فانا رجل نوبي. وقال لي انه معجب بكتابي «الحركة الفكرية في المهدية» ورجا ان اطور الجانب الذي يتعلق بحكومة المهدية. وكان مما عارضني فيه اني قلت انه ولد بمدينة رفاعة فانكر ذلك بحدة وقال انه ولد بالدويم. ثم قال انه لا يقبل لاي كاتب مهما كان مركزه ان يقدمه لقراء العربية لأنه اشهر مما يقدم ولكنه لفرط حبه لي يريد ان يعطيني هذه المزية ليعرفني بها الى جمهور القراء عن طريق تقديم كتابه.

واذكر انه عرض عليّ مشروع كتابه عن المهدي. وكان المشروع معدًا على الوجه الذي ذكرته سابقا. الا ان تحريره لم يتم. وقد طلب إليّ ان أنظر في مشروعه وفي المادة التي جمعها وأشير إليه بما ارى. وقد نظرت في كل ذلك وابديت ملاحظاتي ولكني كنت اشك في ان يتم تحرير الكتاب، لأن الكتاب يحتاج الى صبر دونه نفس المحجوب والى عافية دونها حالة المحجوب، واحسب ان كثيرا من اصدقائه قد استمعوا إليه وهو يصف مشروعه ويبشر بكتاب ممتاز.

وقد ترددت عليه كثيرًا، وكان يسأل عني اذا تأخرت ويدعوني الى مجلسه. وكان المحجوب محبًا للثقافة والمثقفين، مخلصا في حبه وصادقا، و كان يسره ان يكون بينهم. وكان بيته في الخرطوم منتدى المثقفين وعلية القوم، ولما ارتحل الى لندن اصبح بيته هناك منتدى!

الا رحم الله المحجوب واثابه.

عبدالله أحمد يوسف الرباطابي

اما القاضي فهو **عبدالله احمد يوسف الرباطابي**، والذي اشتهر بين أترابه في الدراسة بالمختصر. وقد التحق بسلك القضاء في اوائل الحكم الثنائي. ومع السنوات تطور هذا السلك وتوسع وارتفع القاضي وترقى حتى احيل الى المعاش في اواسط الاربعينات.

اما كتاب النخيل فهو كتاب مفيد وطريف وممتع في نفس الوقت، وهو خليق بأن يطبع وينشر على مستوى العالم العربي، لأنه جمع مادة عظيمة في موضوع النخيل والسواقي وما يتصل بالري والزرع، ثم جمع بعد ذلك في كلام متصل وممتع مادة عظيمة في الدين واللغة والأدب فيما لا يتفق في كتاب من الكتب التي تصدر في هذه الايام.

ولد عبدالله في جزيرة مقرات المواجهة لمدينة ابي حمد. وكان له من الاخوة ثلاثة: الطيب والسلماني ومحمد احمد المهدي. ويبدو ان الأخير قد ولد اثناء الموجة الصاعدة للمهدية. وكان له من الاخوات عائشة وفاطمة.

اما مولده فقد قيل انه كان في عام ١٣٠٧هـ، وذلك على اعتبار ما ذكره المؤلف من انه هاجر من موطنه الى دار الشايقية في سنة ١٣٢١هـ وهو يبلغ الرابعة عشرة. وذلك يوافق سنة ١٨٨٧م. وقيل في ملف خدمته انه قد تعين في خدمة الحكومة في اغسطس ١٩١٣م وهو في الثامنة والعشرين، وذلك

يعني انه ولد سنة ١٨٨٥م. وبعد سنوات من مولده الحقه ابوه بخلوة مسجد الشيخ ود الحسين العباسي شقيق الفقيه الفضل الذي توفي سنة ١٨٩٩م، وقد قيل انه حفظ القرآن وهو بين الثامنة والتاسعة.

ويذكر الشيخ وأولاده انه تلقى الدرس على الحسن سعد العبادي. واذا صح هذا فلا بد ان يكون ذلك لفترة قصيرة لأن العبادي لم يمكث في ابي حد الا قليلا نظرا لانشغاله بالجهاد. وكان الحسن العبادي من العلماء المرموقين في المهدية. وقد زامل المهدي في مدرسة محمد الخير بالغبش بغرب بربر. ولما جاءت المهدية انضم إليها وتحمس لها. وقد وضع رسالة طويلة في الدفاع عن مهدية المهدي، وقد طبعت هذه الرسالة في المطبعة الحجرية بام درمان في بداية عهد الخليفة عبدالله. وكان العبادي لفترة في عهد الخليفة مسئولا عن نشر المهدية في الجزيرة العربية، ومسئولا ايضا عن تهريب السلاح والذخيرة الى السودان عبر البحر الأحمر.

وفي سنة ١٣٢١هـ، وكان ذلك بعد الفتح الثنائي بسنوات، هاجر عبدالله الى بلاد الشايقية طالبا للعلم عند الشيخ محمد بن احمد بن عطا المنان المشهور بولد الجريف. ويقول المؤلف انه قرأ مختصر خليل بن اسحق على شيخه هذا اربع مرات وانه اقرأه لغيره. ويذكر ان شيخه قد تلقى علمه على الشيخ محمد الخير عبدالله خوجلي. ثم يذكر سلسلة بشيوخه الاجلاء الى ان تبلغ القطب الامام احمد بن محمد بن احمد الدرديري المتوفي سنة ١٢٠١هـ، ومن ثم يستمر حتى تصل الشيخ خليل صاحب المختصر. وقد عرض المؤلف ذلك باسلوب يتميز بالدقة والخشوع والتوقير وبما يعيد الى الأذهان عهود تكبد عناء الهجرة واللقاء بالمشائخ الكبار لتلقي العلم مشافهة. وكانت عادة ذكر الشيوخ وبيان ثبت التلقي مما يهتم لها المتصوفة كثيرا نظرا الى انها البرهان على ان ما تقوله ينبع من منبع صاف وغزير، وفيها الإجازة للمتلقي بما يعزز موقعه من العلم والمكانة. والعلماء كانوا يجيزون من تلقوا على يدهم بالعلم الذي نالوه فيحق لهم التدريس والفتيا والحكم بين الناس، وكانت الإجازة تصدر بما تلقاه الشيخ من

شيوخه، ولكننا لم نقف على مثل هذه السلسلة للعلماء الا في هذا الموضع. ويبدو ان القاضي اخذ بهذه الكيفية وبين التلقي مسلسلا حتى بلغ صاحب المختصر. ولعله قد اهتم بهذا الوصل نظرا لشغفه العظيم بهذا السفر المشهور ومؤلفه ونظرا الى انه لقب بصاحب المختصر لتمكنه منه. وقد فرق المؤلف ابتداء مكتبته والتي يسميها الخزانة اليوسفية واول كتاب اقتناه وهو حاشية الباجوري على متن السنوسية بفترة تلقيه العلم على شيخه عطا المنان ويسوق في ذلك حكاية طريفة، ولكن لا تتسع الفرصة لروايتها، ويحسن ان يقف القارئ عليها في الكتاب عند نشره ان شاء الله.

انتظم المؤلف في حلقات شيخه ود الجريف ولازمه ثمانية أعوام. ويقول ابنه حسن عبدالله في نبذة أعدها عن حياة والده واعتمدنا عليها في اعداد هذه الدراسة ان اباه درس الفقه والنحو والحديث واللغة والمنطق، وان شيخه قد اهتم به واحبه وانه كان يكلفه بجمع الزكاة ـ وهو امر يعهد لمواضع الثقة من التلاميذ ـ من المناطق المجاورة لتصرف في إعاشة الجيران الوافدين من مختلف الجهات. وبعد ان أجاره شيخه عاد الى مقرات حيث قوبل بالترحاب والاكرام من اهل الجزيرة، وبخاصة من الملك فرح محمد صغير الذي اتحفه بكسوة ثمينة وحثه على التوجه الى الخرطوم والالتحاق بكلية غردون.

وكان ذلك عهدا ينظر فيه الناس الى التعليم نظرتهم الى الدين ويضفون عليه روح القداسة ويعتبرون كل من تعلم وتفقه نورا يضيء. وكانوا يحتفلون لإجازته جميعا ويقدمون الهدايا تبركا به وتشجيعا له ولغيره. ولهذا كان احتفال اهل مقرات وعمدتهم احتفالا في مكانه.

ولما رحل عبدالله الى العاصمة اقام مع ابن اخيه علي عبد الماجد، وقد اخذه هذا الى الشيخ محمد البدوي شيخ العلماء الذي اجازه بعد ان ناقشه في بعض العلوم وبارك انتظامه بالكلية، فالتحق بقسم القضاء الشرعي. وقد امتدت دراسته في الكلية من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٢م، وكان برنامج

الدراسة في قسم القضاء الشرعي يقوم على المذهب الشافعي، وهو مذهب المصريين، وقد دخلت دراسة هذا المذهب في السودان منذ بداية الحكم التركي.

وقد واجه الاتراك او بالاحرى واجه القضاء الشرعي صعوبات جمة لأن أهل السودان كانوا على مذهب مالك ولأن فقهاءهم كانوا على هذا المذهب بينما كانت المحاكم على مذهب الشافعي ويرجى من الأهالي ان يخضعوا لهذا المذهب كما يرجى من المتفقهين الذين انتظموا في سلك القضاء ان يطبقوا هذا المذهب الذي لم يكونوا على دراسة به. وكان عبدالله كلما عرضت مسألة من مسائل الفقه اثناء الدرس اورد رأي المالكية مستشهدا بمختصر خليل الذي يحفظه عن ظهر قلب. وقد دفع هذا الشيخ محمد ماضي ابو العزائم الى ان يطلق عليه لقب المختصر فجرى هذا اللقب عليه بين اترابه. وكان ابو العزائم هذا يدرس الفقه بالمدرسة، وكانت له طريقة صوفية تسمى الطريقة العزمية، ولهذه الطريقة أتباع في السودان الى هذا اليوم ولها أتباع أكثر في مصر. وكان في منحاه قريبا الى انصار السنة.

ولما تقدم عبدالله للالتحاق بسلك القضاء تبين من الكشف الطبي انه مصاب بداء السكري مما حدا بالمسئولين الى ابعاد اسمه. وقد تفقد استاذه اسمه بين المقبولين فافتقده ولما سأل عن ذلك قيل له انه مريض فاستدعى عبدالله واخذه الى السكرتير القضائي وقال له بانفعال: «اذا كنتم عاوزين عتالة تجدونهم جوار دكان الكربي واذا كنتم عاوزين قاضي هو ده القاضي». وكان دكان الكربي متجرا للخزف. وإزاء هذا الاحتجاج والالحاح لم يجد المسئولون بدا من القبول بتعيينه. وقد تم ذلك اعتبارًا من اول اغسطس سنة ١٩١٣م. وقد بدأ مرتبه بستين جنيها في العام الا انه ترقى في اول العام التالي واصبح مرتبه ٨٤ جنيها. وكان اول عمله بمحكمة ام درمان الشرعية ثم تنقل بعد ذلك في عدد من المحاكم الشرعية في مختلف انحاء القطر وترقى في سلك القضاء درجة بعد درجة حتى احيل الى المعاش وهو مفتش المحاكم الشرعية.

لقد عمل في ام روابة وفي كتم وفي ابي حمد ودنقلا والدامر ومدني والخرطوم. ولما جاء الاوان لسودنة منصب مفتي السودان، وتلك كانت قضية سياسية كبرى، كان هو ثالث ثلاثة في القائمة العليا لقضاة السودان اولهم احمد الطاهر وثانيهم هاشم ابو القاسم.

ولما احيل الى المعاش في يوليو ٤٧ أسرع بالعودة إلى مقرات التي احبها وأبى من أجلها أن يملك بيتا في العاصمة وعادت معه الى مقرات مكتبته التي سماها المكتبة اليوسفية والتي ترحلت معه اينما ترحل واستقرت معه اينما استقر، وما زالت هذه المكتبة النفيسة في منزله هناك. وكان يعد لبناء معهد علمي هناك الا ان المرض داهمه. وبتفاقمه سافر الى الخرطوم ثم فاضت روحه الى بارئها في التاسع من سبتمبر ١٩٤٨، اي بعد سنة من إحالته للمعاش. وقد دفن بمقابر البكري بام درمان. رحمه الله.

اما كتاب النخيل الذي وضعه القاضي عبدالله احمد يوسف فيقع في طرفين كبيرين، احدهما يدور حول النخيل وما يتصل بها من الموضوعات كالزراعة والري وآلاته، اما الثاني فيتحدث عن اللغة والدين والأدب، وهو يأخذ من النخيل معبرا الى الكلام عن هذه الموضوعات، وحجته في ذلك انه حديث يروى او يكتب تحت ظلال النخيل، وكل من عاش في شمال السودان لا يستغرب مثل هذا، فأهل الشمال يلجأون إلى ظلال النخيل في وقت القيلولة ويتسامرون وتتشعب مواضيعهم فمنها ما هو متصل بحياتهم ومنها ما لا يتصل. وكأني بالقاضي قد نقل هذه العادة الفريدة الى عالم التأليف، وان كان هو نفسه يقول انه يهتدي بكبار المؤلفين المسلمين من أمثال الجاحظ وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد وغيرهما.

ويقع اصل الكتاب في ثلاثين كراسة اثبت في اغلفتها ارقامها من (١ إلى ٣٠)، غير ان أطراف الكتاب لا تتابع حسب التتابع الذي بينه على الكراسات وتضمن الكراس الأول خطبة الكتاب وبدايات ابواب الآيات والنساء والولد

ثم مقدمة في علم النبات عامة والنخيل خاصة. وفي الكراس الثاني اورد كلاما عن النبات ثم يورد عنوانا لفصل في وصف الرياض ويحيل القارئ الى الكراس الحادي عشر. ثم هو يثبت بعد ذلك، اي في الكراس الثاني، فصلا في مدح النخيل ليحيل القارئ الى الكراس الرابع. ويأتي في نفس الكراس اول فصل في أقوال اللغويين عن النخل ثم يترك في آخره بياضا يقول بعده: (انظر صفحة ٣٠ من الكراس الخامس) وليشرع بعده في إثبات مادة فصل النخيل بالسودان ويشير الى انه متصل بأول الكراس الثاني عشر. وفي الكراس الثالث عشر يورد المؤلف باب النخيل وباب الانعام. والكراس الرابع جعله للالحاقات المتصلة بالفصول هنا وهناك. اما الكراس الخامس فيتضمن كتاب الامثال المضروبة في النخيل وتتمة الكلام عن اقوال اللغويين الذي بدأه في الكراس الثاني. ثم يورد بعد ذلك إحالة الى الكراس السادس عشر، وتمضي الكراسات بعد ذلك تكمل ما تقدم او ما تأخر من اطراف الفصول.

ويبدو من ذلك ان الكتاب لم يكتب في نفس واحدة وانما قد كتب في اوقات متباعدة، وكلما أكمل القاضي فصلا أو جمع طرفا من فصل شرع في نقله، ويبدو منه ايضا انه لم يتح له ان يضع الكتاب في صورته النهائية. ومن يدري فلعله كان يريد ان يغير هنا وهناك او ان يضيف إضافات غير التي اضافها في هوامش الاصل مكررا بعد كل وقفة او إضافة عبارة: «ضرورة مراعاة ذلك عن التبييض».

لقد عرض المؤلف في كتابه هذا مادة حصل عليها بالقراءة، وذلك يتبين بوضوح في ما كتبه في الدين والأدب واللغة او ما كتبه عن النساء والنخيل والولد، غير ان هناك مادة شخصية مكتسبة من خبرته وعن طريق زملائه واصدقائه. وهو امر يذكره كثيرا. فالاصدقاء والزملاء الذين زارهم او زاملهم يذكرهم في الكتاب، واولئك الذين عاونوه برأي او خبر او مادة يشيد بهم ويذكر ما اعطوا. وخبرته عن النخيل زراعة وعناية وحصادا يذكر

بحرص شديد، مأخوذا من خبرته في زراعة النخيل بجزيرة مقرات، ومأخوذا من خبرات عن النخيل امده بها نفر من زملائه في السكوت والمحس وبلاد الجعليين. وانواع النخيل وانماط التمر التي وقف عليها تذكر ايضا، وهو يورد كيف ان بعض اجداده كان مهتما بالنخيل وكيف انهم اتوا بأنواع متميزة من النخيل من الحجاز. ولهذا السبب نفسه يجيء ذكر عدد ما زرعه من النخيل وانواع تمره. بل انه يذكر من أين جاء بالأنواع المتميزة التي لا تزرع في منطقته. ولارتباطه بنخيله قرر عند نهاية خدمته الا يبني بيتا في الخرطوم وعاد مسرعا الى مقرات واستقر بها، وهذا يدل دلالة واضحة واكيدة على مدى تعلقه بنخيله.

ولو اننا ابعدنا من حسابنا العلاقة الطبيعية بين الإنسان وأهله وولده وبيته وبين موطنه، هذه العلاقة الحميمة ومثلها من الوشائج العاطفية التي تنصرف إليها النفس بطبعها فإننا لا نجد القاضي يتعلق بشيء كمثل تعلقه بنخيله وكتبه، وكلاهما كان غذاء لنفسه ولروحه، ولعله فيما كتب عن النخيل بالخصوص وفيما كتب عن موضوعات الدين واللغة والأدب تحت ظلالها قد ربط بين مكتبته ونخيله، فهما زاده الروحي وهما شغله الفكري في وقت واحد.

اما مكتبته فقد بدأت فيما يقول بكتاب اقتناه وهو يتتلمذ على الشيخ محمد ابن احمد بن عطا المنان ببلاد الشايقية، وقد ظلت تتسع حتى بلغت حدا كبيرا. وقد ذكر المؤلف مكتبته كثيرا. قال في موضع: «ويكفيك ان الكتب التي ذكرت اسماءها بهذا الكتاب كلها من مكتبتي». وقال السيد محمد حافظ التجاني: «ما ظل بيتا في السودان مثل ما ظل بيت الشيخ عبدالله احمد بن يوسف من كتب». واذا ما تركنا ما قاله القاضي عن مكتبته وما شهد به التجاني فان كتاب النخيل بما حوى من موضوعات شتى لشاهد على اتساع هذه المكتبة وتنوعها، بل اننا لم نعثر على بعض ما ذكره من كتب وبعض ما استشهد به في مكتبات السودان، وهذا يقودنا الى القول بأن بمكتبة القاضي بمقرات كتبا نادرة لا تتكرر في مكتبة أخرى في بلادنا، وقد اتيح لي ان

اقف على مجموعة كتبه بمنزله بابي احمد بفضل ابنه علي القاضي الذي اكرم وفادتي، وقد وجدتها مجموعة ثمينة حقا، وكان اغلبها مجلدا. وبداخل بعض الكتب مكاتباته مع المكتبات التي تعامل معها.

ان تعلق المؤلف المبكر بالنخيل والحظوة التي نالتها الشجرة المباركة في كتب التراث والرغبة الصادقة في ايفاء موضوع الكتاب كل حقه، هذه الامور مجتمعة كان من شأنها ان تؤثر في منهج الكتاب والذي يصفه في مواضع من كتابه ويقول في خطبة الكتاب بأنه سوف يستطرد فيه اسوة بأرباب الكتابة الذين يلتزمون بالمناسبات، ويقول انه سوف يذكر بعض الآيات القرآنية التي ذكر فيها النخيل والاحاديث النبوية وما جاء في كتب اللغة من اسماء النخيل وما تفرع منها ومسائل فقهية وحكايات ادبية وقصائد طنانة.

بيد ان ما يميز كتاب النخيل، مهما طالت استطراداته وتشعبت موضوعاته، هو ان القارئ لا يعدم أنى سلك به المؤلف نخلة تلقي بظلها هنا او هناك، فجاء الكتاب مطابقا لعنوانه مستوفيا الغرض من وضعه، وانجز المؤلف ما وعد في خطبته. حدد المؤلف هدفه إذًا، وعكف على جمع مادة كتابه، وحوله كتب لا تفارقه. فإذا ما تطرق لموضوع ما فهو يحيطه بأكثر من مرجع يتعلق به. وهو في جمعه لمادة الكتاب ينقل النصوص واحيانا يلخصها او يتصرف فيها تخلصا من طول النص وتفاديا للفظ او ليتدخل برأي من عنده. فهو لا ينقل النصوص بقدر ما يضيف إليها. واحسن المؤلف صنعا وأجاد عندما انتهج اختيار الالفاظ الشائعة. فهو كمثال اورد نصا عن «نزهة القارئ» للاسكندري، ونحسب ان عبارة «لا تغر غلتها» صدمته فلم يتوان من ان يضع في مكانها عبارة «لا تكثر غلتها» بنفس المعنى والأمثلة كثيرة.

وكثيرا ما كانت المادة تزدحم في رأسه فيعن له اثبات موضوع ما وهو بصدد التعرض لموضوع مغاير. وفي مثل هذه الحالات فان المؤلف يلجأ إلى

مواضع من كتابه الى تاريخ كتابة باب من ابوابه او الى ما يهدي إلى اعداده لفصل من الفصول، فهو يشير عند ذكره لجماعة من اكثروا الكتب بعد ترجمة السيد محمد ابن السيد الشريف الحسين الخفابي، الا انه لخص الترجمة من خط نجله السيد سراج الدين المدرس بمعهد بربر والتي كتبها له يوم ٢٧/ شعبان سنة ١٣٦٦هـ، وهذا يعني انه كتب هذا الفصل بعد التاريخ المذكور.

ويقول في موضع آخر يتعلق بتعليمه لأهالي كتم غرس وتلقيح النخيل: الحاق عنوان الموضوع او مصدره ليعود إليه مرة ثانية. وقد أشار المؤلف في «وقد غرسوا في العام الماضي ١٩٤٥م كثيرا من النخيل». وهو يصل الى صفحة ١٦٧ من كتاب الآيات في يوم ٣٠ يونيو ١٩٤٧م، يوم تقرر إحالته للمعاش، فيكتب فصلا في المعاش، ومن واقع إشاراته هذه بدأ كتابة باب الولد سنة ١٣٦٣هـ. وكتب فصلا عن الاندلس في سنة ١٣٦٤هـ، ومع ذلك فان المؤلف لم يهتم بذكر متى شرع في جمع مادته او متى كان الفراغ من ذلك في آخر نظر له في الكتاب.

اما عن نمط التأليف فان القاضي متمكن من موضوعه ومن فروع موضوعه وجزئياته. وهو متمكن من لغته، متين في اسلوبه، وعبر الثلاثين كراسة تتابع الموضوعات وتتداعى المعاني. فهو يتعرض مثلا الى السواقي في مائة وتسع وعشرين صفحة، مطبوعة على الآلة الكاتبة من اعدادنا. وقد تناول في الصفحات الاولى منها اسماء اجزاء الساقية مبينا اياها باللغة العربية ثم يستطرد من ذلك فيتكلم عن الكاتب والكتب والمكتبات العامة والخاصة وعن جماعة من أكثروا من اقتناء الكتب، وذلك نقلا عن ياقوت ثم يذكر من أكثروا من اقتناء الكتب في السودان، ويتخلل السطور هنا وهناك كلام وإشارات له ولاساتذته ورسائل أرسلت إليه او صدرت منه وإجازات علمية نالها. ثم يرجع بعد ذلك كله الى الكلام عن الساقية. وفي باب النساء مثلا وهو باب يبلغ ١١٧ صفحة بالآلة الكاتبة من عندنا يتكلم عن النساء والحض على النكاح ثم يتعرض الى الطلاق والعفة ثم ينتقل الى التفاضل بين النساء والحيلة في الزواج

والى ما يجب على الرجل نحو نسائه من غيره. ومن ثم يذكر فيما يبلغ نحو ٣٠ صفحة احاديث ممتعة عن النساء وبعده يأخذه الاستطراد الى كلام عن ابنة المعتمد بن عباد وشعرها ثم يتبع ذلك كلام عن المعتمد وشعره وترجمة له نقلا عن كتاب (قلائد العقيان) للفتح بن خاقان ثم يرجع الى وصل حديثه عن النساء. وبعد ١٥ صفحة يورد ترجمة لابن خلدون بمناسبة رسالة كتبها إليه لسان الدين بن الخطيب في ملاطفة النساء. وهذه المناسبة نفسها تدفعه الى الكتابة عن حياة لسان الدين ثم الى ترجمة للمقرئ صاحب كتاب نفح الطيب. وهكذا ينتقل بنا المؤلف القاضي في موسوعته الشاملة من موضوع الى موضوع ومن مناسبة الى مناسبة حتى يبلغ القارئ منتهى الكتاب دون ان يصيبه ملل او يتطرق إليه القنوط.

وبعد، فهذا كتاب مادته التراث، وهدفه خدمة التراث، نهج فيه مؤلفه منهج مؤلفي الموسوعات التراثية، باعطاء اكبر قدر من الفوائد في شتى ضروب العلم، والاستطراد من موضوع الى موضوع وتلخيص العلوم، وطرح القضايا، وعرض الفوائد اللغوية والدينية. وهو نمط من التأليف قل ان ينهج هذه الايام، ويمضي الى هذا المدى المتسع، لأن التأليف الآن يأخذ موضوعا ويخصص البحث فيه، ولا يقبل القارئ ان يتعداه، ذلك ذوق اليوم واتجاهه في التأليف والقراءة، ولقد اجاد القاضي الاداء لأنه متمكن من التراث تحصيلا واستيعابا.

لقد طرح علوم اللغة العربية وعلوم الدين واورد كلاما جيدا عن التفسير وعرض نماذج منه، ولخص علم مصطلح الحديث تلخيصا جامعا مفيدا، واستعرض كلاما طويلا في اللغة وعلومها وموضوعات اجتماعية كالنساء والولد والخيل، وقد ملأ كل ذلك بمادة تراثية ثرة. وكتب في التاريخ فصولا جيدة لخص فيها تلخيص المتمكن ادوار التاريخ الاسلامي، وان كان بعض ما يورده ليس مهما وبعضه الآخر ضعيفا، مثل ما اورد عن نسب الرسول واجداده. وتعرض الى الأدب ونقل شعرا ونثرا كثيرا شارحا ومعلقا، وافاض

في اخبار الأدباء والعلماء، وطرح القضايا الأدبية والعلمية التي شغل بها الادباء والنقاد، ولخص الآراء التي طرحت. ويكفي ان يقف القارئ على ما اورد عن المتنبي وخصومه ومعجبيه، وعن المعري والبحتري وابي تمام وجرير والفرزدق وشوقي، وعلى مقدار ما ينقله من فوائد ويلخصه من آراء. وقد حققنا كتابه هذا الفريد الجيد الممتع بالاشتراك مع صديقنا الاستاذ محمد صالح حسن، وبذلنا في امره ما بذلنا من جهد ثم دفعنا به الى المطبعة منذ اكثر من اربعة عشر عاما، ولكنه ظل بكل اسف حبيسا مع كتاب آخر لي عن وثائق الفونج، وربما مع كتب اخرى لغيري، الى اليوم. وانا لنرجو ان يهدي الله الطابعين وان يفك اسر هذا الكتاب حتى يؤدي ما رجونا من تحقيقه ونشره.

محمد النور ود ضيف الله

مقدمة:

يعد كتاب الطبقات الذي وضعه محمد النور بن ضيف الله والمشهور عامة بطبقات ود ضيف الله كتابا مهما من عدة نواح:

فهو من أهم مصادر تاريخ عصر الفونج، وليس بين أيدينا كتاب يتناول تاريخ هذا العصر الا وهو يعود الى الطبقات ويأخذ عنه بشكل رئيسي.

وهو أهم مصدر لحركة التصوف في السودان، ليس في عصر الفونج فحسب بل ربما قبله وبعده. فهو يذكر الأولياء وما يتصل بهم من الحوادث والأخبار ويوضح لنا جوانب كثيرة عن التصوف وعن حياة المتصوفة ونظمهم. وهو كذلك بالنسبة لحركة العلم، اذ يذكر مدارس العلم ومنشئيها ومن درسوا فيها ومن تتلمذوا على كل شيخ في كل مدرسة. وهو يعطي بما يذكر من الموضوعات والأخبار صورة للحياة العقلية بصفة عامة وللحياة الفكرية بصفة خاصة.

والأسلوب الذي كتب به الطبقات يعد نموذجا لأسلوب ذلك العصر، ذلك الاسلوب الوسط بين الفصحى والعامية، أو ذلك الذي يأخذ من العامية ومن الفصحى ويجمع بينهما، وهو أسلوب الكتابة الذي ورث عن نظام التعليم في خلاوى القرآن ومدارس العلم ومراكز الصوفية. وفيه عرض لا بأس به

لعدد من النصوص وخاصة من الشعر والإجازات العلمية والصوفية، وذكر لمجموعة من الكتب التي وضعها السودانيون الى عهد المؤلف وجلة الكتب التي كانت تتداولها الأيدي.

وهو يعطي بيانات عن النظم الإدارية والاجتماعية والسياسية والدينية، فيذكر العادات والتقاليد والأعراف بين الطوائف، ويذكر الادوات التي استعملها الناس في بيوتهم وفي حقولهم وفي مراعيهم وفي مجال العلم والتصوف.

وهو يذكر السلاطين والوزراء وولاة الولايات وما يتصل بمراكزهم ومناطقهم،: ويذكر الأولياء وقراء القرآن والعلماء والشعراء، ويذكر القضاء والفتيا ومن تولوا القضاء والفتيا، ويذكر بعض ما اختلف حوله علماء السودان وأولياؤه كقضية الدخان والقهوة، وهل يحل تداولها أم يحرم، والاختلاف بين المعتدلين من أهل التصوف الذين يقفون في حدود الشرع ولا يأتون بما يناقضه أو يخرج عنه وبين الذين يبالغون في السلوك حتى يؤخذوا بتهمة الخروج عن الشرع.

هكذا نجد في الطبقات كنزا من بيانات، كثيرة ومتنوعة، عن الحياة في السودان في عهد الفونج، وعن بعض جوانب الفكر والدين تتعدى هذه الفترة. ولهذا كان كل جهد يبذل في سبيل التعريف بكتاب الطبقات وخدمة موضوعه جهدا مهما لا ينبغي ان يضن به القادرون ولا أن يستكثره المستكثرون، لأنه لا يتعلق بكتاب فحسب، وانما يتعداه الى ما هو ابعد من ذلك من القضايا والفوائد العلمية والى فترة مهمة وضعت فيها أسس اسلام السودان ونهج الثقافة العربية السودانية.

كتاب الطبقات:

ولد محمد النور بن ضيف الله مؤلف الطبقات بحلفاية الملوك في ١١٣٩هـ/ ١٧٢٧م وتوفي بها في ١٢٢٤هـ/ ٩-١٨١٠م، أي أنه توفي قبل الفتح المصري بنحو عشر سنوات. وهو ينتمي الى بيت الضيفلاب، وهم ذرية

جده الأكبر ضيف الله. وهؤلاء ينتمون الى الفاضلاب الذين هم بطن من بطون قبيلة الجعليين. وكان أبوه ضيف الله فقيها ومتصوفا، وقد وضع حاشية لمختصر خليل. وكان شاذليا قادريا، وهو في ذلك مثل الشيخ خوجلي عبد الرحمن. وكان معلما للفقه والتصوف. وتصدى للافتاء وتولى القضاء. ويورد كتاب الفونج والأرض[1] نص حكم اصدره في نزاع الخوجلاب وبعض جيرانهم. وقد تولى القضاء أيضا ابنه الحاج دفع الله والذي يورد كتاب الفونج والأرض[2] نصا لحكم اصدره في نزاع بين الخوجلاب وبين المحمدات والدانياب. وابنه محمد النور، صاحب الطبقات، كان قاضيا ومفتيا مثل أبيه، ويورد له كتاب الفونج والأرض[3] نص حكم أصدره في نزاع بين الخوجلاب والمحمداب. وكان فقيها ومتصوفا. وقد شرح فيا يقال كتابا لابن عطاالله السكندري، صاحب الحكم، وهو في احتمال البروفسير يوسف فضل لطائف المنن. كذلك يذكر يوسف انه كتب نبذة في السيرة[4]- ولكن هذا الأثر ضائع؛ وقد وضع كتاب الطبقات، وهو من وجهة النظر المصدرية أهم كتاب وضع في عصر الفونج.

وموضع كتاب الطبقات هو تراجم الصوفية والعلماء وقراء القرآن وبعض الشعراء. وهم يبلغون في تحقيق يوسف ٢٧٠ علما وفي ترجمة مكمايكل ٢٥٩ علما.

والغالبية العظمى منهم ممن عاشوا في الجزء الشمالي من الجزيرة وفي شمال النيل الأزرق ثم المنطقة الممتدة بين الخرطوم ودنقلا. والقليل منهم يأتون من منطقة النيل وشرق السودان. وأقل من ذلك يأتون من غرب السودان. وهؤلاء لا يذكرون الا اضطرادا لمناسبات تبدأ من جهات النيل. وصاحب

(١) الفونج والأرض، تحقيق الدكتور أبو سليم ص١٢.
(٢) المصدر السابق ص١٠٨.
(٣) المصدر السابق ص١٢١.
(٤) الطبقات تحقيق يوسف فضل حسن ص٨.

الطبقات لا يلام على هذا ، لأن هذه المنطقة هي قلب الحركة الدينية كما أنها دائرة معرفته الخاصة والتي اعتمد عليها بشكل رئيسي في التأليف. وتبدأ سيرهم قبل قيام دولة الفونج بوقت، ثم يزداد الكلام عنهم حتى تبلغ السير وفاة مؤلف الكتاب، وان كان طول الكلام وقصره يعتمد على أهمية المترجم له، وقد عاصر بعضهم المؤلف، وبعض من هؤلاء كان يعرفهم المؤلف معرفة شخصية. وبعضهم مات بعده. اما الغالبية العظمى فقد سبقوه الى الدنيا والى الآخرة.

وقد اعتمد المؤلف في بعض المواضع على بعض المدونات من الأشعار والرسائل والفتاوى والإجازات، وأمر ذلك واضح لأنه ينقل نصوصا او يشير اليها. وواضح من اشاراته هنا وهناك أنه وقف على بعض الأخبار المدونة. ومن المظنون استنادا على بعض هذه الاشارات انه وقف على مؤلفات سبقته في سيرة اولياء السودان. ولكن يصعب القطع هنا برأي لأننا لا نملك دليلا من الطبقات ولا خبرا به من خارج الطبقات. وقد ظن بعض الباحثين، ومن هؤلاء البرفسير يوسف، انه نقل فعلا من مؤلفات سابقة. ولكن المؤلف صريح في أنه لم يعتمد على عمل غيره وأنه اعتمد على ما اختزنته ذاكرته فقط وذلك حيث يقول: وهذا الكتاب وضعته من كيس صندوق قلبي. ومهما يكن من أمر فان يوسف يرجح ان مؤلف الطبقات قد نقل من اصول خطّية وربما حفظها عن ظهر قلب قبل ان يضيفها الى مؤلفه.

وكان بعض اعتماده على المعرفة المباشرة. وكان ذلك فيما يتعلق بمعاصريه، وخصوصا أولئك الذين كان على صلة بهم. وهو يشير في بعض المواضع الى انه قابل بعضهم. وأحيانا يذكر المؤلف أنه استقى الخبر من والده أو عمه أو من كليهما.

أما غالب اعتماده فكان على الروايات التي تداولها مجتمع الفقراء والعلماء والأولياء. وقد أورد من الأخبار والموضوعات بقدر ما بلغه. وهو يقول في بعض المواضع أن اخبار بعض من يذكرهم مقطوعة أو أن الناس كانوا

يجهلون خبر ولي لقدم عهده حتى أشار إليه بعض أهل الفضل. وهذا يعني أن غايته من العلم هو حد ذاكرته وذاكرة معاصريه.

اما المصادر الاسلامية فمنها ما استفاد منها فائدة عامة كالرسالة والمختصر، ومنها ما استفاد منها فائدة خاصة كتاريخ نيسابور، وان كنا نشك في أنه وقف على هذا المصدر فعلا، وحسن المحاضرة للسيوطي والدرر الكامنة للحافظ بن حجر ونفح الطيب وطبقات الشعراني، فهذه هي التي أدلته الى السبيل ووضعت أمامه المنوال[1].

والمادة التي يتضمنها الطبقات مادة واسعة وممتدة الى موضوعات كثيرة، ومرجع ذلك أن الدين كان مستحوذا على كل النشاط الفكري السائد في ذلك الوقت. وكتاب الطبقات نفسه وضع بسبب اهتمامات مؤلفه بطريقة موسوعية.

والجوانب التي تناولها المؤلف في الترجمة هي الاسم واللقب واسم الشهرة والميلاد والوفاة ومكانها والنشأة والتعليم والتربية الصوفية وممن أخذ وإلى من أعطى والوالد والولد والزمالة والحوادث والأخبار والموضوعات. ولكن ذلك لا يذكر بشكل منتظم إزاء كل علم وانما هو يروي تحت كل ما تيسر له. وهو أحيانا لا يذكر الاسم مكتفيا باللقب او اسم الشهرة واحيانا لا يكون الاسم كاملا. وأحيانا يكون كلامه مركزا على حادث او قصة او كرامة، والترجمة هنا تصير للحادث او الواقعة او الكرامة. وبعض التراجم قصيرة بحيث لا تفيد بشيء كترجمة اللغبر والضرير. وهو يذكر تاريخ الوفاة أحيانا وأحيانا لا يذكر. ومن النادر أن يذكر تاريخ الميلاد. والغالب انه لا ينص على تاريخ الالف والمائة والمائتين من السنين وهذا يؤدي الى خلط فلا يدرك المرء هل هو في المائة او المائتين. ومثال ذلك أنه يذكر ان الشيخ خوجلي توفي سنة ٥٥ بغير ذكر للألف والمائة.

---

(١) أنظر الطبقات، ثبت المصادر والمراجع ص٣٧٦-٣٨٣.

وفي بعض الحالات نجد أنه يسترسل في الكلام ويورد جوانب كثيرة من حياة المترجم له وعلاقاته.

وسبب هذا التفاوت في التفاصيل هو أنه يكتب حسبما يتوفر له ولأن جل اعتماده كان على الذاكرة، ذاكرته هو وذاكرة الرواة.

وقد سار المؤلف في ترتيب التراجم على الترتيب الهجائي بحيث يأتي حرف الألف أولا ثم الباء ثم التاء وهكذا. غير أن الترتيب داخل الحرف الواحد ليس منتظما في كل حال، بل هو يؤخر أو يقدم بعض الأعلام عن مواضعهم الهجائية. ثم ان الترتيب يأتي أحيانا بحسب اللقب او اسم الشهرة.

ويحاول المؤلف في بعض الحالات الخاصة ان يرتب الأعلام في داخل الحرف حسب التخصص. كالقراء مثلا، او الجهات. ففي صفحة ٣٠٠ ينتهي من تراجم العلماء العاملين بترجمة الخطيب عبد اللطيف عمار ويبدأ تراجم أهل التصوف. وفي صفحة ٢٧٧ يفيدنا بأنه بدأ ذكر قراء القرآن. وفي صفحة ٣٤٥ ينتهي بترجمة محمد ولد محمود العركي من تراجم فضلاء الصعيد وينتقل الى تراجم فضلاء السافل. ولا يدري المرء ان كانت هذه من اصل الطبقات عند وضعه ام هي اضافات من المؤلف او من غيره. وهنا نذكر ان ترجمة أبي الحسن دفع الله بن ضيف الله ترد في بعض النسخ بينما لا ترد في نسخ اخرى وقد اسقطه «الذيل والتكملة»، ربما لاعتماد صاحبه على نسخة للطبقات تسقطه. وربما كانت ترجمته في الاصل إضافة بعد التصنيف جاءت خاصة وهو من الضيفلاب. ومن المواضع غير الكاملة في الطبقات ما جاء في ترجمة ابي الحسن صالح العودي، فانه توقف عن ذكر ابنائه بعد ان قال: وله من الاولاد. ومنه انه يذكر في صفحة ٢١٤ انه سيذكر ترجمة في حرف الميم ولكنه لا يذكرها. ومثل هذه المواضع التي تدل على ان الطبقات لم يأخذ شكله النهائي كثيرًا.

ويلاحظ البروفسير يوسف في مقدمة الطبقات ان الطبقات بغير عنوان

ثابت ثم يوضح ان النسخ الخطية لا تحمل عنوانا وأن صديقا ومنديلا يضعان عنوانين مختلفين.

ان عنوان الطبقات عند صديق هو «كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان». وهو عند منديل: «كتاب طبقات ود ضيف الله في أولياء وصالحين وشعراء السودان».

وقد اعتمد البروفسير يوسف العنوان الأول ولكنه وضع في الغلاف عنوانا مختصرا هو: «طبقات ود ضيف الله». ويسميه مكمايكل طبقات ود ضيف الله ايضا. ويعتمد هيللسون العنوان الأول نقلا عن صديق ثم يورد في الهامش عنوان منديل منسوبا إليه.

أما ود ضيف الله نفسه فيقول مشيرا الى كتابه: «سألني... أن أورخ لهم ملك السودان وأذكر مناقب اوليائها الأعيان». ثم يقول انه اقتدى بمن ألفوا في التاريخ والمناقب. ويقول في موضع آخر: «وأردت ان اجمع هؤلاء الأعيان في معجم وأذكر العلماء على حدة وقراء القرآن على حدة والنحاة والشعراء على حدة وأذكر الملوك والشيوخ المعتنين بأمر الدين والأعيان المذكورين أبينهم بحروف الهجاء». وهذا كله ينصرف الى بيان مهمته وليس فيه اسم محدد للكتاب.

وقد أشار مخطوط كاتب الشونة الى الكتاب بقوله: «كتاب طبقات الصالحين». ويقول السلاوي مشيرا إليه: «قد أطلعت على مؤلف العلامة المبارك الصالح الفقيه محمد... جمعة في ذكر أولياء البر» وهذا وصف لموضوع الكتاب وليس عنوانا له.

ان اغفال النسخ الخطية لعنوان الكتاب وعدم وضع المؤلف نفسه اسما لكتابه في المقدمة او في أي مكان آخر يدفعنا الى الظن بأن ود ضيف الله لم يجعل لكتابه اسما محددا.

ان كتاب الطبقات فيما يبدو لم ينته الى شكله النهائي بل كان عندما تركه

مؤلفه ما زال في طور المسودة القابلة للزيادة والى التغيير والتبديل. والى هذا يعزى في نظرنا عيوب التأليف في الطبقات وضعف الصياغة في بعض المواضع.

ان احدا من الباحثين لم يذكر أنه اهتدى الى نسخة الطبقات الأصلية حتى يمكن ان ننظر في أمرها. ولم يقل أحد من الناقلين للنسخ الخطية انه وقف على هذه النسخة وكل ما يقال من ان هذه النسخة او تلك قريبة الى الاصل أو انها منقولة عنه انما هو تقرير اجتهاد من قبل الباحثين ليس الا. وواضح من القراءات المختلفة التي اوردها يوسف في تحقيقه ان هناك اختلافات بين النسخ في القراءة، وليس من شك ان بعض هذه الاختلافات راجع الى سوء النقل، وأمر ذلك مرده الى الناقل وليس الى النسخة التي ينقل عنها، ولكن ليس من شك ايضا ان بعضها الآخر راجع الى النصوص نفسها، لأن هذه النسخة تعرض امرا بوجه بينما تعرضه نسخة اخرى بوجه آخر. وأغلب الظن ان ذلك راجع الى اختلاف مسودات الكتاب وأن هذه المسودات لم تنته الى شكل نهائي.

وأنت اذا نظرت الى الكتاب في عمومه تجد أنه يفقد الموازنة الداخلية. فبعض الشخصيات المهمة تذكر عرضا في تراجم الآخرين مع أنها أحق بأن تذكر في تراجم مستقلة. وهو يذكر اولاد جابر الأربعة ولكنه لا يترجم الا لبعضهم. والمعلومات المهمة التي يذكرها أحيانا في التراجم الفرعية تغفل في التراجم الرئيسية. ولعل اوضح مثال لذلك ما يرويه عن تاج الدين البهاري، فإن ترجمته قصيرة جدا في حين ان ما يذكره عنه في تراجم الآخرين كثير.

ثم لاحظ ان الكتاب بغير عنوان يرجع الى المؤلف، ونحن نحسب أنه لو أكمل كتابه لجعل له عنوانا، اذ لا يترك كتاب كامل بغير عنوان. وقد أفادنا المؤلف في المقدمة بأنه يزمع الترجمة لطوائف كثيرة غير أن الكتاب لا يتضمن بعض هؤلاء. وقد ذكر أنه سيفصل الناس حسب طوائفهم ولكنهم يردون في الكتاب جملة واحدة. وهذا يعني ان التبويب لم يأخذ وضعه النهائي وأن مادة الكتاب غير مكتملة.

ثم ان هناك تراجم غير كاملة. ومن الملاحظ ان بعضها تركت في شكل معلومات لم توضع بعد في صياغة نهائية. وهو يذكر النجمي بن حمد ابن الشيخ ادريس ولكنه لا يورد عنه شيئا، وليس من تفسير لذلك الا أنه لم يكتب ترجمته بعد أو أنه ترجم له ولكنه لم يثبت الترجمة في الكتاب، وكلا الأمرين يدلان على أن الأمر لم يبلغ كماله.

وقد بوب المؤلف التراجم في بعض المواضع، أي في حرف العين، والميم، بينما ترك تراجم الحروف الأخرى بغير تبويب. واذا لاحظنا أنه يذكر في المقدمة عزمه على الترجمة حسب الطوائف لقراء القرآن والفقهاء والملوك والمتصوفة ونحوهم لتبين لنا ان التبويب داخل الحرف هو الأصل في مقصده، غير انه لم يبلغ ذلك على اضطراد. وسبب ذلك في رأينا ان الكتاب لم يبلغ شكله النهائي. ولاحظ ايضا التفاوت في التراجم المطولة. فهو يبوب الكلام في بعض التراجم مثل ترجمة حسن ود حسونة وبدوي ابو دليق وادريس ولد الأرباب وخوجلي عبد الرحمن وصالح بان النقا في حين أنه لم يبوب في تراجم أخرى مطولة مثل ترجمة حمد النحلان وحمد ولد أم مريوم ودفع الله ولد الشيخ محمد ابو إدريس وعمارة ولد عبد الحفيظ ومحمد الهميم. وفي ظننا ان ذلك يعني عدم اكتمال هذا الجانب من التأليف.

ويتصل بهذا الأمر تاريخ تأليف الطبقات، فالمؤلف يذكر في إحدى النسخ الخطية انه فرغ من التأليف في ١١٦٦هـ[١]. وهذا التاريخ يعني أنه فرغ من التأليف بينما كان عمره نحو ٢٧ عاما وأنه عاش بعد ذلك نحو ٥٨ عاما. ولكنه يقول في موضع آخر: «فصارت هذه الكرامة باقية الى زماننا هذا سنة تسعة عشر بعد الألف والمائتين»[٢]، وهذا نفسه اضافة تالية. ثم أنه كان يكتب في الطبقات حتى ١٢١٩هـ. وعندنا أن الاحتمال الأقرب هو أنه بدأ

---

(١) الطبقات ص١٨.

(٢) الطبقات ص١٩٧.

التأليف في ١١٦٦هـ، عندما كان عمره ٢٧ عاما وانه استمر في التأليف حتى وفاته. واذا صح هذا الاحتمال فانه يقوي رأينا الذي سلف بيانه، وهو ان ود ضيف الله قد توفي قبل أن يضع الطبقات في شكل نهائي.

هل تعرض كتاب الطبقات الى مراجعة؟ ان صديقا تصرف في بعض المواضع بالتغيير والتبديل. ونحن نتساءل فيما اذا تم مثل ذلك على أيدي الناقلين للنسخ الخطية! اننا لا نجد دليلا ثابتا على ذلك ولكننا نظن ان تصرفا قد وقع في النص هنا وهناك. وهناك جملة من خلافات النصوص قد ترجع الى ذلك. ولكن من المؤكد أنَّ طلب الطبقات قد بقي كما هو ولم يتعرض الى مراجعة بعد صاحبه على النحو الذي تعرض إليه كتاب تاريخ ملوك سنار على ايدي ابراهيم عبد الدافع والأمين الضرير والزبير ود ضوه، لأن الخلافات التي رصدها محقق الطبقات لا تمس جوهر التراجم. ومن الواضح ان الناس يخشون المساس بالتراجم، و بخاصة تراجم رجال الدين، وهو نفس الإحساس الذي يؤدي الى تهيب الترجمة لهم.

ولأهمية الطبقات اهتم به عدد كبير من الباحثين: بعضهم عرف به، وبعضهم نوه بأهميته. وهناك من اتخذ الكلام عنه سبيلا الى الكلام عن عالم التصوف في عصر الفونج. وبعضهم ذهب الى اختصار التراجم والإضافة إلى من ذكرهم تكملة وذيلا. وبعضهم ترجمه الى اللغة الانجليزية بعد ان نظر فيه وغربل معلوماته. وكانت المحاولة الأخيرة هي تحقيق نصوصه تحقيقا علميا.

للطبقات اذن، ككل كتاب مهم، تاريخ على أيدي الناس، يذهب به كل باحث او ناظر الى الجانب الذي يهتم به.

وكان أول من نبه الى قيمة الطبقات كاتب الشونة، فانه قال: « وتوفي فيها (اي سنة ١٢٢٤هـ) حافظ المذهب والشريعة المحقق المحرر العالم الرباني شيخ الاسلام فريد العصر الفقيه محمد ولد ضيف الله بالحلفاية، وله تآليف جليلة، منها كتاب طبقات الصالحين الذي ما سبقه عليه في بلاده احد من المتقدمين

والمتأخرين، وشرح ابن عطاء الله، وله ايضا نبذة في السيرة»[١]. ثم جاء دور الشيخ السلاوي وزميله ابراهيم عبد الدافع اللذين وضعا مختصرًا للطبقات في شكل رجز وشرحاه واضافا إليه بعض الاعيان. وقد نشر هذا الكتاب بعنوان «الذيل والتكملة» ويجيء كلامنا عنه ادناه.

ثم يجيء بعدهما في بعض الأقوال الشيخ عبد المحمود ابن الشيخ نور الدائم ابن الشيخ أحمد البشير، وهو من بيت دين مشهور. وجده الشيخ الطيب هو الذي أدخل الطريقة السمانية في السودان. وكان أبوه نور الدائم خليفة احمد الطيب. وأخوه محمد شريف خلف أباه في زعامة الطريقة. وهو استاذ المهدي. اما الشيخ عبد المحمود فكان شاعرا وناثرا، وكان غزير الانتاج. وبدار الوثائق القومية مجموعة من مؤلفاته صورت بمعاونة واريحية ابنه الشيخ محمد عظيم الذي يهتم اهتماما عظيما بآثار أبيه.

والخبر عنه أنه ذهب يستشير الشيخ محمد العبيد بدر في كتابة ذيل للطبقات يذكر فيه من ظهر من الأولياء والصالحين بعد الطبقات. غير ان الشيخ قد أشار بما أثبط همته. قيل فأشار عليه الشيخ محمد بأن يبدأ بترجمة الأولياء الموجودين في أم بان وأشار الى واحد من حيرانه يدعى يونس. فتساءل الشيخ عبد المحمود عن هوية يونس هذا. ولما كان يونس من كبار حيران الشيخ وممن يتوسم فيهم الصلاح عاتبه الشيخ على جهله ونصحه بصرف النظر عن اكمال الكتاب فتركه. ذلك ما جاء في رواية. وقد نفاها الشيخ محمد عظيم واستنكرها وذهب إلى أن عبد المحمود قد أرخ لجده أحمد الطيب وأولاده وتلاميذه في أزاهير الرياض وأنه لم يرم الى تكملة الطبقات ولم يذهب الى الشيخ بشأنها[٢].

ويذكر مكمايكل في كتابه «تاريخ العرب في السودان»[٣] كتاب الطبقات

---

(١) كاتب الشونة ص٦٧.

(٢) الطبقات: الطبعة الثانية عام ١٩٧٣م صفحة «ز» التصحيح رقم ٦.

(٣) مكمايل، تاريخ العرب في السودان، الجزء الثاني ٢-٣.

ضمن مجموعة من المخطوطات السودانية العربية ووضع بعد مقدمة تعريفية قصيرة ملخصا لمقدمة الطبقات وملخصات للتراجم. ونحن نتعرض لعمل مكمايكل في مكان بشيء من التفصيل.

ويورد هيللسون في كتابه «نصوص عربية سودانية» والذي نشر في ١٩٣٥م ترجمة انجليزية لما يورده الطبقات عن حمد النحلان[١] ثم كتب مقالا مطولا في مجلة السودان في مذكرات ومدونات[٢] عن المجتمع الديني الذي عاش فيه من يذكرهم من أعلام الدين. وكان اعتماد هيللسون على طبعة صديق.

وكتب الشيخ علي عبد الرحمن، وكان قاضيا شرعيا ثم تحول الى السياسة فلمع فيها، مقالا عن الطبقات في مجلة النهضة[٣] بمناسبة صدور كتاب الطبقات مطبوعا. وهو لا يقول شيئا كثيرا عن الطبقات نفسه أو عن مؤلفه وانما يرحب بمناسبة النشر حاثا المثقفين على قراءته. وهو لا يوضح بأي الطبعتين يرحب ولكن من الواضح انه يقصد الطبعة الأولى، لأن ترحيب الشيخ علي ادعى لأن يكون استقبالا للطبعة الأولى، ولأنه لو كان بيده الطبعة الأخرى لما غفل عن ذكرها.

ومعلوم ان صديقا من قرابة الشيخ علي، فهو محسيّ مثله ومن جزيرة توتى، وكان قاضيا شرعيا تربطه زمالة العمل بالشيخ علي.

وفي ١٩٦٢م صدر عن مكتب النشر كتيب: «ود ضيف الله في كتابه الطبقات» للاستاذ على محمد علي صالح[٤]، وكما هو واضح من العنوان فان

---

(١) هيللسون: نصوص عربية سودانية، ص١٧٤- ١٨٤.

(٢) هيللسون: طبقات ود ضيف الله، مجلة السودان في مذكرات ومدونات، المجلد السادس (١٩٢٣) ص١٩١-٢٣٠.

(٣) علي عبد الرحمن الأمين، كتاب الطبقات وقيمته التاريخية، مجلة النهضة ١، ٢٠ فبراير ١٩٣٢م ص٤-٦.

(٤) علي محمد علي صالح: مع ود ضيف الله في كتاب الطبقات، مكتب النشر، الخرطوم، ١٩٦٢م.

الاستاذ علي يهدف الى التعريف بالكتاب وبمؤلّفه، ولعله أول سوداني من المحدثين يتعرض الى الطبقات في كتاب مستقل.

وفي ١٩٦٦م كتب الاستاذ محمد محجوب مالك، نائب مدير دار الوثائق المركزية، مقالا عن الطبقات في مجلة بوليس السودان تعرض فيه الى بعض جوانب الطبقات وأثار بعض القضايا[١]. وكان الاستاذ محمد قد بدأ تصنيف أعلام الطبقات حسب مدارسهم وانتماءاتهم. فهو يبدأ بالرجل الذي أنشأ المدرسة ويبين هذه المدرسة وموضعها وظروف نشأتها وتطورها ثم يتابع أبناءه وأحفاده وتلاميذه الذين يهاجرون الى المناطق الاخرى وينشئون فيها مدارسهم الخاصة او مراكزهم. ان متابعة المدارس بهذه الطريقة ورصد اتجاهات انتشارها كان من شأنها ان تعطي نتائج مهمة ولكن الاستاذ محمد قد توقف ـ بكل أسف ـ عن المحاولة ونقل اهتمامه الى موضوع آخر. ونحن نرجو ان يعود الى مهمته الاولى وان يكمل المشوار وان كان ذلك يكلف جهدا ووقتا. وللاستاذ محمد مقال نشره بجريدة الرأي العام عند صدور تحقيق يوسف للطبقات معرفا به ومنوها.

وفي بحث بالانجليزية بعنوان: «عرض للحركة العلمية الاسلامية في دولة الفونج» يتعرض الاستاذ يوسف بدري، معتمدا على الطبقات بشكل رئيسي، الى الحياة الصوفية والى مدارس العلم. وهو يعالج موضوعه حسب المدارس فيبين موضع كل مدرسة وتاريخ نشأتها ومدة استمرارها وتأثير كل مدرسة على غيرها.

ثم جاء تحقيق البروفسير يوسف فضل حسن للطبقات في ١٩٧١م، ونحن نتكلم عن ذلك في طرف آخر من هذه الدراسة.

اما في مجال النشر فمعروف أن الكتاب كان متداولا عن طريق النسخ اليدوي. وكانت نسخه محدودة بطبيعة الحال. وبالرغم من ان البروفسير يوسف

(١) محمد محجوب مالك، مجلة كلية بوليس السودان، ٣، يوليو ١٩٦٦م.

قد اجتهد في الحصول على كل ما توفر من نسخ وبالرغم من أن دار الوثائق قد عاونته في ذلك بكل ما تستطيع، فان المحصول الذي جمع لم يزد على بضع نسخ خطية. وكان منديل قد اعتمد على احدى هذه النسخ، وهي نسخة الشيخ حسب الرسول. أما مكمايكل فيذكر أنه اعتمد على نسخة الشيخ الأمين ولد محمد ولد طه ولد الشيخ خوجلي. وقد عثرنا فيما بعد عند ولده الشيخ احمد الأمين خليفة الشيخ خوجلي ضمن وثائق تاريخية مهمة[1] على نسختين للطبقات. وليس من الواضح على أيهما اعتمد مكمايكل. ولكن البروفسير يوسف يذكر أن قراءة مكمايكل تطابق قراءة النسختين. ولعل مكمايكل قد نظر في النسختين وترجم عنهما.

اما صديق فقد اعتمد على ست نسخ خطية، ثلاثٍ منها وقف عليها البروفسير يوسف، وثلاثٍ لم يهتد إليها، وهي نسخة الدولابي ونسخة هيللسون ونسخة مدني. وكان جملة ما اعتمد عليه يوسف في تحقيقه ثماني نسخ خطية وثلاثًا مطبوعة: هي صديق ومنديل ومكمايكل[2].

ولو أنك نظرت في المحصول الذي بلغه يوسف وصديق ومكمايكل ومنديل ودار الوثائق المركزية بعد كل ما بذل من جهد لتبين لك ان النسخ المتداولة من الطبقات لم تكن كثيرة.

وفي سنة ١٩٣٠ صدرت طبعتان، طبعة صديق أولاً ثم منديل. أما منديل فقد اعتمد على نسخة الشيخ حسب الرسول كما قلنا ونشرها كما هي بغير تعديل أو إضافة او شرح. فهو لم يضف إليها الا مجرد الذيوع والانتشار وبعض خدمات تحقيقية. وقد اسقط يوسف طبعة منديل عند مقارنة النصوص لأنها لا تختلف عن اصلها الذي رجع إليه في شيء. ولكن منديلا كان بالنسبة

---

(١) أنظر وثائق خليفة الشيخ خوجلي، طبع دار الوثائق المركزية ١٩٦٥ وأنظر كتاب الفونج والأرض للدكتور محمد ابراهيم أبو سليم، ١٩٦٧م.

(٢) عثر يوسف فضل حسن، على ثلاث نسخ أخرى بعد اعداد تحقيقه ولكنها لا تختلف عن النسخ التي اعتمد عليها.

الى المحافظة على النص خيرا من صديق الذي تصرف في النصوص. وبذلك اتاح منديل للقارئ ان يقف على نص لم يتعرض للمراجعة. وكان مما يزيد هذا أهمية ان اعتماده كان على نسخة للطبقات تعد جيدة.

أما صديق فقد اعتمد على ست نسخ خطية نصفها متاح الآن في نسخ مصورة بالإضافة الى اصولها عند مالكيها، وقد نظر فيه يوسف واعتبره في تحقيقه، ونصفها الآخر لم يبلغه اجتهاد يوسف، وهو غير متاح الى الآن. وقد اكتفى يوسف - مضطرا - بما دونه صديق من قراءات عن هذه المصادر الضائعة.

وقد بذل صديق جهدا كبيرا لابراز الطبقات واهتم بشرح بعض المفردات الغريبة وحدد بعض المواضيع وأثبت معلومات قيمة في هوامش الكتاب وأضاف في النص وحدد بعض الموضوعات، وان كانت طفيفة، وبين القراءات المختلفة التي لا توجد في النسخ المخطوطة. ويعتبر يوسف انه أخذ ذلك من النسخ الضائعة. وقد عاب يوسف على صديق أنه لم يحافظ على اسلوب الطبقات الأصلي وأنه هذب ونقح حتى جعله أقرب الى لغة عصرنا[١].

هذا في مجال النشر والتحقيق والتعريف. أما في مجال التأليف فقد تناول عدد من الباحثين في معرض الكلام عن اهتماماتهم الخاصة كتاب الطبقات بالذكر واعتمد عليه بشكل واضح. ومن هؤلاء نعوم شقير في تاريخه، وكروفورد في مملكة الفونج السنارية، والدكتور عبد المجيد عابدين في تاريخ الثقافة العربية في السودان، وفي عدد من مؤلفاته، وعبد العزيز أمين عبد المجيد في التربية في السودان، وعبدالله عبد الرحمن الأمين في كتاب العربية في السودان، والدكتور مكي شبيكة في تحقيقه لمخطوط كاتب الشونة، والشاطر بصيلي عبد الجليل في تحقيقه لكاتب الشونة أيضا، والدكتور هولت في بحثه عن الأولياء والصالحين، والدكتور حسن الفاتح قريب الله في بحثه عن التصوف في السودان الى نهاية عصر الفونج، والدكتور عبد القادر محمود في

(١) الطبقات ص٣١.

كتابه الطوائف الصوفية في السودان وفي كتابه الفكر الصوفي في السودان، ومحجوب زيادة في كتابه الاسلام في السودان[1]، وغير هؤلاء، اذ لا ينهض بحث في تاريخ الفونج أو تاريخ الاسلام في السودان أو التصوف مكتملا الا بعد الاستعانة بالطبقات.

وبعد جهد مضن، يقدره كل من عمل في تحقيق المخطوطات، وخاصة ذات المصدر المتعدد، استمر لعدة سنوات أكمل البروفسير يوسف فضل حسن تحقيق كتاب الطبقات. وكان ذلك انجازا علميا رائعا ومجيدا. وقد صدر تحقيقه عن قسم التأليف والنشر بجامعة الخرطوم (الآن دار جامعة الخرطوم للنشر) في سنة ١٩٧١م ثم صدرت طبعته الثانية عن نفس الدار في سنة ١٩٧٥م. ثم تلت الطبعات بشكل متلاحق لاقبال الجمهور عليه.

لقد رجع يوسف فضل الى كل ما كتب عن الطبقات وكل ما تيسر له من المؤلفات التي تتناول التصوف في السودان وبعض مراجع التصوف في العالم الاسلامي وما كتب عن عصر المؤلف ثم اتصل بعدد وافر من الناس يستفسر منهم ويستعلم. وهكذا يكون قد جمع في تحقيقه الخبرة المدونة والخبرة غير المدونة واستكشف استكشافا واسعا في سبيل ان يحقق الطبقات تحقيقا مستوفيا. وانك تستطيع أن ترى في مقدمته وفي ثبت المراجع مقدار ما اجتهد.

ويعالج محقق الطبقات في مقدمته كثيرا من القضايا المتصلة بكتاب الطبقات وبمؤلفه وبحركة العلم والتصوف في سودان الفونج. وقد بحث عن النسخ الخطية للطبقات واهتدى الى مجموعة طيبة منها. وقد عرف بها في مقدمته. هذا بالإضافة الى طبعتي الطبقات. وبعد ان نظر في هذه النسخ وقارن بينها قرر أنها كلها منقولة، وأن الأصل الذي صدر من المؤلف مفقود. ونحن نعتقد ان النسبة التاجية بين هذه النسخ وبين الأصل نسبة غير موصولة لأننا لا نعلم على وجه مؤكد أن هذه النسخة أو تلك قد نقلت من

---

(١) طبقات ود ضيف الله، الطبعة الثانية ١٩٧٥م، صفحات أ ـ ي.

الأصل أو أنها تتصل بنسبة معروفة ثابتة. ولذلك كان اعتقادنا أن قول بعض مالكي النسخ بأن هذه النسخة أو تلك منقولة عن الأصل انما هو قول بغير سند وأنه محض ادعاء أو مجرد اجتهاد من قبل الباحثين.

ولما لم يتوفق محقق الطبقات الى الوصول إلى النسخة الأصلية أضحى يقارن بين النسخ ويدرس ظروفها لعله يتوفق الى النسخة الأقرب والى نص يعتمد ليكون عمدة التحقيق. وبما لنا من خبرة في تحقيق المخطوطات، فإننا ندرك مقدار ما عاناه وما تكفل من جهد وزمن. وقد مضى ينظر في أمر النسخ حتى انتهى معتمدا على المقارنة بين النسخ وعلى اخبار اخذها من جهات مختلفة الى ان نسخة البرياب هي اقرب النسخ الى اصل الطبقات. غير أننا نتحفظ هنا، اذ طالما ان النسبة التاجية للكتاب مفقودة وطالما ان الأصل ضائع فلا سبيل الى القول بقرب نسخة او غيرها الى الأصل. وقد جعل يوسف نص هذه النسخة عمدته ثم بين بعد ذلك اختلافات النسخ في الهوامش. ولكنه لم يكن متزمتا في هذا الأخذ بل إنه في مواضيع كثيرة يستحسن قراءات مخالفة لقراءة البرياب ويعتمدها في النص ثم يورد قراءة البرياب في الهامش ضمن القراءات الضعيفة.

وفي الهامش يبين القراءات المختلفة لكل موضع خلاف بين النسخ وهو يشرح كل ما غمض من لفظ أو عبارة، ان لبيان المعنى وجه الكتابة أو الخط او النقل. وقد علق على الحوادث والأخبار والمواقف المهمة بما يعين القارئ على فهمها. وهو يشرح كل التعابير غير المستعملة في وقتنا. كما أنه يبين احيانا مصادرها غير العربية من لغات ولهجات السودان، ولعله استعان في ذلك بقواميس اللغة النوبية وغيرها وبعض العارفين بلهجاتها. ويعطي محقق الطبقات في الهامش احالات كاملة تيسر للقارئ ان ينتقل بسهولة ويسر من موضع الى مواضع متصلة به. وهو يضبط البلدان بخطوط الطول والعرض ويبين ما يعد مهما من أخبارها وأحوالها، ويذكر القبائل ومواضعها وما كان لها من أهمية تتصل بالنصوص. ثم يعرف بأعلام غير المترجم لهم ويعطي لها

وللمترجم لهم احالات كاملة. وقد شرح العادات والتقاليد ووصف الأدوات التي يذكرها، وجعل لها أحيانا رسومات بيانية، ثم وضع في نهاية الكتاب الفهارس كاملة للاعلام والأماكن والبلدان والقبائل وللكتب التي ذكرت في الطبقات. ثم هناك ثبت بالكلمات والعبارات التي أورد شرحها وثبت آخر بالمصادر التي رجع إليها.

ان ضبط نص الطبقات على هذا الوجه قد انتهى به الى نص اساسي معتمد، ويمكننا الآن ان نقول اننا نملك نصا للطبقات يغنينا عن العودة الى النسخ الخطية والى طبعتي صديق ومنديل.

غير أن هذا كله لا يعني أن عمل محقق الطبقات يجيء مبرأ من كل عيب. وقد يختلف المرء أحيانا مع المحقق في بعض ما يذهب إليه او قد يرى أنه يعبر دون تعليق في موضع كان يستحق النظر، وأحيانا يحس المرء أن المحقق قد وصل الى أمر الا انه يحذر عن ذكره لفرط دقته. وقد حاول ان يصلح بعض ذلك في الطبعة الثانية للتحقيق[١].

ولكن كل ذلك متوقع في عمل كبير كهذا، وليس من عمل بغير نقص. وسبحان المبرأ من كل عيب. ومع ذلك فان مواضع المؤاخذة اقل مما يتوقع في أول تحقيق علمي شامل للطبقات.

إن تحقيق يوسف انجاز علمي عظيم، وقد أوفى مهمة الضبط والتحقيق ايفاء كاملا. وما التحقيق في حقيقته الا قراءة جيدة تمكن القارئ من النص. ويبقى بعد ان تيسر ذلك ان ننصرف ـ كل بحسب تخصصه ـ الى الجوانب الموضوعية كالتصوف والاسلام والقضاء واللغة والتاريخ والعادات وما الى ذلك من موضوعات.

اما مكمايكل فقد أورد في الجزء الثاني من كتاب تاريخ العرب في السودان، والذي نشر لأول مرة في عام ١٩٣٢م، ثم نشر مصورا في عام

---

(١) طبقات ود ضيف الله، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م، صفحات أ ـ ي.

١٩٦٧م، ترجمة بعض المخطوطات السودانية العربية. ومن ضمن هذه المخطوطات كتاب الطبقات (ص٢١٧- ٢٧٢)، وهو يقدم له بمقدمة قصيرة ولكنها مفيدة (ص٢١٧- ٢٢١) ثم يلخص مقدمة الطبقات.

اما التراجم فهي ملخصة، وأحيانا لا تزيد عن الجملة. وقد ركز مكمايكل على الفوائد التاريخية، وهذا بخلاف ما يفعله هيللسون الذي يهتم باللغة والمعتقدات ومدلولاتها ايضا. وقد غير مكمايكل ترتيب التراجم لأنه رتب أسماء المترجم لهم حسب ترتيبهم بالأحرف الانجليزية، وهو يعتمد في ذلك الاسم الاول.

وبمقارنة ما أورده يوسف يتضح ما يلي:

يسقط مكمايكل ترجمة ١٤ علما، وهم: ابراهيم واسماعيل ابني جابر، ولعله اكتفى بما أشار به اليهما في ترجمة اخيهما عبد الرحمن، وهو يسقط ابو دلق وادريس محسن وحسن عبد الرحمن بان النقا وعمارة بن شايقي وغانم الأحمدي وابو الحسن دفع الله ابن الفقيه ضيف الله وشرف الدين ولد الفقيه محمد ومحمد ولد الشقل. ولا ندري سببا لاغفاله لهم. كذلك يسقط الضرير واللقير، ولعله فعل ذلك لعدم أهميتها. وقد جعلهما يوسف في ادخال واحد كما قلنا من قبل. وهو يسقط أيضا حمد الرهيوابي، ولعله يخلط بينه وبين حمد المجذوب. وهو يسقط أيضا صالح ابو نائب ابن الشيخ عبد الرازق، وقد ذكر يوسف انه اعتبر ترجمته جزءا من ترجمة صغيرون ولد أبو وجيه، ولعله أسقطه اكتفاء بما ذكر عنه هناك.

ويلاحظ أنه يقفز من الترجمة ٣٨ الى الترجمة ٤٠ دون ذكر لرقم ٣٩، وهنا يحتمل أن مكمايكل الغى ترجمة عند الطبع بعد أن اثبتها في المسودة. وقد يحتمل أنه مجرد قفز من رقم الى رقم وأن كان هذا احتمالا ضعيفا.

ويورد مكمايكل ترجمة لشخص يدعى عبد الباقي الولي (رقم ٢) ولكن لا يرد شخص في الطبقات بهذا الاسم. ونحن نحسب ان المقصود به عبدالله بن

العجوز. ان مكمايكل يذكر أن عبد الباقي هذا أحد اربعة أئمة كانوا في عصر واحد. وقد ذكر الطبقات هؤلاء الأربعة وأورد فضلهم في عدة مواضع، ولكن ليس بينهم من يسمى عبد الباقي، وهذا يؤكد ان اسم عبد الباقي يرد خطأ. والأربعة المقصودون هم بدر الدين ولد مسكين الخفي وعبدالله ولد العجوز ومحمد الطريفي والشيخ خوجلي. وقد اورد مكمايكل تراجم هؤلاء الاربعة. غير أننا نعتقد أنه سجل في مسودته أن عبدالله ولد العجوز احد هؤلاء الأربعة، وذلك من واقع ما يذكر عنه في مواضع أخرى، ثم اختلط عليه الأمر بعد ذلك فتغير الاسم وفات عليه أنه يفرد لنفس الشخص ترجمة.

وهناك أخطاء طفيفة يقع فيها مكمايكل. فشمو ولد محمد يسميه: شمار، ووداد بن الشيخ سليمان يسميه: بدر، وعبد الرافع راجل ويركت سماه: عبد الدافع، وقاقم سماه: قاقومي.

وعموما فان مكمايكل بذل جهدا عظيما في ضبط الطبقات ووضع ملخصات للتراجم وليس من شك في انه قدم خدمة علمية عظيمة.

مخطوط الذيل والتكملة:

وكان ينبغي ان يأتي الكلام عنه حسب التتابع التاريخي بعد الكلام عن محاولة الشيخ عبد المحمود نور الدايم لاعداد طبقات آخر ولكننا أجلناه الى ما بعد كلامنا عن تحقيق الدكتور يوسف للطبقات لأن تحقيق الذيل والتكملة جاء بعده، ولأنه يعد مواصلة لمشوار تحقيق الطبقات وتطوير الدراسات الخاصة به. وكتاب الذيل والتكملة مختصر للطبقات بغرض التهذيب مع اضافة اعلام آخرين. وهو يتكون من رجز وضعه ابراهيم عبد الدافع ذكر فيه الاعلام الذين ذكرهم الطبقات وبعض أعلام جاء دورهم بعد الطبقات، وشرح لهذا الرجز صنفه أحمد السوي قاضي التركية المشهور ومن الشرح يتضح الغرض من المصنف، وهو تهذيب لغة العرض لتكون خالصة الفصحى

والغاء جنوح ود ضيف الله في ذكر الكرامات والخوارق واطلاق الألقاب، ليتسق العرض مع الاتجاه الفقهي، ثم إضافة أعلام جاءوا من بعد.

والمخطوط الذي وقفنا عليه بغير عنوان. ولا يذكر السلاوي في شرحه عنوانا. وقد اطلقنا عليه في التحقيق الذي نشرناه بالاشتراك مع صديقنا البروفسير يوسف فضل حسن عنوان «الذيل والتكملة»، على اعتبار نسبته الى كتاب الطبقات وهو عنوان لا استريح له، ولو قلنا ما يعني التهذيب والاضافة لكان احسن وأدق. ولكنك تطلق على ولدك اسما في ظرف ثم تعود فترى أحسن منه، ومع ذلك يبقى ما سبق به القدر.

وقد اكتشف هذا المخطوط بفضل شاب اتى به الينا بدار الوثائق، وكان ذلك بعد صدور الطبعة الاولى من تحقيق البروفسير يوسف للطبقات. ومن ثم اتفقنا انا والبروفسير يوسف على ان نحققه معا ونقدمه للقراء. وقد قامت الاستاذة سامية بشير بنقل نص المخطوط تمهيدا للتحقيق، ووضعت هي والاستاذ عبد الماجد احمد أبو سبيب بعض المذكرات، وهما كانا عندئذٍ يعملان بدار الوثائق، وقد تحولا الى جامعة الخرطوم ونالا من بعد درجة الدكتوراه، وهما من هيئة التدريس بهذه الجامعة الآن.

أما عن صاحبي الرجز والشرح، أي السلاوي وابراهيم عبد الدافع، فقد تعرضنا لهما في بحثنا عن احمد السلاوي الذي يرد في هذا السفر ولا نريد أن نكرر قولنا فيهما.

يتكون المخطوط من ٣٥ ورقة، اي ٧٠ صفحة. ويبلغ المكتوب منها ٦٨ صفحة، والكتابة في الصفحة الاخيرة تقف في نهاية سطر ١٩. وهناك مكان يسع اسطرا اخرى، ولكن الناقل يقف هنا لسبب غير واضح. والصفحة التالية خالية عن الكتابة، وذلك انسياقا مع توقف النقل في الصفحة السابقة. وقد بدأ الناقل بالصفحة الثانية من الورقة الاولى. ويبدأ ترقيم الصفحات من هذه الصفحة. اما الصفحة التي قبلها فقد تركها الناقل خالية عن الكتابة. وجاء

قوم من بعد فدونوا فيها ما يسمى بالتمليكات. وفي بداية هذه الصفحة نجد الرقم ٣٥ وتحته خط ثم نفس الرقم. وغالبا ما يكون ذلك رقم حفظ المخطوط في مكتبة احد مالكيه. ثم يرد بعده في خط ضخم قوله: السيد علي الخولي. ثم ترد بعد ذلك اربعة اسطر بخط أدق مما سبق. ومما ذكر يتبين طرف من تاريخ تداول المخطوط بين مالكيه.

ويبلغ طول الصفحة نحو ٢٢،٥ سم وعرضها ١٦،٢سم. ويبلغ الحيز المكتوب نحو ١٧×١٠سم. وتبلغ مسطرته ٢٣ سطرا، ولكن صفحات قليلة تتجاوز هذه المسطرة بزيادة سطر او نقصان سطر. وصفحاته معقبة على التوالي، وهذا التعقيب بخط الناقل نفسه، ولذلك كان التعقيب هو الأصل في التصحيف. اما الترقيم فقد جاء بآخرة وبخط غير خط الناقل. والغالب أن المرقم هو نفس المفهرس. وقد بدأ الترقيم من الصفحة الثانية من الورقة الاولى، وذلك اتفاقا مع بدء نص المخطوط.

والكتابة فيه بالحبر الأسود، وهي تسير على نفس واحدةمن أول المخطوط إلى آخره دون توقف الا بعض النقط وفراغ يتركه هنا وهناك لكونه يؤجل نقل نص حتى يهتدي الى قراءته.

وخطه واضح مقروء، وهو يكتب بعناية، وتشوب نقله أخطاء هنا وهناك. وبعض هذه أخطاء قلمية عادية كسقط كلمة او زيادتها او تقديم حرف على حرف، وبعضها أخطاء املائية او رسوم املائية تجري على خلاف ما نجريها في ايامنا هذه، وبعضها أخطاء مردها عدم ادراك النص وعدم القدرة على القراءة الصحيحة. ويبدو من تتبع هذا النوع من الأخطاء أن ناقل المخطوط لم يكن متمكنا من مادة المخطوط وان علمه كان يقصر عن البلوغ في بعض المواضع. وقد اوضحنا من قبل انه ترك في بعض المواضع فراغا لأنه لم يتمكن من قراءة النص في الأصل. ويشير اسحق حمد النيل في تعليقاته الى ضعف الناقل وقصوره عن الادراك مما ينهض دليلا على ما نقول. ولعل أخطر مواضع النقل ـ وان كان ذلك من السقطات التي تنجم عن انتقال

الناقل من كلمة الى نفس الكلمة أو كلمة قريبة إليها في نفس السطر أو في سطر آخر، اكثر من كونه خطأ مرجعه عدم الفهم - ما جاء في ترجمة محمد القناوي وترجمة محمد بن أكداوي المضوي في الصفحة ٦٥، فانه انتقل من منتصف ترجمة الاول الى الطرف الاول من ترجمة الثاني، مسقطا الطرف الأخير من ترجمة الاول وبداية ترجمة الثاني. وقد فعل ذلك لأنه قلب لفظ «كاتب» الى «كائت» ثم انتقلت عينه بمناسبة ذلك الى سطر تال.

والسقط هنا لا يزيد على هذا المقدار لأن الراجز لا يذكر بين هذين الرجلين شخصا ثالثا حتى يترجم له. اما عن الذين امتلكوا المخطوط أو تداولوه فيظهر اولا من تعليقات الهامش ان اسحق حمد النيل قد وقف عليه وقرأه. وليس من الواضح ان كانت ملكيته قد آلت إليه في وقت من الأوقات أو كان المخطوط معارا إليه لوقت لينظر فيه. ونص التمليك في الوجه الأول من الورقة الأولى كما يلي: السيد علي الخولي (في وسط السطر بمنتصف الصفحة) سنة ستة وعشرون بعد الثلثمائة حصلت مبايعة هذا الكتاب من (سطر) انتقل مني الكتاب الى السيد علي الخولي خليفة السيد على الميرغني عام ١٣٢٠ (سطر) في شهر شعبان.

ويرد هذا النص على لسان فرج أفندي الشيخ، وربما يكون بخطه ايضا. ومنه يتضح ان المخطوط انتقل في عام ١٢٢٦هـ من ملكية محمد أرباب العقايد الى ملكية فرج أفندي الشيخ، ثم انتقل في شعبان عام ١٣٢١ الى ملكية علي الخولي خليفة السيد علي الميرغني.

ولكن من امتلكه قبل هذا ومن امتلكه من بعده؟ ومتى نظر فيه اسحق حمد النيل، إما بوجه التملك أو بوجه الاستعارة؟ لا سبيل فيما يتبين لنا الى الإجابة على هذه الأسئلة.

وفي الصفحة الأخيرة يقف الناقل في نهاية السطر التاسع عشر وقبل ان يبلغ نهاية الحيز الذي يتسع للكتاب. وكان ذلك بداية ترجمة محمد بن عبد الحي. ثم

يجيء الوجه التالي للورقة بغير كتابة كما ان صفحات الفهرس تأتي منفصلة وكل ذلك يدل على أن الكاتب يقف عند هذا الحد مع أن للمخطوط بقية. ولكن ليس بين ايدينا ما يعيننا على الوقوف على سبب هذا التوقف. وغني عن القول ان ما بعد هذا من النص ضائع.

وتأتي الفهرسة في ملزمة منفصلة. وهي بخط غير خط الناقل وغير خط اسحق حمد النيل. ومن المظنون أنه خط نفس الشخص الذي رقم صفحات المخطوط. وتقع الفهرسة في ست صفحات ونصف صفحة. وهي تنتهي بمحمد ابن عبد الحي مما يعني ان المفهرس ايضا قد وقف على هذا الطرف من الكتاب فقط. ولو وقف على المخطوط كاملا لأورد ما سقط بعد نهاية هذا المخطوط. وقد قال في نهاية الفهرسة: انتهى بعون الله والصلاة والسلام على رسول الله عام ١٣٤٤، وذلك يعني ان وضع الفهرسة كان بعد انتقال ملكية المخطوط الى علي الخولي بنحو ثلاث وعشرن سنة.

وبمقارنة هذه الفهرست بتراجم الطبقات والتراجم الواردة في المخطوط يتبين ان الفهرست تضع بعد الشيخ ادريس ولد الأرباب اسم الشيخ نور الدين علي الأجهوري. ولكن المخطوط لا يفرد للأجهوري ترجمة، وكل ما في الأمر أنه يروي باختصار الرواية المشهورة عن هدايا للشيخ ادريس. وبعد اسماعيل صاحب الربابة تذكر الفهرست ابنه مكي، مع أن كل ما ورد عنه اشارة قصيرة. ويبدو لنا من تتبع مثل هذه الإضافات ان المفهرس قصد ان يضمن في فهرسته بعض الشخصيات المهمة وان لم تكن لهم تراجم مستقلة.

وقد بلغ من ترجم لهم المخطوط ٣١٦ علما. وبلغ العدد في تحقيق البروفسير يوسف فضل حسن ٢٧٠ علما. وعند مكمايكل بلغ العدد ٢٥٩. ومكمايكل لا يضيف ترجمة على ما ذكر الطبقات، ولكنه أسقط منه. اما المخطوط فقد أضاف ترجمة شخصيات لم يرد لها ذكر في الطبقات. وقد بلغ عددهم ٥٦ علما، وأرقامها ٣٥- ٤٧، ٦٣- ٦٤، ١٠٨- ١١٠، ١٢٢- ١٢٤، ١٣١- ١٣٢، ١٤٦- ١٤٩، ١٥٦، ٢٢٤- ٢٣٣، ٢٩٩- ٢١٦. وهو

يقف كما قلنا، في بداية ترجمة محمد بن عبد الحي. ولسنا نعرف على وجه التحقيق ان كانت النسخة الكاملة للمخطوط تذكر بعد هذا ترجمة تحت حرف الميم ولكن من المؤكد أنه ذكر من ذكر في الطبقات تحت هذا الحرف. واذا كان هناك سقط فانه يكون مما أضافه المخطوط. كذلك لا نعرف ان كان يضيف تراجم على ما جاء في الطبقات بعد حرف الميم. ولكن يمكن ان نقول بالمقارنة الى قائمة تراجم الطبقات ان من يذكرهم الطبقات تحت حرف النون والهاء والياء ساقطون فيما تبقى من المخطوط. وهؤلاء يبلغون ١٣ علما أما من ذكروا في الطبقات تحت الواو فثلاثة أعلام، وقد ذكرهم المخطوط في مواضع اخرى، وهم محمد ابراهيم الفرضي المذكور تحت الميم بحكم اسمه محمد والذي يذكره الطبقات تحت الواو بحكم لقبه ولد الحجر، ومحمد الذي يذكره المخطوط تحت الميم أيضا بحكم اسمه والذي يذكره الطبقات تحت الواو اعتبارا للقبه ولد الشقل، وعبد الرحيم الذي يذكره المخطوط تحت العين بينما يذكره الطبقات تحت الواو نسبة الى لقبه ولد داد.

واذا تركنا ما سقط في بقية المخطوط تحت هذه الأحرف، بقية الميم ان كانت له بقية وحرف النون والهاء والياء، وما عسى ان تضيفه البقية على من ذكرهم الطبقات وقارنا بين من يذكرهم المخطوط فاننا نقف على بعض البيانات المهمة عن تناول الكتابين للشخصيات المترجم لهم.

لقد أضاف المخطوط ترجمة ٥٦ علما كما قلنا. ومن هؤلاء ابراهيم عبد الدافع الذي وضع الرجز. ولكن ترجمته لا تظهر مع التراجم وانما تأتي في المقدمة، وكان الأحرى به أن يذكر تحت حرف الألف طالما أن السلاوي يحسبه في عداد الصالحين الذين يترجم لهم، وذلك على نحو ما فعل في ترجمته لنفسه. وقد ترك محققا «الذيل والتكملة» ترجمته حيث جاءت ولم يعطياها رقما. وقد جعلا ما ذكر عن محمد ولد نورين ولد الريدة ترجمة مستقلة (رقم ٢٨٧) مع ان الطبقات لا يعتبر ذلك ترجمة مستقلة. كذلك لا تذكر فهرست المخطوط اسمه. ولكن ترجمته ترد في نهاية ترجمة مدني الحجر ولد عمر

صغيرون بحيث يمكن اعتبارها ترجمة منفصلة. الضرير واللقير يردان في ادخال واحد عند محقق الطبقات وقد اسقطها ماكمايكل كلية. أما محققا «الذيل والتكملة» فقد أوردا كلا على حدة. وجبارة وجار النبي يردان في ادخال واحد عند محقق الطبقات. وهما كذلك عند مكمايكل. ولكن محققا «الذيل والتكملة» جعلاهما في ادخالين. وكذلك يفعل محقق الطبقات بجاد الشكري وجاد الله حوار الشيخ حمد. أما مكمايكل فقد جعل لكل ادخالا. وقد فعل محققا «الذيل والتكملة» نفس الشيء. ويذكر محقق الطبقات اسم النجمي بن حمد (رقم ٤٠) ولكنه لا يذكر له شيئا، وذلك لأن مؤلف الطبقات لم يثبت ترجمته. وقد حافظ المحقق بذلك على النص، وهذا تصرف علمي صائب. أما مكمايكل فقد ألغاه. أما الذيل والتكملة مخطوطنا فلا يبلغه لأنه يقف عند الميم.

ويلاحظ أن الذيل لا يضيف ترجمة من أغفلهم الطبقات من أعلام زمنه وقبل زمنه. وحتى عيسى الخزرجي الذي يدور كلام حول اغفال الطبقات له لا تستدرك ترجمته هنا مع أن المخطوط يترجم لابنه أحمد وينوه بفضله ويذكر أولاده وتلاميذه في مواضع كثيرة. ومن هنا يتبين أن تكملته ليست لاستدراك ما فات على الطبقات وانما لذكر ما جاء بعده.

والتراجم التي اضافها الراجز والشارح على ما اختصراه من كتاب الطبقات مختصرة جدا، ولا تزيد في المتوسط على الاربعة أسطر. وتكتفي بذكر اسم المترجم له ومن درس عليهم ولا تشير في الغالب الى مكان مولده - أو تاريخ وفاته - وعليه يصعب الإضافة الى مثل هذه الأخبار المقتضبة نتيجة عمل ميداني - ورأينا الابقاء عليه دون إضافة في الهوامش. ومستوى هذه التراجم أقل فائدة عن تراجم ود ضيف الله.

أما بعد، فان كتاب الطبقات سفر مهم، وقد جاء تحقيقه على يد الدكتور يوسف بمستوى رفيع، وفي يقيني ان هذا التحقيق وقاموس اللهجة العامية في السودان للدكتور عون الشريف هما اميز ما قام به جيلي في خدمة التراث.

احمد السلاوي: عالم مغربي مالكي في السودان

مقدمة:

في وقت لم تكن الحواجز القطرية، مثلما هي الحال الآن، تحول دون انتقال المسلمين في ارجاء بلادهم الواسعة، وفد أحمد السلاوي من المغرب الى مصر وعمل بها. ثم جاء الى السودان مع جيش اسماعيل الفاتح وعمل في سلك القضاء. وهذا اتاح له ان يلعب بدور فيما كانت الادارة المصرية تقوم به في مجال التعليم الديني والقضاء، وان يكون على صلة مباشرة مع علماء السودان وفقرائها. ولما كان السلاوي مالكي المذهب، مثل الغالبية الغالبة من السودانيين، في وقت كان فيه المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي، فان هذه الصلة اصبحت وثيقة وحميمة الى درجة بعيدة. وقد تزوج سودانية من بيت ديني، إضافة الى زوجته المغربية، واستقر نهائيا في السودان. وعبر السنوات قدم السلاوي خدمات جليلة في مجال القضاء والتعليم الديني، كما انه اخذ بيد علماء السودان ففتح لهم مجال الخدمة في القضاء وشجعهم على التأليف، وبذلك اضاف اسما لامعا بين المغاربة الذين خدموا الفكر السوداني من امثال حمد ابي دنانة ومحمد بن عمر مؤلف رحلة التونسي المشهورة، تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، وعبد العزيز المراكشي استاي احمد بن عيسى والتلمساني المغربي والتونسي الأب عمر.

بيد ان أخبار هذا العالم المهم في تاريخ الفكر السوداني ما زالت في شكل نتف ترد هنا وهناك ولم تجمع لتكون انشاء موحدا. ومن ثم يحاول هذا البحث متابعة البيانات الواردة عن السلاوي في المصادر والمراجع المختلفة وترتيبها لاستجلاء ما أمكن من التفاصيل والفوائد عن شخصه وعن نشاطه في السودان وما ادى من دور مهم في خدمة المجتمع السوداني. وقد اعتمدنا في ذلك بشكل رئيسي على كتاب ملوك سنار لأحمد بن أبي علي كاتب الشونة في تحقيقه وعلى ما اورده السلاوي عن نفسه في ذيل الطبقات.

حياته:

ولد احمد بن محمد بن ناصر بن محمد بمدينة سلا على شاطئ المحيط الأطلسي بجوار مدينة الرباط في صفر ١٢٠٦هـ (٣٠ سبتمبر - ٢٧ أكتوبر ١٧٩١م). وقد نسب الى موطنه على عادة اهل زمانه فلقب بالسلاوي. وقد كتب عن نفسه في الذيل والتكملة فقال انه في الاصل اندلسي من قرطبة، وانه من نسل الامام القرطبي، ذلك المفسر المشهور، وانه انصاري خزرجي.

وفي مدينة سلا حفظ القرآن وقرأ، على حد تعبيره في الذيل والتكملة، الأحكام والروايات وشيئا من العلم على استاذه عبدالله بن عيسى. ثم توجه الى مدينة فاس واخذ فيها من بعض رجالها. ويذكر السلاوي عن نفسه في الذيل انه تلميذ احمد بن ناصر الدرعي، من اهل درعة قرب سجلماسة ومن صلحاء المالكية في المغرب، وكانت له زاوية واتباع كثيرون. وله فتاوى في الفقه ومنظومة في الفقه المالكي. وقد توفي في ١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤. وفي ١٢٢٦هـ/١٨١١ رحل أحمد عن فاس متجها الى المشرق بنية الحج، إلا انه استقر بمصر وأخذ فيها من علمائها. وقد حج الى بيت الله في ١٢٢٩/١٨١٤. وفي عام ١٢٣١/١٨١٦ عين مفتيا على الفيوم بغرب مصر وبقي هناك لأكثر من عامين اتيح له فيها ان يضع بعض مؤلفاته.

ولما ارسل محمد علي باشا ابنه اسماعيل لفتح السودان عين ثلاثة علماء

ليباشروا اعمال الفتيا والقضاء للجيش. وقد اشار السلاوي الى ذلك في ترجمته وقال انه عين مفتيا. ويذكو نعوم شقير في تاريخه واقعة الحاق هؤلاء بالجيش دون ذكر صفة التعيين ثم يضيف أن الوالي اوصاهم بان يحثوا أهل البلاد على الطاعة بلا حرب بحجة انهم مسلمون وأن الخضوع لسلطان المسلمين واجب ديني، ومن هنا جاء التوهم بان مهمتهم كانت اقناع السودانيين بالأدلة الشرعية بضرورة التسليم. ولو كانت لهم مثل هذه المهمة لذكرها السلاوي. ونحن لا نسمع في اخبار الحملة ان هؤلاء قاموا بمثل هذه المهمة. وهكذا ننتهي الى ان مهمتهم، فيما تسنده الوقائع كانت الفتيا للجيش والنظر في قضايا الجنود والضباط، على نحو ما كان عليه الأمر في الجيوش الاسلامية. وحتى في المهدية كان هناك قضاة للسرايا العسكرية. والعلماء الثلاثة هم الشيخ احمد البقلي الشافعي والشيخ محمد الاسيوطي الحنفي والشيخ أحمد السلاوي المالكي، محور هذه الدراسة. وكان ضمن الجيش جملة كبيرة من المغاربة. ولذلك كان تعيين احمد السلاوي ليصاحب الجيش امرا منطقيا. وهنا نلحظ عدم تمثيل المذهب الحنبلي، وربما كان سبب ذلك انه لم يكن بالجيش عدد كبير من التابعين لهذا المذهب. وكانت الحكومة المصرية على المذهب الحنفي وهو مذهب يتبعه اهل العراق وايران والهند واليمن والشام وتركيا. وكان القضاء بمصر يقضي بتعدد المذاهب منذ ايام دولة المماليك البحرية، فلما جاء العثمانيون ابطلوا هذا النظام وجعلوا الحكم وفقا للمذهب الحنفي. اما المذهب المالكي فقد انتشر في بلادالمغرب والسودان وصعيد مصر. وكان الشافعية قليلين في مصر. وكانوا في السودان اقل من ذلك. وقد وافق مذهب السودان مذهب السلاوي لأنه كان مالكيا.

اسرته:

جاءت معه زوجة مغربية وهي ام اولاده مصطفى والشيخ ونفيسه التي تزوجها ابراهيم عبد الدافع ومنتهى التي تزوجها ولد حمدون وانجب منها محمد

حمدون من عمارة الجعليين وام هاني التي توفيت حوالي ١٨٥٧. ويذكر السلاوي انه تزوج ابنة الشيخ احمد الطيب البشير مؤسس الطريقة السمانية في السودان. وذكر حفيد علي الطيب بابكر السلاوي انه تزوج سودانيات ولكنه لم يذكر اسماءهن. وولده من السودانيات على ما ذكر علي هم بابكر وعبد الرحمن وابراهيم ومختار وعلي وعبد الغني وآخرون لم يحدد اسماءهم. وقد ذكر ان غالب عقبه في الخرطوم ومدني. وهناك عدد منهم في مدن اخرى. وكان منزل السلاوي بجوار جامع الخرطوم العتيق ـ جامع فاروق الآن ـ وكانت تجاوره عائلة نخلة التي كانت تربطه به علاقة وطيدة بالرغم من اختلاف الدين. وقد بيع هذا المنزل ما بين ١٩١٤ و١٩١٦.

وكان ابنه عبد الغني شاعرا، وكان مولده بالخرطوم في ١٨٢٢. وقد تولى القضاء بدنقلا. ولما جاءت المهدية شايعها. وله قصيدة في مدح المهدي اولها:

راق الصبوح ورقت الصهباء مذ كان فيها للعليل شفاء

وابنه مصطفى ولد بالخرطوم في ١٨٣٠، وكان عالما شاعرا. وقد تولى القضاء الا انه اتهم بالرشوة وبيع الوظائف القضائية لمن يدفع؛ وقد قبض عليه بسبب ذلك وسجن بمصر مدة. وبسبب قضيته هذه سجن ايضا ابراهيم عبد الدافع. وقد افرج عن مصطفى بعد مدة وعاد الى الخرطوم وبقي بها حتى اسر عند سقوط الخرطوم. وكانت وفاته بها في ١٨٨٧. وكان عقيما بغير ذرية.

وحفيده يحيى بن عبد الغني كان شاعرا ايضا. وقد هاجر الى مصر وشايع الثورة العرابية والف قصيدة في ذم الخديوي.

مؤلفاته:

وللشيخ السلاوي عدة مؤلفات، منها: رسالة الدر المنظوم في اسانيد سائر العلوم وشرح على عقيدة الرسالة في البسملة والحمدلة ولفظ بعد، وشرح

لمنظومة الحاج ابراهيم السوفلابي في احكام القرآن، وشرح للأربعين حديثا للنووي، وشرح لرجز ابراهيم عبد الدافع لطبقات اولياء السودان، ومختصر الطريقة المحمدية. وقد اشار كاتب الشونة الى مؤلفاته فقال «وقد شرح الأربعين النووية شرحا اطنب فيه وأجاد واختصر الطريقة المحمدية متنا وشرحا، والكل كان لم يعنوا به ما خلاه جاء به هناك من مؤلفاته» وقد بلغني ان جلة من مؤلفاته محفوظة بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة.

وقد وقفنا على توقيع له على حجة شرعية صدرت عن الفقيه محمد بن ارباب في ايام الفونج حول نزاع على ملكية ارض. وهذه الحجة محفوظة عند الشيخ احمد الأمين خليفة الشيخ خوجلي، وبدار الوثائق نسخة مصورة منها، الا أنها لم تضمن في كتاب الفونج والأرض. ويبدو ان الطرف المستفيد من الحجة قد عرضها على المحكمة المختصة بعد الفتح المصري حتى يعطيها الصفة الشرعية. وقد جرت العادة على عرض مثل هذه الحجج على كل سلطان جديد ليؤكد ويجدد مفعولها الا أن التأييد من النظام الجديد كان مهما بدرجة أخطر لأن الادارة المصرية قد لا تعمل بما سنه الحكم السابق له. يقول السلاوي: «الحمد لله وحده، أطلعت على هذه الوثيقة... (هنا كلام غير ظاهر) فوجدتها صحيحة المبتدأ مستقيمة المنتهى لا يخدش فيها قط ولا يعتريها شطط رحم الله اصحابها وجازى طلابها وقبلت لدى المحكمة الشرعية المطهرة المرضية بخرطوم سنار المحمية لدى متوليها السيد احمد افندي السلاوي قاضي بلاد السودان وفقه الله لكل احسان». ثم يرد ختم السلاوي الرسمي، وهو ختم صغير ذو اضلاع.

القضاء:

لما تم الفتح لاسماعيل باشا، عيّن محمد الاسيوطي الحنفي قاضيا للسودان وكان بذلك اول قضاة السودان في العهد التركي. وكان تعيينه مناصرة لمذهب الحاكم ومخالفا لمذهب البلاد. وفي نفس الوقت عين احمد البقلي مفتيا عاما بينما عين

احمد السلاوي مفتيا للمالكية. ولما توفي الاسيوطي في ١٨٢٣ خلفه في رئاسة القضاء احمد البقلي بينما خلف السلاوي هذا الاخير وصار مفتيا عاما. ثم عاد البقلي الى مصر وخلفه الشيخ ادريس، وهو سوداني، ولم يصلنا عنه الا قليل. اما السلاوي فقد عاد الى مصر صحبة محمد خسرو الدفتردار في ١٢٤٠هـ/ ٢٤-١٨٢٥. ثم جاء الى السودان مرة اخرى في ١٨٢٦ ليخلف في رئاسة القضاء الشيخ ادريس الذي توفي.

وظاهر من هذا التعاقب ان المكانة الاولى في مبدأ الأمر كانت للمذهب الحنفي، وهو المذهب الرسمي للادارة المصرية، ثم تولى القضاء عالم الشافعية الشيخ البقلي، ثم خلفه ادريس الذي لا نعرف مذهبه على وجه الدقة وان كان من المحتمل انه كان مالكيا. ثم جاءت النوبة للمالكية بشكل حاسم على يد السلاوي. ويبدو ان المصريين كانوا عندئذٍ قد اقتنعوا بجدوى قيادة القضاء برجل مالكي او انهم استكثروا أن يأتوا من مصر بقاض حنفي مع وجود البقلي ثم السلاوي قريب الصلة بالحكم. وقد ظل نجم السلاوي يصعد على الدوام، لا بصفته قاضيا فحسب، وانما بصفته مقربا الى الحاكم وذي مكانة عالية في النظام وفي المجتمع عموما. وقد أورد كاتب الشونة شذرات مهمة عن هذه المكانة. ومن ذلك قوله ان الحكمدار اسماعيل جاء ومعه القمران النيران احمد السلاوي قاضي بلاد السودان ومحمد البليدي مفتيها. ثم زاد: «وكلا منهما ذو باع طويل في جل العلوم». وفي اخبار سنة ١٢٤٨ ذكر: وفيها «ان السيد السلاوي حصل له القرب من ولي النعم (اي الحكمدار) والمزية التامة والقبول». وفي اخبار سنة ١٢٥٠ انه توجه ومعه ابراهيم عبد الدافع الى بربر ودنقلا في صحبة الحكمدار. ويبدو انه عهد لابراهيم عبد الدافع بمسئوليات كبيرة في القضاء، فقد جاء في مخطوط كاتب الشونة في اخبار ١٢٤٨هـ انه سلم «في تلك السنة وفيما بعدها المحكمة الشرعية الى الفقيه ابراهيم عبد الدافع والسيد محمد افندي المفتي فقام بها احسن قيام واتقنا ما خفي ودق من امورها على التمام». وقد بقي السلاوي في منصبه عالي القدر،

مرفوع المكانة، حتى توفي في ١٨٤٠.

ولقد جاء تنظيم القضاء على الوجه المصري من قضاء وفتيا وهيكلية للوظائف، وهنا نلاحظ ان هناك مفتيا للسودان على عمومه ومفتيا للمالكية بالتخصيص. وقد أضحى القاضي موظفا في الدولة بحقوقه وواجباته والتزاماته نحو النظام بعد ان كان القضاء حرا وتطوعيا في عهد الفونج والفور. وهذا ما احتج عليه المتشددون من امثال المهدي. وكان تطورا ذا دلالة تعيينه خريجي مدارس السودان في سلك القضاء. وقد عمل السلاوي لذلك بغير كلل.

ان الدور الذي قام به السلاوي في بناء القضاء في السودان وفتح المجال فيه للسودانيين كان دورا بارزا. وقد شهد له مؤرخ القضاء في السودان المرحوم حسين المفتي بالفضل الأكبر في تأسيس المحاكم الشرعية في العهد التركي.

صلاته بالمجتمع السوداني:

خلق السلاوي منذ وصوله الى السودان علاقات حميمة بعلمائه ورجال الدين عموما. وقد اشار كاتب الشونة، والذي كان على علاقة وثيقة به، الى هذه العلاقات فقال: وفيها ان السيد السلاوي « نفع في الديوان السيد الخاص والعام من مشايخ وفلاحين وحكامهم المومأ إليه من ارباب الديوان فرفع بكلمته كثيرا من بيوت الدين واراح جما من المسلمين، وهو صاحب كرم وسخاء وبذل وعطاء وصفاء نية، وله في اهل بيوت الدين رغبة واعتقاد، وكان لم يتعرض لأحد بسوء في الديوان، وربما كان قريب الرضا اذا غضب ».

ويشير السلاوي نفسه في مواضع كثيرة في شرحه لرجز عبد الدافع الى هذه العلاقات. يقول في ترجمته للشيخ احمد الريح: « وقد رأيته واجتمعت به سنة ١٢٣٦ حين قدومنا من المحروسة مع فاتح الاقطار السنارية وسألنا عن اشياء كثيرة في الفقه فأجبناه بعون الله فاستفادها وافادها ». وهو يذكر في

ترجمته للشيخ احمد الشنباتي ما يفيد اتصاله بتلاميذه، وذكر عن الشيخ دفع الله ولد مدني انه كان على علاقة حميمة به وروي عنه انه عندما مرض جعله وصيا على ابنائه ولما مرض صاحبه جعله هو وصيا على اولاده ايضا. وذكر عن الامين ولد حمدنا الله: «وبالجملة فما رأيت في بلاد السودان أحسن حالا من الفقيه احمد عيسى والفقيه الأمين هذا والفقيه محمد علي العباسي».

وفي ترجمة عبدالله بقوز ولد ضياب ذكر انه التقى به اثناء سفره الى التاكا. وقد ذكر احمد كريم فيمن اتصل بهم. وذكر عن الحاج ابراهيم السوفلابي انه اخذ عنه الإجازة وتلقى عنه اشياء وانه بإشارته وضع منظومة في أحكام القرآن.

وقد ذكر احمد عيسى وتكلم عن أولاده وتلامذته وذكر اتصاله به واثبت له الفضل بقوله: «وصار علمه منقحا مهذبا اكثر من علم ساير من انتسب للعلم في الجزيرة». قال ذلك في معرض ترجمته له. ثم قال في ترجمة عبد العزيز المراكشي: «وما انتفع عليه بمثل ما انتفع احمد عيسى فانه تخرج عليه ومنه تنقحت علوم السودان النقلية وظهرت العلوم العقلية».

وذكر في ترجمته للشيخ احمد الطيب البشير «ومما من الله به على اني تزوجت بعض بناته وربيت بعض أولاده، كل ذلك محبة فيه وقصدا للتقرب منه والتبرك به». وهو يقول في موضع آخر «واجتمعنا بأفاضلها - يعني - بلاد السودان وعلمائها وأعيانها وحصل بيننا وبينهم اتحاد كامل». ويقول ايضا: «ووليت جميع علماء الجزيرة مناصب الشرع الشريف في الأماكن المتفرقة وصار جميع علماء السودان ولله الحمد من تلامذتي واحبابي»، «وانه قام بعض منار الدين بالسودان وظهر اهل العلم به ظهورا تاما». ثم يذكر انه مثلما خدم احياءهم بعمله وتوجيهه خدم أمواتهم بوضع تراجمهم في شرحه لارجوزة عبد الدافع.

لقد توطن السلاوي في السودان وبنى علاقات قوية مع اهله. وقد شجع

الخلاوى وأعانها بمال الدولة، وأعطى إجازة العلم والتصوف لعدد من الناس، وذكر انه القى بعض الدروس على بعض الطلاب. وهو الذي شجع على انشاء مسيد ود عيسى امتدادا لمسيد كترانج العتيق. ويروى في ذلك انه كان يزور الفقيه ابراهيم بكترانج ايام الجمع قادما من الخرطوم ولكنه كان يجد مشقة في عبور النيل ولذا عرض على ابراهيم فكرة انشاء المسيد الآخر حتى تسهل عليه زيارته لهم فترك ابراهيم الفقيه احمد البدوي في كترانج ليدرس تحت اشرافه وانتقل هو الى المسيد الجديد. وقد شجع السلاوي تلاميذ احمد عيسى وعين جملة منهم في سلك القضاء كما عين علماء آخرين، وكان يفضل بعض أصحاب الطرق ويتقرب إليهم.

ترى لماذا قام السلاوي بكل هذا الجهد. بدءًا نقول انه المهمة الدينية والرغبة في خدمة العلم. ولكن هناك سبب ربما كان دافعه الاساسي. فالسودانيون يتبعون المذهب المالكي مثل السلاوي، وهذا بخلاف مذهب الدولة. وقد بذل المصريون جهدا كبيرا لاحلال المذهب الحنفي محل المذهب المالكي واشترطوا على المحاكم العمل بالمذهب الحنفي فقط. ويبدو انهم حاولوا ايضا ادخال الطرق الصوفية المصرية كالبدوية والدسوقية. وفي ظننا ان السلاوي واجه هذا الموقف تعصبا لمذهبه ومشربه فشجع علماء السودان على التحصيل والتأليف والوصول الى مناصب القضاء.

وقد وجد السلاوي جو التصوف في السودان مليئا بالخرافة والمبالغة في سوق الكرامات ـ الا ما كان عند القلة ـ ووجد العلم واقعا تحت تأثير هذا النمط من التصوف فشرع يعمل على تخليص التصوف من اثر الخرافة والمبالغة ووضعه في اطار الشرع وعلى تهذيب العلم وتنقيته ليكون في اطار الفقه الخاص. وكانت هذه هي مهمته الاولى لشرحه لارجوزة عبد الدافع.

وكان من اعماله الجليلة تشجيعه لبعض علماء السودان ليكتبوا ويؤلفوا. وهنا نذكر بالذات الحاج ابراهيم السوفلابي وأحمد ابو علي مؤلف تاريخ ملوك

سنار والزبير ود ضوه والامين الضرير وابراهيم عبد الدافع. هؤلاء ارتبطت اسماؤهم بمؤلفات محددة فعرفوا بها وربما كان هناك غيرهم ممن لم يرد ذكر مؤلفاتهم أو كانت جهودهم اقل. وكان هناك بغير شك قدر من الشعر والنثر كتبه السلاوي ومن كانوا على صلة به، وقد ورد بعض ذلك في تاريخ ملوك سنار.

اما ابراهيم السوفلابي فمن الحلنقة، وقال عنه السلاوي « وبالجملة فهو من أعلم من رأيناه بالحلنقة. وقد اخذ عنا الإجازة وتلقى عنا اشياء وله منظومة في أحكام القرآن نفيسة جدا». وكان السلاوي هو الذي اشار عليه بوضع هذه المنظمة، فلما اتمها قام بشرحها. وهذا ما فعل ايضا إزاء ارجوزة عبد الدافع.

أما احمد ابو علي فقد اشتهر بكتابه عن ملوك سنار واول الادارة المصرية وكان على صلة وثيقة بالسلاوي. وهذا ظاهر من اشارته اليه. وذكره اياه بالتوقير والاحترام. وقد ولد بقوز المسلمية قرب المسلمية في ١١٩٩/ ١٧٨٥-٨٤ حسب روايته، والتحق بخدمة الادارة المصرية بشونة الخرطوم في ٢ صفر ٢٦/١٢٤٠ أغسطس ١٩٢٤. وقد رفع عن الخدمة في ١٢٥٠/ ١٨٣٤. وبعد ذلك بأربعة أعوام أكمل كتابه. وقد جمع في اوله حصيلة الاخبار المروية لعهده عن سلاطين الفونج، وهذا ما فعله ايضا بأول الادارة المصرية ثم تتلو اطراف فيها مشاهداته الشخصية. وقد سار عموما على طريقة مؤرخي العرب وروى الأحوال حسب وقوعها سنة سنة. وقد روى كثيرا عن العلماء والفقراء والأعيان وذكر وفياتهم ومراثيهم. وها هنا يصور المؤلف العلاقة المتينة بينه وبين بعض هؤلاء وهي نفس علاقات السلاوي بهم. فهو يذكر آل عيسى الخزرجي بتوقير، اشار الى وفاة احمد بن عيسى ورثاء السلاوي ورثاء ابراهيم عبد الدافع ورثاء شاعر آخر من تلاميذ احمد بن عيسى، وذكر ابراهيم ابنه ونوه بما ناله ودعا له. وهؤلاء كانت لهم علاقة متينة بالسلاوي. وذكر وفاة احمد بن الطيب واورد رثاء ابراهيم عبد الدافع له. وذكر ابراهيم عبد الدافع « ولي في مدته (محوبك) العمدة الفاضل الفقيه

ابراهيم عبد الدافع». وفي معرض من ماتوا من «الاجلة الاخيار» في ١٢٤١ ذكر رثاءه لهم. وذكر ما تعرض له اولاد خوجلي ونقل طرفا من توسل ابراهيم عبد الدافع الذي كتبه بهذه المناسبة. وفي مكان يذكر ان الله مَنَّ عليه «بقدوم ابن الاطايب الاكرمين الشيخ عبد الرازق من ابي حمد بالريف وكتب لنا كتبا، وهو ذو خط جميل». وهو فيما يذكر مؤلف كتاب الشمائل. ويذكر محمد المجذوب بن قمر الدين بن احمد ابو دقن وينسب إليه تأليف شرح للشمائل ومؤلفات أخرى.

ولما اتم كاتب الشونة تولى مراجعته ثلاثة من الجماعة نفسها وهم الزبير ود ضوه وابراهيم عبد الدافع والأمين الضرير. وعلى اثر هذه المراجعة وقع الاختلاف بين نسخ المخطوط على نحو ما فصله المرحوم مكي شبيكة في مقدمته الممتازة للمخطوط. ورغم انه ليست هناك إشارة مباشرة تثبت ان للسلاوي علاقة بتأليف المخطوط ومراجعته فان الظروف المحيطة بعلاقات المؤلف والمراجعين وتشجيع السلاوي في مجال العلم توحي بأنه كان وراء هذا المؤلف المهم.

ثم تأتي الى مجال تتضح فيه جهوده في التأليف والحث عليه بشكل واضح وثابت وهو وضعه بالاشتراك مع ابراهيم عبد الدافع رجز الأولياء وشرحه والذي نشر باعتباره ذيلا للطبقات وتكملة له.

ولد ابراهيم بن محمد بن عبد الدافع بحلفاية الملوك. وكان جده عبد الدافع ممن ترجم لهم ود ضيف الله في طبقاته. وهو من الجموعية، وقد ورد ملخص هذه الترجمة في هذا الكتاب. وهذا شاهد على مكانته الدينية والعلمية. اما ابنه محمد فقد وصفه السلاوي عند كلامه عن ابنه ابراهيم بأنه «كان فقيها قارئا للقرآن»، وقال ان امه ابنة الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن المشهور. وقد حفظ ابراهيم القرآن بمسجد الشيخ عبد الدافع ثم التحق بمسيد ود عيسى بتكرانج وقرأ على الشيخ محمد الجبيلي. وقد زامل بهذا المسيد عددا من العلماء الذين

اشتهروا في العهد التركي. ويبدو من الحوادث المتصلة بحياته ان علاقته كانت وثيقة على الخصوص بالشيخ الأمين الضرير ود ضوه واحمد ابو علي كاتب الشونة مؤلف كتاب تاريخ سنار وآل السلاوي وزملائه في مسيد كترانج. وقد رثى محمد النور ود ضيف الله صاحب الطبقات مما يعني الصلة الوثيقة به. كذلك رثاء استاذه احمد بن ابراهيم ود عيسى. وكانت علاقته باولاد الشيخ خوجلي، وهم أخواله، على ما يبدو من استغاثته بعد سجنه، علاقة حميمة. ولما جاء السلاوي تتلمذ عليه ابراهيم وتوثقت صلته به. وقد روى السلاوي في ترجمته له انه اجازه بجميع مروياته ومؤلفاته. وقد تعهده السلاوي وساعده كثيرا وشجعه على التأليف. ثم زوجه ابنته نفيسة التي ولدت له عقبا كثيرا.

وقد تبوأ منصب نائب الشرع، وهو ما يوازي في رأي الدكتور مكي شبيكه قاضي مركز وحاليا قاضي مقيم، في أول ١٢٤٢هـ (أواخر ١٨٢٦م)، وصار مفتيا في أول ١٢٥٥هـ (أواخر ١٨٣٩). وفي سنة ١٢٧٠هـ (٤ اكتوبر ١٨٥٣- ٢٣ سبتمبر ١٨٨٤م) قبض عليه وارسل مسجونا الى مصر لتورطه في بعض ما أثير حول مصطفى السلاوي واتهامه بالرشوة. وبالسجن كتب استغاثته المشهورة. ثم أفرج عنه في ١٢٧٧هـ (٢٠ يوليو ١٨٦٠- ٨ يوليو ١٨٦١). وقد توفي في ١٨٤٤ ودفن في جنوب حلفاية الملوك[1].

وكان ابراهيم عالما وشاعرا. وقد أورد الشيخ احمد ابو علي في تاريخه جملة من شعره - الا ان الزبير ود ضوه اسقط هذا الشعر في تهذيبه كما اسقط جملة من الكرامات التي يرويها الشيخ أحمد لبعض الأولياء. وقد جمع حفيده الاسد شعره بنية نشره وبذل في ذلك جهدا طيبا الا انه لم ينشره بعد. ويذكر السلاوي في ترجمته لابراهيم اعتناءه بكتب الحديث كالفاء والمواهب وصحيح

---

(١) اعتمدنا فيما ذكرنا عن ابراهيم عبد الدافع على الطبقات ومقدمة الدكتور مكي شبيكة في تاريخ ملوك السودان، وبحث البروفسير عز الدين الأمين عن قرية كترانج، وترجمة السلاوي له في الرجز.

البخاري وكان من انتاجه بخلاف هذا الشعر تهذيبه لتاريخ كاتب الشونة وما اضافه إليه.

ولقد اتفق السلاوي وابراهيم عبد الدافع على ان يعرضا طبقات ود ضيف الله بصورة تتفق مع مزاج السلاوي الصوفي واتجاهه الفقهي، وذلك الاتجاه الذي يبعد عن الخرفة والمبالغة في تصوير الكرامات والإفاضة في ذكر الصفات والنعوت ثم إضافة ذكر من ظهروا بعد تأليف الطبقات. ويبدو لنا ان هذا العمل كان متصلا بتأليف كتاب تاريخ ملوك سنار لأن احمد كاتب الشونة قد اهتم بذكر عدد من الشعراء والعلماء الذين ظهروا بعد الطبقات وبإيراد جملة من شعرهم. وظاهر ان هذا الجهد تكملة لعمل صاحب الطبقات. وطالما ان هذه التكملة نفسها كانت احدى مهام المؤلفين في هذا السفر فاننا نستطيع ان نفترض ان وضع اختصار الطبقات قد جاء بعد وضع كتاب ملوك سنار. كذلك نستطيع أن نقول من واقع اسقاط الزبير ود ضوه في تهذيبه لتاريخ سنار لهذا الجانب، وهو اسقاط يجاريه فيه ابراهيم في تهذيبه ايضا ان السلاوي وابراهيم كانا عندئذٍ قد شرعا في وضع مختصر الطبقات او على الاقل قد فكرا في وضعه. وكان احمد ابو علي قد بدأ كتابه قبل ١٢٥٠هـ، وقد فصل في هذه السنة من منصبه بعد ان قطع شوطا كبيرا من كتابه، وكان كماله بعد هذا التاريخ بقليل. وقد انتهى الزبير من تهذيبه في منتصف ١٢٨٠هـ. وقد سجن ابراهيم في مصر بين ١٢٧٣ و١٢٧٧، ولكننا لا نعرف متى وضع تهذيبه. وقد توفي السلاوي في ١١٨٤٠الموافق ١٢٥٥/١٢٥٦هـ. ويمكن ان نقول من هذا ان تأليف هذا السفر قد بدأ بعد فراغ احمد ابو علي من كتاب ملوك سنار وقبل بداية الزبير لتهذيبه. ومن هنا نعلم لماذا الغى الزبير سيرة الاولياء في تهذيبه، اذ رأى ان السلاوي وابراهيم قد قاما بها. كما ان هذا يؤكد الصلة بين السلاوي وبين تأليف كتاب ملوك سنار.

وقد كانت مهمة التهذيب للطبقات مهمة عسيرة. اولا لأن الناس يتهيبون الكلام في سيرة الناس وقد كره ذلك بعضهم لما انه نوع من الغيبة، وبعضهم

كره خوف الشطط والخطأ. وكان الكلام عن رجال الدين وسيرهم اقوى مدعاة للخوف والتهيب، ويبلغ التهيب درجة ابلغ اذا ما كانت المهمة اختصارا لما ألفه الغير في السير. وقد تفادى السلاوي وصاحبه هذا الحرج عن طريق الرجز. فابراهيم يضع من أوردهم ود ضيف الله ومن يراد اضافتهم في رجز ثم يقوم السلاوي بشرح الرجز. وهكذا لا يكون الكلام اختصارا يحملان مغبته وانما هو رجز وشرح لرجز. اي ان الحرج من المراجعة المباشرة للطبقات قد دعاهما الى سلوك سبيل الرجز وشرحه.

وفي مبدأ الامر وضعا من ذكرهم الطبقات في قائمة ثم نظرا في ترتيبهم فعدلوا في هذا الترتيب كثيرا لانهم اعتمدوا على الاسم اضطرابا بينما اعتمد الطبقات في بعض الحالات اسم الشهرة واللقب. وهكذا نجدهما يقدمان ويؤخران في التراجم حسب الترتيب الهجائي للمترجم لهم. وقد جاء ترتيبهم - وان كان يشوبه الاضطراب في بعض المواضع اكثر التزاما لترتيب الاحرف من ترتيب الطبقات للتراجم. ثم وضعا قائمة بمن يراد ذكرهم من العلماء الذين ظهروا بعد تأليف الطبقات، وذلك حسب التتابع الهجائي. وقد اضيف كل الى حرفه بعد قائمة من في الطبقات. وقد اشار الى هذه المواضع بلفظ زيلن زيد وما إليهما من التعابير الدالة على الإضافة. وهنا نلاحظ انهما لم يضيفا الى من ذكرهم الطبقات في عهده او قبله احدا وانما جاءت الزيادة من الفترة اللاحقة له وحتى عيسى الخزرجي الذي احتج الاستاذ عز الدين الامين على عدم ذكره في الطبقات لم يترجم له. وفي تقديرنا ان الاستاذ عز الدين قد بالغ في هذه القضية. ومما ورد يمكننا ان نقول ان مهمتهما لم تكن مهمة استدراك الفوات وانما كانت اختصار من ذكروا وإضافة من ظهروا بعد الطبقات. ومن الملاحظ ايضا ان بعض من جاء بهم كانوا من الاحياء. وقد فعل صاحب الطبقات نفس الشيء عندما اورد ترجمة الحسن بن صالح بان النقا.

قلنا ان السلاوي اراد ان يهذب الطبقات. وقد فعل ذلك بتهذيب لغته

وتنقية مادته. اما في اللغة فقد حاول ان يضع بعض الكلمات والاسماء السودانية في صياغة فصيحة. ففي ترجمة دفع الله ولد مقبل قال اهل انقاوى مع ان الطبقات يقول ناس انقاوى. وهو يريد بذلك ان يستبدل كلمة ناس بكلمة اهل طلبا للفصحى. وقال في ترجمة عبدالله شيخ النويري ظهرة سنار عوضا عن ضهرة سنار في الطبقات. وكذلك الحال بظهرة اربجي بدل ضهرة اربجى. وهو يقول ام عظام بل ام عضام. وهنا ايضا يحول ضهرة الى ظهرة. وعند الكلام عن عيسى ولد سكيكين يلغي لفظ الدرب ويضع بدله الطريق. وفي ترجمة عبدالله الحلنقي يقول البحر المالح بدلا عن البحر المر في الطبقات. وفي ترجمة مازري التنقاوي يقول الطبقات بعامية السودان: وحات الله وحات الرسول. ويغير السلاوي ذلك إلى: وحق الله وحرمة الرسول. وفي ترجمة البهاري ومواضع اخرى يقول التلامذة بدل الحيران في الطبقات. وفي قصة صالح بان النقا يذكر السرير بدل العنقريب، وفي قصة عبد الرحيم بياع المطر ذكر نفس الشيء ثم قال الكرسي بدل البنبر.

وهناك تصرف من نفس القبيل حيال بعض الاسماء السودانية. فالاسم أمونة يحول الى الاصل فيقول آمنة. ومريوم يصير مريم. وابزيد في ترجمة ازيد عبد القادر يحول الى ابو زيد. واللعيسر واللغير يصيران الاعسر والاغير. والاصل فيهما ان الاول تصغير الاعسر والثاني تصغير الاغير، وقد اعادهما السلاوي الى اصليهما تفاديا للنطق السوداني العامي. والالفاظ حمدتو وارقو وشمو تصير حمدت وارق وشم، وذلك بالضمة بدل الواو. وهناك تعديل بحسب الـوزن نحو عابد الرحمن وعابد الوهاب. وهناك تحويل عبد الرازق الى عبد الرزاق وعلى اضطراد، وهو تحويل لا نجد له سببا.

وهناك تعديلات أهم مما ذكرنا وهي تعديلات تدل على مشربه واتجاهه الفكري.

ففي ترجمة ادريس ولد الارباب الغى تفاصيل الخلاف حول تحريم الدخان

واباحته واكتفى باثبات موقف ادريس منه. وربما كان ذلك لأن تفاصيل الخلاف لم تكن مهمة عنده. وفي نفس الترجمة ايضا الغى ما ذكره الطبقات عن دخول ادريس مدينة سنار مع بان النقا الضرير وكيف انه عالج ام الملك عمارة من مرض بينما فشل بان النقا في ذلك. وهذه الواقعة مهمة لانها هي التي رفعت مكانة ادريس في بلاط الملك ومهدت لشهرته. غير ان السلاوي يلغيها لأنه لا يؤمن بسر الفقرا في علاج المرضى. وفي كل موضع يجعل فيه الطبقات شخصا في درجة القطبية نرى السلاوي يلجأ الى الغاء هذا الوضع او تعديله بما يناسب.ففي ترجمة ابي دلق ذكر الطبقات تلاميذ عبد الرحمن بن جابر الذين بلغوا درجة القطبية، ولكن السلاوي يقول بدلا عن ذلك التلامذة العظام تفاديا لاثبات درجة القطبية لهم، لان القطبية درجة عظيمة لا ينالها الا الأقل من القليلين. كذلك يتفادى نفس اللفظ في ترجمة يسن ابي ونيسة ويقول بدلا عنه الفحول.

وفي ترجمة ترجم قال الطبقات ان الناس يحلفون عليه فمن كان كاذبا يضر. اما السلاوي فيقول بدلا عن ذلك فمن كان كاذبا خيف عليه. والفرق انه لا يريد ان يثبت ان الولي او الميت يضر او ينفع، ولكنه الخوف من قبل الأحياء فقط. وفي ترجمة ادريس ولد الارباب يلغي قول الطبقات: الشيخ الامام حجة الصوفية، ويقول بدلا عنه: الولي الصالح، ثم يلغي قوله: منقذ الهالكين مظهر شمس المعارف بعد غروبها. ثم حذف كل مبالغة لعلمه واسراره. وعند الكلام عن حمد النحلان، وهو جد الدكتور حسن الترابي، يلغي قصة مهديته، وربما كان ذلك لأنه يرى ادعاءه للمهدية لغوا. وعند الكلام عن ولد جابر يقول الطبقات: الذين عليهم نظام الدنيا والدين، وقد حذف السلاوي ذلك، لما ان ذلك يضع ارادة الإنسان صنوا لإرادة الله. وعند تعرضه لفسخ جلد القاضي دشين في ترجمة محمد الهميم والذي يروى على انه استجابة لدعاء الهميم عليه عندما منعه من جمع الاختين انتصر السلاوي للقاضي وبرر موقفه بقوله: « إن فسخ جلد القاضي له موافقة ومجانية، وذلك

انه غار على ظاهر الشرع الزين من ان يحصل له أدنى شين فحمله باتباع الشريعة الغرا وابقا ما وافقها وفسخ ما خالفها فزين الله جسده بان فسخ جلده الظاهرة التي تكررت وجعل جسمه تبرا لامعا كنور قلبه»، وهو تبرير سخيف كما ترى. الا ان المهم هو ان موقف هذا القاضي إزاء الخروج عن حدود الشرع هو نفس موقف السلاوي إزاء الخرافات ومبالغات الصوفية.

لقد نظر السلاوي في الطبقات نظرة عالم فقيه وهذبه، وهذب لغته ورفع مستواه الى اللغة الفصحى، ونقح موضوعه فاسقط ما كان مبالغا وما كان خارجا عن المعقول وما كان بعيدا عن الاسلام ـ وله الحق في ذلك، لأنه لا يحقق الطبقات وانما يعرض مادته عرضا جديدا.

أما عن البناء نفسه فقد سار على منوال الطبقات الا ما كان من دواعي التلخيص والترتيب. وهو يقول عن الترجمة انها تعريف الاسم بما هو مشهور، اي انه لا يسوق ترجمة منضبطة حسب تسلسل محدد وابراز جوانب محددة لحياة المترجم له على النحو الذي توضع به التراجم الآن، وانما يعني بالتركيز على خبر او حادث او كرامة او امر اشتهر به صاحب الترجمة. وهو نفس الخط الذي يسير عليه صاحب الطبقات. ولذلك ليس صوابا ان نقول ان ما ورد هنا وما ورد في الطبقات تراجم. والطبقات لا يذكر عادة تاريخ الالف في التواريخ وهو قليلا ما يذكر تاريخ المائة والمائتين. وقد جاراه في ذلك السلاوي.

ثم يلغى السلاوي الأبواب في المواضع التي قسم فيها الطبقات كلامه الى ابواب نحو ترجمة ادريس ولد الارباب ويجعل كلامه وحدة متصلة. وهذا من دواعي التلخيص. وهو يتكلم على الآباء والابناء والتلاميذ في معرض الكلام عن ترجمة شخص مهم اذا كان هؤلاء من غير المشهورين، اما اذا كان احدهم مشهورا فانه يفرد له ترجمة. وعند تعرضه لمن ترجم لهم الطبقات لا يضيف شيئا من معلوماته وانما يقف في حدود التلخيص لما ذكره الطبقات.

ولذلك كانت مهمته في هذه الطرف مهمة تلخيص وتهذيب وتنقيح. وقد لاحظنا عند قراءة المتن ان تلخيصه مخل في بعض المواضع.

هكذا أسهم السلاوي في خدمة القضاء والعلم والعلماء وبيوت الدين في السودان ويضحي من حقه أن يحتل مكانه في تاريخ الثقافة في السودان.

مخطوط في تاريخ مؤسس الختمية

الإجابة الابانة النورانية في شأن صاحب الطريقة الختمية مولانا السيد محمد عثمان الختم(*)

هذا مخطوط أثري قيم يتعرض فيه مؤلفه في شيء من الدقة والتفصيل، الى موضوع يعد من اخطر فصول تاريخ السودان الحديث، وهو ظهور الطريقة الختمية وانتشارها في السودان. وقد ظل هذا المخطوط منذ ان وضع بمدينة سواكن حوالي سنة ١٨٩٠ محصور الانتشار ولا يكاد يصل إليه الا القليل من الناس. وقد كان سروري عظيما اذ وقفت عليه لأن البيانات الميسرة عن تاريخ هذه الطريقة وزعمائها ظلت، رغم طول عهدها في السودان والأدوار الخطيرة التي لعبتها في حياتنا الروحية والثقافية والسياسية، شحيحة الى درجة بعيدة ولا يغري الباحث بالبحث والدرس. وقد وفد الى بلادنا منذ سنوات طالب من امريكا ليعد اطروحة عن هذه الطائفة ولكنه لم يجد من المعلومات المدونة إلا القليل. ثم وفد وافد آخر من الباكستان لنفس الهدف واحسب ان حظه لم يكن اسعد من حظ صاحبه الآخر. ووفد ثالث من العراق ليضع اطروحة، ولكنه عاد ادراجه لأنه لم يجد ما يشجعه على المضي قدما. وهكذا ترى رغبة

(*) الإبانة النورانية في شأن صاحب الطريقة الختمية، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم، تم طبعه ونشره في دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

مؤكدة لدراسة تاريخ الختمية وترى الانصراف عنها لشح المعلومات المدونة المتداولة.

وقد ظلت حركة المهدية في عصريها القديم والحديث مائدة مفتوحة للمؤرخين وسائر المهتمين بالعلوم الإنسانية وظلت مصادرها متوفرةوميسرة لكل من يريد. واحسب ان موضوعها ومستوى الدراسات حولها بلغ شيئا من الكمال في وقت وجيز. اما موضوع الختمية وغيرها من الطرق وسائر الطوائف الدينية فسيظل بعيدا عن الدراسة الجادة طالما بقيت مصادره بعيدة عن متناول الباحثين. وبالطبع فان هذا يؤثر تأثيرا بالغا على مجرى الدراسات وما تصل إليه من مستوى. لأن مؤرخ تاريخ السودان الحديث لا يبلغ شيئا يرضيه ما لم يتح له النظر في الطرق وعلى رأسها الختمية وتقييم ادوارها في التاريخ. وانما كان لهذا الأمر هذا القدر من الخطورة لان هذه الطرق ليست منظمات دينية صرفة تحصر كل نشاطها في مجال الدين والتعبد وانما هي روابط لها مكانتها في تكوين المجتمع و لها دورها في السياسة وكل وجه من اوجه حياتنا.

والمخطوط الذي نتعرض له في هذه الدراسة يعتبر في نظري مصدرا اساسيا لموضوع الختمية واحسب ان الدراسة الجادة لهذه الطائفة ينبغي ان تبدأ به. فهو يعطي معلومات كثيرة عن مولد هذه الطريقة واستقلال صاحبها بها عن استاذه احمد بن ادريس ثم ما جرى من محاولات على يد السيد محمد عثمان موفدا من قبل استاذه في الحبشة واقاليم البحر الاحمر الجنوبية وصعيد مصر ثم السودان، وهو يعطي تفاصيل كثيرة عن الذين اخذوا عنه في اصقاع السودان المختلفة، كما يهتم بالجوانب الفكرية من نشاط السيد محمد عثمان ويفرد لها فصلا كاملا. وفي الكتاب معلومات لا بأس بها عن علاقة الختمية بالطريقة المجذوبية كما ان هناك إشارات، وان كانت مقتضبة، عن علاقة السيد محمد عثمان بالحكام الذين حل بديارهم كالملك مساعد في كردفان وسلطان سنار وملك الحبشة. ويجد المرء روايات مبعثرة عن بعض رجال الدين في السودان ممن التقى بهم السيد محمد عثمان كبعض فقراء المجاذيب وكالشيخ ابراهيم

بقادي بالجزيرة، ولكن يؤخذ على الكتاب انه لا يتعرض الى الإطار العام لقضايا التبشير والخلاف بين السيد محمد عثمان واترابه. فهو، مثلا، يسكت سكوتا تاما عن الكلام حول العلاقة بين السيد محمد عثمان والشيخ محمد علي السنوسي وما كان بينهما من خلاف بعد وفاة الشيخ احمد ونزاع حول الخلافة. كذلك يسكت الكتاب عن ابناء الشيخ احمد وما كان من امر الادريسية بعد ان استقل عنها الختمية. ويبدو لي ان هذا النقص لم يكن دافعه الغفلة او شيء من دواعي التصنيف وانما كان سببه الحرص على عدم التعرض الى المواقف الحساسة ومواضع الخلاف بينهم وبين تلامذة احمد ادريس الا ما كان متصلا بموقفهم في شرق السودان وما كان بين السيد محمد عثمان وبعض اتباع الشيخ محمد المجذوب الصغير بسواكن، واحسب ان الظروف المكانية والزمانية وتأليف الكتاب في سواكن نفسها ولسلطاتها الرسمية هي التي دعت الى هذا الاستثناء.

وقد وقفت على نسختين خطيتين من هذا الكتاب. اما النسخة الاولى فقد احضرها لي قطب من اقطاب الختمية[1] واذن لي بتصويرها ودراستها. وكان هذا القطب قد وعدني بهذا الكتاب وعدد آخر من المصادر في أواخر ايام عهد عبود الا ان الفرصة لم تتح الا منذ عهد قريب. والحالة المدنية لهذه النسخة طيبة وهي كاملة الصفحات الا انها منقولة في كراس عادي لا يليق بأهمية الكتاب وخطره. واصل هذه النسخة مأخوذ عن نسخة يرجع تاريخها الى ١٩٥١م، وهو تاريخ بعيد عن زمن كتابتها. ومع هذه النسخة نسخة خطية بنفس القلم لكتاب النفحات المكية واللمحات الميرغنية في شرح اساس الطريقة الختمية للسيد محمد عثمان الميرغني الكبير وهو يعتبر من اوفى المصادر التي تعرضت الى اسس الطريقة وتكوينها العام.

أما النسخة الثانية فقد احضرها لي احد افراد اسرة بادي ببارة. وهي

(١) هو السيد محمد عبد الجواد.

اسرة لها مكانة عظيمة لما كان يربط بينها وبين السيد محمد عثمان من ود حميم، وقد كان جدهم الفقيه محمود بادي ممن تلقوا الطريقة على يديه، ثم تزوج السيد محمد عثمان بنت اخته السيدة رقية بنت جلاب وانجب ابنه السيد محمد الحسن. ولما جاءت المهدية تولى عدد من افراد هذه الاسرة الكتابة للامام المهدي والخليفة عبدالله ولعبوا دورا مهما في ديوان الانشاء. وقد تولى خليل بن محمود هذا ادارة المطبعة الحجرية منذ سقوط الخرطوم حتى نهاية المهدية. ونسخة بارة اقدم من النسخة السابقة واقرب منها إلى الاصل وخطها خط جميل وورقها من ورق الجابو الابيض السميك الذي كان شائعا في التركية والمهدية. وقد سقط منها عدد كبير من الصفحات، وهي ما يقابل الصفحات التالية في النسخة الاولى: ١-٧، ١٢-١٣، ٢٩-٣٣، ٤٩-٩٠، ١٢٦-١٢٩. ومع هذه النسخة عدة صفحات متفرقة مكتوبة بنفس الخط وعلى نفس النوع من الورق وهي اجزاء من كتاب آخر يتصل بموضوع الختمية.

والكتاب يتكون من مقدمة واثنى عشر فصلا. وقد تعرض المؤلف في المقدمة الى ظروف تأليف الكتاب والى خطته في التأليف ومنهجه الذي سار عليه. ولعل اهم ما في هذه المقدمة الفقرة التالية:

«انه تكررت الاستفادة من ارباب الحكومة السنية بمحافظة سواكن البهية شفاها المرة بعد المرة عن الابانة لشأن الاستاذ الاكرم والملاذ الاعظم السيد محمد عثمان ختم اهل الله الكمل المكي الميرغني صاحب الطريقة وميزاب العلوم اللدنية، وذلك الطلب عن بيان أحواله وطريقته وذريته وغير ذلك، فصارت الافادة لهم عن ذلك بكلمات مختصرة مجملة، فلم يحصل الاكتفاء بذلك حتى ورد بعد ذلك سؤال من قاضي الاسلام يومئذٍ بمحافظة سواكن مولانا الشيخ ابراهيم عبد السميع، واعرض اولا هذا السؤال على خليفة خلفاء الاستاذ الأكبر يومئذٍ بسواكن المذكورة الخليفة محمد الصافي الملقى بهذا من الاستاذ المومأ إليه، فاحضر السؤال المذكور، وهو هذا المقصود ممن له اطلاع على تاريخ الأستاذ من ببندر سواكن وهما السيد محمد عثمان تاج السر بن السيد

محمد سر الختم والسيد علي نجل السيد محمد عثمان بن الاستاذ محمد الحسن وبعضا من الخلفاء، فاتفق الحال على استحسان الإجابة عن هذا السؤال المذكور، وهو هذا المقصود ممن له اطلاع على تاريخ الاستاذ من خلفاء وغيرهم ان يفيدوا بعبارة واضحة سلسة عن مفصلات تاريخه واحواله وبداية تربيته بأن يبدأ أولا بتاريخ ميلاده والبلد الذي ولد به والأحوال التي تربى فيها ومن قام بتربيته الى ان طرأت عليه الأحوال التي ساقته الى اخذ الطريقة عن السيد احمد بن ادريس وكيفية سيره في منازل التربية الى ان اذن له بالارشاد وحضر الى اقليم السودان وتاريخ حضوره إليها والبلدة التي حضر إليها ومدة مكثه فيها والوقائع والأحوال التي وقعت له فيها على التفصيل، وهكذا نذكر فيه تنقله في بلاد السودان بلدة فبلدة على الترتيب وايضاح التاريخ وبيان المدة والأزمنة التي لبث في كل بلدة الى ان ينتهي الى آخر بلدة حضر إليها، ويوضح مع ذلك نبذة في احواله الشخصية مثل ملابسه ومآكله واخلاقه وكراماته وما اشبه».

تصف هذه الفقرة ظروف تأليف الكتاب وصفا طيبا وتبين اهداف المؤلفين وخطته التي وضعها قبل ان يبدأ مهمته، وهذا اتجاه كان له اثر في ترابط أجزاء الكتاب وحصر أطرافه في موضوع واحد. ويهمنا ان نلاحظ، بعد ذلك، ان الكتابة عن السيد قد جاءت بعد رجاء والحاح من ارباب الحكومة التركية، او من موظفي الادارة المصرية في سواكن بوجه ادق، وان السادة المراغنة تجاوبوا مع هذه الرغبة واولوها أهمية بالغة وانهم اعدوا في أول الأمر كلاما مختصرا ثم وضعوا هذا الكتاب المطول بعد ان تكرر الرجاء. وهذا الكلام المختصر لا يعرف له مكان الآن ولكننا لا نستبعد وجوده في المكتبات الخاصة في السودان او في دار الوثائق المصرية. وهو على اي حال لا يقدم في القضية كثيرا ولا يؤخر هذا المطول الذي وضع بعده يغنينا عنه. واهم من هذا ان نص الفقرة لا يفيدنا بشيء من الدقة عن مصدر الطلب وسببه: هل جاء الطلب من رجال الدولة ولغرض من اغراض الدولة وشأن

من شئونها ام لاعتقاد بعض الموظفين ورغبتهم في الانخراط في سلك الطائفة. غير ان الرجاء المتواصل من قبل هؤلاء الموظفين واهتمام السادة المراغنة بالأمر وتعهد عدد من عليتهم قد يوحي بأن وراء السؤال هدفا من أهداف الإدارة. وقد يبدو هذا الأمر غريبا إذا ما نظرنا إليه في إطار العلاقات الودية بين المراغنة وبين الادارة المصرية ولكن تجربة الطريقة السمانية وحركة الإمام المهدي التي تفرعت عنها كانت كفيلة بخلق جو من الشك او الريبة حول المنظمات الدينية التي لها سلطان على النفوس.

وفي الفصل الاول تعرض الكتاب الى الفترة الاولى من حياة السيد محمد عثمان وهي التي تنتهي بقدومه الى السودان. لقد ولد السيد في الطائف ثم فقد والديه وهو صغير وتربى في كفالة عمه السيد ياسين الذي لم يكن له ولد. ولما كبر اتجه إلى العلوم النقلية ثم انصرف الى التصوف وظل ينتقل من شيخ الى آخر ويأخذ من هذه الطريقة وتلك حتى بلغ مرحلة النضج وهو مع استاذه احمد بن ادريس عن طريقته ثم كون طريقته الخاصة. وهو يعتبر هذه الطريقة خلاصة طرق خمس يرمز إليها بنقشجم، وهي النقشبندية والقادرية والشاذلية والجنيدية والمرغنية. والاخيرة هي طريقة جده عبدالله الميرغني. اما الاولى فهي اكثرها تأثيرا واوقعها اثرا. وقد اشار السيد محمد عثمان نفسه في كتاب النفحات المكية الى مبلغ نفوذ هذه الطريقة فقال ان طريقته تحتوي على اسرار هذه الخمسة يقصد الطرق الخمس التي أشرنا إليها «وبعض اورادها لكن الأكثر هو النقشبندية وامدادها ولذا اعتمدنا في إجازاتنا على ذكر اسانيدها».

على ان أعظم مؤثر في تكوينه هو شخصية الشيخ احمد بن ادريس الفاسي الذي اتخذ مكة مركزا لدعوته. وقد كان ابن ادريس مجددا عظيما وصاحب مدرسة في التصوف. وقد اخذ عنه السيد محمد مؤسس الختمية الذي يدور كلامنا حوله والسيد محمد علي السنوسي مؤسس السنوسية والشيخ الرشيد زعيم الطائفة الرشيدية. اما علاقة محمد المجذوب مجدد المجذوبية به فكانت محبة

وصداقة ولم تكن تلمذة او انتسابا. وقد تميزت مدرسة ابن ادريس بالإيجابية والاهتمام بالفكر ومن ثم كان توافق الوهابيين معها ومهادنتهم لها ـ الى حد ما ـ بينما هاجمها مقلدة علماء مكة. وقد اهتمت هذه المدرسة بالتبشير الاسلامي وارسلت الوفود الى بلاد افريقيا الشرقية كالحبشة والسودان.

وفي هذه الفترة اوفد السيد محمد عثمان من قبل السيد احمد الى الحبشة لنشر طريقته ثم ذهب الى مصر وأقام ببلدة الزينية بالصعيد مدة. ويبدو من قرائن الأحوال ان رسالته لم تصب نجاحا في هذين القطرين، اولا لأن ملك الحبشة كان معاديا للتبشير الاسلامي لاعتبارات سياسية، وثانيا لأن الطرق الصوفية في مصر كانت قوية ولا تعطي مجالا واسعا لوافد جديد. ومع ذلك فان له اتباعا في الصعيد وخاصة في الزينية. وتجري محاولة الآن لدراسة هذا المركز الادريسي ورصد وتصوير ما به من الأدبيات.

وبأمر من استاذه اتجه السيد محمد عثمان الى السودان بعد ان استأذن استاذه متبعا طريق النيل حتى دنقلا، ثم اتجه من هناك الى الغرب حتى بلغ بارة ثم الابيض. ومن الابيض سار الى سنار حيث اقام مدة اقصر. ثم عاد من سنار الى الابيض ومنها اتجه الى المتمة ثم إلى شندى فالدامر، وقد مكث في الاخيرة عدة ايام قليلة. ولما كانت حملة اسماعيل باشا قد بلغت ابا حمد فان السيد محمد عثمان قد استبعد زيارة المناطق الشمالية واتجه الى الشرق وسار حتى استقر بالتاكه وانشأ بقربها مدينة جديدة سماها السنية، وهي اساس حي الختمية في كسلا.

وفي الفصلين الثاني والثالث يعدد الكتاب ما وقع للسيد محمد عثمان في رحلته هذه والأماكن التي نزل بها ويذكر اسماء أولئك الذين اخذوا عنه من ابناء التاكه وبربر والرباطاب. وفي الفصل الرابع يذكر من انخرطوا على يديه من ابناء دنقلا والسكوت والمحس. وفي الفصل الذي يليه يتعرض لبعض اخباره في اريتريا وسواكن ويعدد اسماء المشاهير الذين اخذوا عنه. ولعل اهم ما في هذا الفصل ما كان بينه وبين السادة المجاذيب من نزاع في سواكن.

وقد عالج الكتاب هذه النقطة بشيء من الحذر.

وفي الفصل السادس يتعرض الكتاب الى نسب السيد محمد عثمان وهو يتصل بالرسول عليه الصلاة والسلام عن طريق محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق. وهذا النسب بخلاف نسبة الطريقة نفسها، اذ ان سند الختمية يتبع عدة اسانيد مختلفة يوصل بين السيد محمد عثمان والرسول عليه الصلاة والسلام. واهم هذه الاسانيد هي سند الطريقة النقشبندية التي تتصل بالرسول باسانيد مختلفة، اولها السند الذي يأخذ من ابي يزيد البسطامي الذي اخذ عن جعفر الصادق، وهذا عن قاسم بن محمد بن الصديق وهذا عن سلمان الفارسي وهذا عن ابي بكر الصديق. والسند الثاني يسمى سلسلة الذهب وهو يأخذ من الحزقاني ويتصل بأبي القاسم الجنيد ثم السري السقطي ثم معروف الكرخي ثم علي الرضا عن موسى الكاظم عن جعفر الصادق عن محمد الباقر عن زين العابدين عن الحسين. وهذا السند نفسه يسير وجهة اخرى من الكرخي عن طريق داود الطائي فحبيب العجمي فحسن البصري فعلي بن ابي طالب. وعلى اي حال فان معظم الطرق الصوفية تنتهي اسانيدها بهذه الاصول وليس من خلاف بينها الا في الفروع التي ظهرت في العصور التالية.

وفي الفصل السابع يذكر الكتاب ذرية السيد محمد عثمان بتفصيل. وقد اكثر فيه الكلام حول ذرية ثلاثة من ابنائه هم السيد محمد سر الختم والسيد جعفر والسيد محمد الحسن.

وفي الفصل الثامن ينتقل المؤلف الى جانب آخر من جوانب السيد محمد عثمان وهو أوصافه، وقد ذكروا فيه كثيرا عن هيئته وأخلاقه. اما في الفصل التاسع فقد ذكروا جملة من البشائر الخاصة به، وسبيله في ذلك نقل أقوال لأولياء سابقين ثم تأويلها بما يوافق هدفه او نقل كلام ينصرف مباشرة الى السيد محمد عثمان. وفي الفصل الذي يليه يذكر جملة من البشائر التي رواها السيد عن نفسه. والفصلان الاخيران لا يختلفان في جملتها عن دعاوى رجال التصوف في السودان، وقد نقل ود ضيف الله طائفة كبيرة من امثالها ونسبها

الى من ترجم لهم في طبقات الأولياء.

وفي معرض كلامه عن الختم ومكانته والبشائر التي يرويها يشير السيد محمد عثمان كثيرا الى المهدي المنتظر. وبالطبع فان اقواله هنا لا تنصرف الى شخص محمد المهدي بن عبدالله صاحب حركة المهدية وانما هو يقصد المهدي المرتقب ايا كان. واذا ما تذكرنا ان الفاصل الزمني بين وفاة السيد محمد عثمان وظهور المهدي هذا لتبين بوضوح ان المقصود ليس شخصا بعينه وانما هو صاحب المقام. على ان الشيء الذي يثير الانتباه هو ان المراغنة قد شاركوا في نشر فكرة المهدية في السودان وإذاعتها بين الناس وقد حق للمهدي فيما بعد ان يحتج بهذه السابقة وما تلاها ويؤولها على الوجه الذي يخدم قضيته. يقول المهدي في رسالة الى السيد محمد عثمان الثاني: «وقد ذكرنا اذ ان الكشف الصادق والدكم السيد الحسن اشار إلينا مرارا وتكرارا بالمحلات وبعض الصفات». والمخطوط لا يروي عن السيد محمد عثمان شيئا من أوصاف المهدي المنتظر او مكان ظهوره وزمانه بل انه لا يذكر عنه الا ما كان متصلا بمكانة الختم، واحسب ان المؤلف قد تفادى ذلك لما لهذا الأمر من حساسية. ويؤخذ من أقواله انه يضع المهدي في المرتبة التالية للرسول ثم يضع الختم في المرتبة التي تلي مرتبة المهدي.

يأتي بعد ذلك فصل طيب عن مؤلفات السيد وأعماله الفكرية وقد عد له المؤلف عددا كبيرا من المصنفات، وهي في التفسير والحديث وعلوم اللغة والدين ثم مؤلفات في التصوف وبعض ادعية وصلوات وأحزاب وعدة دواوين. والملاحظ ان كتاب النفحات المكية لا يذكر ضمن هذه المؤلفات مع انه من مؤلفاته القيمة. والحق ان هذا الجانب المهم من أعماله ليس معروفا بقدر واف، واحسب ان دراسة هذه الآثار وتقييمها تقيما علميا ضرورة مهمة، اذ على ضوئها يمكن تقدير جوانب كثيرة من شخصيته، ولكن لا بد قبل ذلك من ان تتوفر هذه المؤلفات وتيسر للدراسة المتخصصة.

اما بعد. فهذه دراسة اولية لمخطوط احسب انه يضيف الكثير الى محصولنا

من البيانات التاريخية. وقد قصدت من ورائها ان انبه الاذهان إليه وان احث القادرين على البحث في هذا الجانب من تاريخنا.

خاتمة:

لقد قمت بتحقيق هذا المخطوط. والباحث الذي اشرت إلى انه جاء الى السودان ليبحث في تاريخ الختمية هو الدكتور جون فول، وهو أميركي الاصل وقد وضع اطروحة جامعية بعنوان «تاريخ الطريقة الختمية في السودان» نال بها درجة الدكتوراه. وقد جرت محاولات عدة لترجمتها وقمت بمراجعة إحدى هذه الترجمات، ولكن ايا من الترجمات لم ير النور. والترجمة التي راجعتها ضاعت بغفلة صاحبها. وقد وضع فول كتابا آخر عن الحركات الاسلامية الحديثة بعنوان: الاسلام: الاستمرارية والتبدل في العالم الحديث، Islam - Continaity and change in the Modern World.

اسماعيل عبد القادر الكردفاني

مثلما كانت وفاة المهدي المفاجئة فاجعة أليمة بالنسبة لأنصاره، فقد كانت، بنفس القدر، دافعا لهم للقيام بحركة نشطة في مضمار الثقافة، لأن العظيم الذي أحسوا به جعلهم يركزون جهودهم لجمع آثاره والتعريف بحركته وتركيز دعوته الدينية والعمل على الابقاء على النظام الذي بناه عن طريق القلم، بينما انصرف الخليفة عبدالله بجد للابقاء على جذوة الدعوة وتوطيد النظام بالأداء السياسي والاداري ثم العسكري. ففي السنوات القليلة التي تلت وفاة المهدي تولت مطبعة الحجر المتواضعة التي غنمها الأنصار يوم سقوط الخرطوم اصدار عدد كبير من المطبوعات. لقد طبع راتب المهدي عدة طبعات لتعميق الروح الدينية. كذلك طبع عدد من الكتيبات التي تحوي جملة منتقاة من رسائل المهدي بغرض الدعاية. وقد ركزت فكرة الكتيبات على ابراز الرسائل التي تبين كيفية أداء بعض العبادات والرسائل التي تخص أسس الدعوة وأهدافها ثم الرسائل التي تدور حول مقام الخليفة عبدالله ومركزه، باعتباره الشخص المؤيد من قبل المهدي في حياته، وخليفته الطبيعي بعد وفاته.

ثم صدرت السلسلة الرئيسية من منشورات المهدي المطبوعة، وهي سلسلة تتكون من أربعة مجلدات: المجلد الأول خاص بأسس الدعوة ومراميها وأهدافها، والمجلد الثاني خاص بالنواحي السياسية المباشرة ونشر الدعوة، ولذلك يركز على الانذارات التي أرسلت الى المخالفين وعلى البيانات التي

أرسلت إلى كبار أعوان المهدي واتباعه عامة. والمجلد الثالث يختص بالآداب العامة والخاصة والأحكام. أما المجلد الرابع فيتضمن عددا من خطب المهدي.

ولقد وضعت هذه السلسلة نموذجا لمصنف الرسائل، والذي يعد المستودع الرئيسي لرسائل المهدي. ثم أقبل الناقلون الذين كانوا ينقلون المخطوطات في تصنيف مصنفات الرسائل، وبفضل هؤلاء سارت حركة تدوين رسائل المهدي خطوات بعيدة وبلغت حدا من الشمول والدقة. ثم أقبل التاتاي ليجمع أقوال المهدي وما كان يستشهد به من الآيات والأحاديث والأمثال والشعر وجوامع كلمة وبعض تفاسيره، وبذلك وضع أساس مجلس المهدي. ثم جاء آخرون وحذوا حذوه. وكان ما يعرف الآن بمجالس المهدي.

وقد صدرت عن المطبعة كتب أخرى: «الآيات البينات في ظهور مهدي الزمان وغاية الغايات»، للحسين ابراهيم زهرا وكتاب «الأنوار السنية الماحية لظلام المنكرين على الحضرة المهدية»، للحسن سعد محمد العبادي. وكان هذان المؤلفان قد كتبا في عهد المهدي، وهما يعالجان قضية المهدية ويبينان أن مهدي السودان، محمد المهدي بن عبدالله، هو حقيقة المهدي المنتظر الذي ظلت الخليقة تنتظر ظهوره. وكتاب ثالث هو «نصيحة العوام للخاص والعام من أخواني أهل الايمان والاسلام»، الذي وضعه احمد العوام أثناء حصار الخرطوم. وكتاب رابع هو فتوحات الواقدي، غير أن طبعه لم يكتمل.

ان هذه الحركة النشطة كانت مرتبطة بالحالة النفسية التي تولدت عن وفاة المهدي. وقد هدفت الى جمع آثاره المكتوبة والمقولة بغرض المحافظة عليها كما هدفت الى نشر ما يمت الى مهديته بصلة بغرض توطيد الدعوة والابقاء على جذوتها متوهجة[1].

---

(١) راجع في ذلك كتاب: «الحركة الفكرية في المهدية» للدكتور محمد ابراهيم أبو سليم، وسوف نشير الى هذا المصدر فيما يلي بقولنا: الحركة الفكرية.

وكتاب «سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي»[1]، لاسماعيل بن عبد القادر الكردفاني، ثمرة من ثمرات هذه الحركة. وكذلك مؤلفه الثاني «الطراز المنقوس ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش».

المؤلف:

لقد ورد ذكر اسماعيل في مراجع قليلة: فمؤلفات هولت لا تشير إليه كلية. وقاموس ريتشارد هل عن شخصيات السودان لا يذكره. وكتيب ارماين وليز، مدير المخابرات في السودان سابقا، عن الطوائف الدينية تغفل عنه كلية. وقد سكت ونجت عن الكلام عنه في كتابه عن المهدية في السودان وفي تقاريره، وحتى عندما تكلم عن وثائق عفافيت وأشار الى أن جملة منها قد كتبت للاستفادة منها في ديوان الخليفة لم يذكر عن هذا المؤلف أو عن كتابه شيئا. كذلك لا يجيء ذكره في التقرير الذي أعده ونجت عن حوادث السودان والحالة فيه من واقع أقوال سلاطين باشا بعد هربه من السودان. وقد جاء ذكره في وثائق المخابرات الحربية المصرية على ضخامتها واتساعها وشموليتها مرة واحدة، وذلك في التقرير الذي كتبه عنه نعوم شقير باللغة الانجليزية بعنوان: «مذكرة عن اسماعيل عبد القادر وسيرة المهدي» والمؤرخ في ٢٥ مايو سنة ١٨٩٥. ولم يقدر لنا أن نقف على هذا التقرير، ولكن أهميته تتضح من خلال ما يذكره حاييم شاكد في مقاله الجيد عن سعادة المستهدي. ومن الملاحظ ان نعوما لم يذكره في تقارير بعد ذلك ولم يهتم بأمره، وحتى عندما تم فتح السودان وأعد ذلك التقرير الشامل عن واقعة ام درمان وعن دولة المهدية وما خلفته من وثائق وآثار، وهو التقرير رقم (٦٠) في سلسلة التقارير الشهرية السرية للمخابرات الحربية المصرية لم يحفل بذكره. بل ان نعوما يسكت عنه حتى عندما يعد تقريرا قائما بذاته عن وثائق المهدية التي عثر عليها بعد واقعة ام درمان. ومن الواضح انه لم يضف في تاريخه كثيرا

(١) سوف نشير الى هذا الكتاب فيما يلي بقولنا: السيرة.

على ما أورده في التقرير اللهم الا تفصيل المكيدة التي نصبها احد علي قاضي الاسلام لإلقائه في التهلكة. ولعله فيما عدا ذلك لجأ الى إعادة صياغة ما جاء في التقرير والغى بعض ما كان مبالغا في الصياغة.

وعلى ذلك يمكننا أن نقول ان اهتمام نعوم ومكتب المخابرات الذي كان يعمل به قد اكتفى بالمحصول الذي ورد في التقرير الذي أشرنا إليه وبالحصول على نسخة من سعادة المستهدي والطراز. وهذا أمر طبيعي، لأن ادارات المخابرات لا تهتم بالأمور الا اذا كانت قائمة، وبالشخصيات الا اذا كانت عاملة ومؤثرة.

وقد ورد اسم اسماعيل في وثيقتين أشرنا إليهما في مكان آخر وهما الوثيقة الصادرة عن محاكمة الخليفة شريف وسجنه[1]، والوثيقة الخاصة بمصادرة المراكب وأيلولتها الى بيت المال[2]. غير أنهما لا يضيفان الا القليل الى ما هو معروف عنه وعن حياته.

وتصديق محكمة الاسلام الذي ينقله حفيده حسين المفتي في كتابه «تطور نظام القضاء في السودان»[3] لا يفيدنا عنه بشيء سوى أنه كان من نواب محكمة الإسلام.

وهناك القول بأن مجلة الجوائب المصرية قد نشرت له قصيدة نال بها جائزة في إحدى المسابقات الشعرية ولكننا لم نقف على هذا الشعر أو اي خبر نشر له في الجوائب أو غيرها.

وقد حثنا حفيده حسين المفتي على الحصول على نص القصيدة من مجموعة

---

(١) شقير، نعوم، جغرافية وتاريخ السودان، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧، ص ١١٦٩. وسوف نشير الى هذا المصدر بقولنا: تاريخ نعوم.

(٢) هولت: وثائق المهدية وما يتصل بها مقابل صفحة ١٩٥.

(٣) حسين سيد احمد المفتي: تطور نظام القضاء في السودان ص ١٦١. سوف نشير الى هذا المصدر فيما يلي بقولنا: القضاء.

مجلة الجوائب التي يعتقد أنها محفوظة بدار الكتب المصرية، ولكن لم تتح الفرصة لنا للبحث عنها ولسنا نعرف ان كانت مجموعة هذه المجلة محفوظة بها أم لا.

واسماعيل نفسه يكتب بطريقة متباعدة عن نفسه فلا يذكر شيئا عن نفسه أو أسرته بطريقة مباشرة. وكل ما أمكن أخذه من السيرة لا يتعدى حادثين: أولهما ما يعني اشتراكه في واقعة شيكان[١] وثانيهما وجوده في معسكر الجنزارة أثناء حصار الأبيض[٢].

وقد تكلم عنه الشيخ محمد عبد الرحيم في موسوعته[٣]، ولكنه يقف حيث يقف نعوم شقير في تاريخه وسلاطين في السيف والنار ولا يضيف عليها شيئا.

وقد نقل كتاب شعراء السودان لسعد ميخائل قصيدته المشهورة: سمت قبة المهدي مجدا وسؤددًا، وقدم لها بمقدمة تعريفية[٤]. وهذه المقدمة تعد في نظرنا، رغم اقتضابها واغراقها في الاسلوب البياني، من أوفى ما كتب عن المؤلف ويورد حفيده حسين المفتي ترجمة مختصرة لحياته في كتاب «تطور نظام القضاء في السودان» ويشير إليه إشارات متفرقة[٥]. وقد روى لنا عن عزمه على وضع كتاب كامل عن حياته.

إن المصادر الرئيسية عن الكردفاني هي تقرير نعوم الذي سلفت الإشارة إليه وتاريخ نعوم وكتاب السيف والنار لسلاطين وكتاب تطور نظام القضاء لحفيده حسين المفتي ومقالتا خايم شاكد: «مخطوطة سيرة مهدي السودان»، و«صورة مهدي السودان في مخطوطة سيرة وحيدة باللغة العربية». ان هاتين

---

(١) السيرة ص ٨٤ و٢١٢.
(٢) السيرة ص ١٧٧.
(٣) موسوعة محمد عبد الرحيم - انظر ترجمة اسماعيل عبد القادر.
(٤) شعراء السودان ص ٣٩ - ٤١.
(٥) القضاء ص ١٣٩ - ١٤٤ - ١٤٩ - ١٥١ - ١٦١.

المقالتين تحاولان استخلاص ما يمكن استخلاصه من السيرة ومما يسوقه نعوم وسلاطين.

وهكذا يمكننا أن ننتهي الى أن المصادر التي روت عن حياته تعد قليلة، بل يمكننا أن نرد ما هو معروف عنه الى اربعة مصادر هي: نعوم شقير وسلاطين وسعد ميخائيل وحفيد حسين. واذا ما نظرنا الى المعلومات المتوفرة عن المؤلف ومداها فسنجد أن هناك فجوات كبيرة في حياته لم يصلنا عنها شيء. وبعض أطراف حياته تذكر كأمر عابر، مثل مولده وتعليمه. ومرد هذا، في نظرنا، الى ان الرواة لم يحفلوا بتفاصيل حياته مثلما حفلوا بخبر كتابه والنكبة التي حلت به والى أنه هو نفسه لم يرو لنا شيئا عن نفسه او حياته. ومما زاد الأمر غموضا انه لم ينل في المهدية إمارة ولا اشترك بوجه ظاهر في واقعة او حادثة. وكان منصب الافتاء الذي تولاه في التركية والقضاء في المهدية لا يثير الرواة، وغالب الرأي عندنا ان اسماعيل يعيش حياته الثانية معنا لكونه ألف في تاريخ المهدية، ولأن نكبته كمؤرخ او شخص كان مقربا الى الخليفة قد خلق إثارة في الأذهان ووجها دراميا يرويه الناس عن طبائع الخليفة ونوبات غضبته على اللصيقين به.

ولد اسماعيل بن عبد القادر بمدينة الأبيض حوالي ١٢٦٠/١٨٤٤[١]. وتربى في جو اسلامي. فهو حفيد اسماعيل بن عبدالله المشهور بالولي ومؤسس الطريقة الاسماعيلية من بنته عائشة[٢]. وكان لاسماعيل الولي ولد كثير من البنين والبنات، ولكن لم يشتهر منهم الا احمد الأزهري ومحمد المكي. أما احمد فهو شقيق والدة اسماعيل بن عبد القادر[٣]، ولذلك كانت رعايته له واصطحابه معه الى مصر ليتعلم في الأزهر. وكان موقفه إزاء المهدية على النقيض من موقف الاسرة كلها. فقد ألف رسالة[٤] في نقض مهدية المهدي

(١) شعراء السودان ص٣٩، القضاء ص١٣٩.

(٢) القضاء ص١٣٩.

(٣) موسوعة محمد عبد الرحيم: انظر ترجمة اسماعيل عبد الله الولى.

(٤) انظر نصها في تاريخ نعوم ص٩٦١ وما يلي.

ونادى ببطلانها ودعا الناس الى الوقوف بجانب السلطة التركية. وقد طبعت هذه الرسالة بمطبعة الحجر في الخرطوم ووزعت على الناس تعزيزا للحملة على المهدي وتقوية لموقف الحكومة منه. وقد عين أحمد الأزهري بعد ذلك قاضيا ومفتيا لغرب السودان وتوجه مع تجريدة عسكرية ليحتل منصبه ولكنه قتل على يد أنصار المهدي في واقعة صغيرة قرب باره في ١٨٨٢[١].

وأحمد هذا مشهور بالأزهري لانتسابه الى الأزهر الشريف طالبا ومدرسا، وقد ورث هذا اللقب عنه ابنه اسماعيل الأزهري، مفتي العيد الثنائي المشهور وحفيده اسماعيل الأزهري السياسي المشهور.

أما أحمد المكي فهو الابن الأكبر لاسماعيل الولي، وقد خلف أباه في رئاسة السجادة الاسماعيلية وأبوه ما زال على قيد الحياة، وقد بقيت هذه الرئاسة في بيته الى هذا اليوم. وكان محمد المكي من المؤيدين لحركة المهدي ومن أقوى المناصرين للخليفة عبدالله[٢]. وقد عهد إليه الخليفة، لثقته القوية فيه، تربية احمد بن محمد عثمان الميرغني الأوسط. ومن شواهد مكانته عند الخليفة أنه أهدى إليه بغلة الامبراطور يوحنا امبراطور الحبشة، التي غنمت في واقعة القلابات، وبسرجها وكل متعلقاتها[٣].

هذا من جهة أمه. أما عن خبر أبيه فلا نعرف الا القليل. وقد توافقت المصادر كلها، ما عدا تطور نظام القضاء، على أن تورد اسم المؤلف بغير اسم الجد. واسماعيل نفسه يسقط اسم هذا الجد في كل المواضع التي ذكر فيها اسمه

---

(١) تاريخ نعوم ص٩٦.

(٢) هولت: دولة المهدية ص١٣٦ - ١٣٧.

(٣) موسوعة محمد عبد الرحيم: انظر ترجمة اسماعيل عبد الله ومحمد المكي، الطراز ص٦٣. انظر اسماعيل الولي واحمد الازهري ومحمد المكي في المصادر التالية: الاسلام في السودان لترمنقهام، الاولياء والصالحون لهولت، الطوائف الصوفية في السودان للدكتور عبد القادر محمود، مصادر متنوعة بدار الوثائق المركزية.

وحتى في خطبة السيرة وخطبة الطراز[١] وفي ختمه يكتفي اسماعيل باسمه هو واسم أبيه فقط[٢].

وقد جاء في كتاب الاسلام في السودان[٣] أن والد المؤلف هو اسماعيل الولي، ولكن هذا خطأ بالتأكيد لأننا نعرف أن اسماعيل الولي هو جده من أمه. وقد سمي المؤلف - فيما نحتمل - على جده هذا. وقد ذكر لي حفيده مكي ابو، مدير عام بوليس السودان سابقا، وأحد المهتمين بتاريخ الأسرة، أن والد المؤلف اشتهر بلقب عبد القادر شيخ الجلابة، ولو صح هذا الخبر فانه يجعله في محيط العاملين في حقل التجارة. ويذكر سعد ميخائيل أن اباه كان حيا عندما كان اسماعيل في الفاشر وأنه أسرع بالعودة الى الابيض بحجة مرض والده المتقدم في السن[٤].

ولا يذكر حسين المفتي شيئا عن والد الكردفاني ولا عن جده، ولكنه يفيدنا بنسب الكردفاني: «هو اسماعيل المشهور باسماعيل المفتي بن عبد القادر ابن عبدالله بن داود بن سليمان من قبيلة الصواردة المعروفةبشمال السودان»[٥].

ولنا أن نتساءل: لماذا سكتت المصادر وسكت المؤلف نفسه عن الكلام عن أبيه وعن ذكر اسم الجد. هل لأن الوالد كان رجلا خامل الوجاهة أو كان من المكانة الاجتماعية على وضع لا يسر أن يذكر؟ لا نخال الأمر كذلك. اذ لو كان الأمر كذلك لما أمكن له أن يصاهر بيتا مرموقا وأن يتزوج بنت اسماعيل الولي، وانما الأمر عندنا مربوط بظاهرة عامة تتصل بأسماء أغلب

---

(١) السيرة ص٦٣، الطراز ص١.

(٢) انظر هذا الختم في وثيقة ادانة الخليفة شريف الاصلية وانظر ايضا القضاء ص ١٦١ وانظر وثيقة اعلام المركب في هولت: وثائق المهدية وما يتصل بها مقابل ص١٩٥.

(٣) ترمنقهام: الاسلام في السودان ص١٥٧.

(٤) شعراء السودان ص٤٠.

(٥) القضاء ص١٣٩.

مشاهير السودان في القرن الماضي وهي الاكتفاء باسم الشخص واسم أبيه كأحمد علي ويونس الدكيم واحمد سليمان أو الاكتفاء بالنسبة الى الأب فيقال ود فلان (لا يستعمل السودانيون لفظ ابن الا قليلا) ثم بعد ذلك ينسب المرء الى الموطن أو مكان الدراسة أو القبيلة اذا دعت الحال فيقال الكردفاني والسناري والمكي والمدني والأزهري والانقريابي والمحسيّ الخ. وفي نظري أن الأصل في ذلك راجع الى كيفية تداول الأسماء في الألسن، اذ يكتفي المرء باسم الشخص او باسمه منسوبا الى ابيه ثم انتقلت الظاهرة الى المصادر المكتوبة. وعلى ذلك فان سكوت المصادر عن اسم جد المؤلف أمر طبيعي، واغفال المؤرخ عن ذكر أبيه وعن اسم جده لا يعني إلّا عادة كانت متبعة في عصره أو ظاهرة لم تكن مستغربة على الأقل.

وأغلب المؤرخين يذكرون أن الكردفاني ينتسب الى قبيلة البديرية وفيهم الى فرع الدهمشية[١]. ولكن حفيده حسين يرى ان اجداده من قبيلة الصوادرة[٢]، نسبة الى قرية صوادرة بريفي السكوت. وعند سعد ميخائيل انه عباس[٣]، وقد تردد القول بأنهم من دبة الفقراء بالمديرية الشمالية. والبعض يقول بأنهم من الغرب، ومثل هذا لا ينبغي أن يشغلنا كثيرا، على الأقل في هذه المقدمة.

تلقى اسماعيل المراحل الأولى من تعليمه في خلوة جده بالأبيض[٤]، ثم أخذه خاله احمد الأزهري الى مصر والحقه بالأزهر الشريف. ويذكر حفيده حسين أن عمره كان عندئذ ١١ عاما[٥]. وقد اختلفت المصادر حول طول

---

(١) موسوعة محمد عبد الرحيم: انظر ترجمة اسماعيل بن عبد الله الولي، وانظر أيضا موسوعة هل، وشاكد ص ٥٢٨.
(٢) القضاء ص ١٣٩.
(٣) شعراء السودان ص ٣٩.
(٤) القضاء ص ١٣٩، شعراء السودان ص ٣٩.
(٥) القضاء ص ١٣٩.

اقامته في مصر. ففي تقرير نعوم أنه قضى بها ١٦ سنة[١]. وفي تاريخه أنه قضى ٨ سنوات[٢]. وفي رأي ماكمايكل ومحمد عبد الرحيم وسعد ميخائيل أنه قضى ١٢ عاما[٣]. وعند حفيده حسين أنه مكث هناك اكثر من عشر سنين. وقد أورد شاكد مختلف الروايات دون أن يؤيد احداها.

وعندنا أن هناك خلطا بين اقامته واقامة خاله احمد الأزهري، ولكن ليس هناك وجه لترجيح قول على آخر.

ويقال ان اسماعيل قد بلغ شأنا عظيما من النجابة وانه كان على قدر كبير من المكانة بين طلاب الازهر. يقول نعوم في تقريره إنه عرف بين أترابه بالذكاء وانه بلغ مرتبة عالية في الأدب العربي، ثم يضيف إنه مشهور بالقاهرة وأن علماء الأزهر يعطونه مقاما كبيرا[٤]. ثم يقول في تاريخه إنه اشتهر هناك بالنجابة والذكاء[٥]. أما سلاطين فيكتفي بذكر أنه تلقى تعليما حسنا بالأزهر[٦]. ويقول سعد ميخايل في كتاب شعراء السودان: «لتلقِّي العلم هنا فأخذ على فطاحلته (يقصد الأزهر) المعروفين حينذاك قسطا وافرا منه واشتهر بين مشائخه بالذكاء المفرط وسرعة التحصيل على حداثة سنه فخطا خطوات واسعة في سائر العلوم التي كانت مقررة بالأزهر المعمور وقتها ـ الا أنه برز في علوم الآلة بأنواعها وفي الميراث والتاريخ. وكان له القدح المعلى في الأدب وحفظ أشعار العرب وملحهم وأمثالهم وسرعة الخاطر وجودة البديهة مغرما بالشعر»[٧]. وقد روى لي حفيده حسين الفتى انه اشترك في مسابقة

(١) تقرير نعوم ص ٢ نقلا عن شاكد.

(٢) تاريخ نعوم ص ١١٧٦.

(٣) ما كما يكل: تاريخ العرب في السودان جـ ٢ ص ٦١، وموسوعة محمد عبد الرحيم، وشعراء السودان ص ٣٩.

(٤) تقرير نعوم ص ٢.

(٥) تاريخ نعوم ص ١١٧٦.

(٦) سلاطين ٣٠٩/٢٢٣.

(٧) شعراء السودان ص ٣٩.

شعرية نظمتها مجلة الجوائب المصرية وفاز بجائزتها الاولى. ومما يلفت النظر هنا أن المؤلف يذكر هذه المجلة في كتاب الطراز ويشير الى بعض ما جاء فيها[1]، الأمر الذي يوحي بأنه كان من قرائها.

وجاء في كتاب حفيده انه: «حفظ القرآن الكريم بالأزهر وجود قراءته فيه على جماعة من القراء هناك والتحق بالأزهر طالبا في الحادية عشرة من سنِّه وتلقى دروسه في مختلف العلوم على كبار العلماء. وهناك اشتهر بالذكاء والنجابة والتفوق على الأقران. وكثيرا ما جعل أساتذة الأزهر تلميذهم اسماعيل حكما بينهم فيما يحصل بينهم من اختلاف في المسائل العلمية. وبعد أن مكث بالأزهر أكثر من عشر سنين أتم علومه هناك فمنحه علماء الأزهر الإجازات العامة والخاصة وعلى رأسهم العالم العلامة الشيخ حسن الطويل المصري كبير علماء الأزهر اذ ذاك»[2].

ويذكر هذا المصدر نفسه أنه أخذ بعد الإجازة العلمية «يلقي دروسه في الأزهر في المنطق وفي علمي المعقول والمنقول وغير ذلك من العلوم»[3] وهو المصدر الوحيد الذي ذكر أنه درَّس في الأزهر.

ويدل أسلوبه الذي كتب به السيرة والطراز أنه كان على مستوى يتفق مع أخبار نجابته وتحصيله في الأزهر.

ثم عاد اسماعيل الى السودان متخذا درب الأربعين في صحبة قافلة تجارية متجهة الى دارفور، وقد مر على الفاشر ولقي بها تكريما عظيما. يقول سعد ميخائيل: «فمر على سلاطينها وقت ذاك فأكرموا وفادته ومنحوه الهبات الوفيرة من الرقيق والمال عندما تحققوا علمه وحسبه وطلبوا إليه أن يتأخر معهم لبث العلم في ديارهم فأقام قليلا في نشره بينهم حتى تخرج على

(١) الطراز ص٣٤.
(٢) القضاء ص١٣٩ - ١٤٠.
(٣) القضاء ص١٤٠.

يده كثير من أهالي تلك الجهة... ثم اعتذر عن الاقامة ورجا منهم ان يسمح له بمواصلة سيره الى وطنه لمشاهدة والده الذي بلغه خبر مرضه وهو في اخريات عمره»[1].

ولما بلغ الابيض عينته الحكومة المصرية مفتيا لديار كردفان[2]. وهناك قول بأنه كان يقوم بالتدريس بالإضافة الى وظيفة الافتاء وأن عددا قد تخرج على يديه[3]. وقد بقي في هذه الوظيفة حتى تركها بنفسه وانتقل الى جانب المهدية عندما عسكر المهدي في كابا وأرسل ينذر أهل الابيض بما يحيق بهم ان لم يسلموا إليه. وهناك دليل في السيرة يمكن أن يؤخذ منه أنه خرج فيمن خرج الى كابا، ولكن تحديد تاريخ خروجه على وجه الدقة أمر بعيد، لأن الناس قد تتابع خروجهم في أيام متتالية. ويمكن القول بما يشبه التأكيد بأن خروجه كان قبل ٢٣ شوال[4]، لأن خروج أهالي الابيض الى المهدي قد تكامل في هذا اليوم.

وليس لدينا فيما يرويه المؤلف أو ما ترويه المصادر ما يفيدنا عن سبب تحوله من جانب الحكومة الى جانب المهدي، ولكن من الممكن ان نقترح ثلاثة احتمالات: أولها برمه من النظام السياسي السائد مثله في ذلك مثل كثير من المفكرين في مصر، وثانيها الرغبة في الانضمام الى المهدي لاعتقاده فيه وايمانه بمهديته. ومما يقوي هذا الاحتمال موقف خاله محمد المكي وبقية افراد الاسرة - ما عدا احمد الأزهري - من المهدية ومؤازرتهم لها منذ مراحلها الاولى حتى نهايتها. أما الاحتمال الأخير فهو موقف الضرورة باعتبار أن النظام التركي سيزول وأن حكم المهدية سينتصر وأن من الحكمة الانحياز الى المهدية قبل

---

(١) شعراء السودان ص ٤٠.

(٢) شعراء السودان ص ٤٠، القضاء ص١٤٠، مذكرة نعوم ص٢.

(٣) القضاء ص ١٤٠.

(٤) يذكر الكردفاني في السيرة أن الناس قد تتابع خروجهم وأن الخروج قد تكامل في ٢٣ شوال، وهذا يعني أنه قد خرج قبل هذا التاريخ: انظر السيرة ص٢٠٦ - ٢٠٨.

فوات الأوان. فالأمر أمر تقية وسياسة وليس أمر إيمان. وفي موقف المؤلف من بعض قضايا المهدية، كما يأتي ذكرها في مكان آخر من هذه الدراسة، ما يشجعنا على الميل الى هذا الاحتمال.

انضم اسماعيل اذا إلى المهدي قبل واقعة الجمعة المشهورة ولكننا لا نعرف شيئا عن اشتراكه في هذه الواقعة. وقد اوضح المؤلف بما يفيد أنه كان بمعسكر الجنزارة، وهو المعسكر الذي استقر به المهدي بعد واقعة الجمعة وضرب منه الحصار على الابيض، يقول: «فانا شاهدنا وقوع الجلل في محل النزول المذكور (يقصد الجنزارة) مرارا من المدينة المذكورة»[1]. وقد حضر المؤلف واقعة شيكان التي هزمت فيها قوات هكس، ودليلنا على ذلك أنه يقول: «وقد شاهدت الحرق المذكور في تلك الاجسام في غزوته عليه السلام للطاغية الهكسي»[2]. ثم صحب المهدي الى الخرطوم واستقر به المقام في أم درمان[3].

ويبدو أنه عمل في حياة المهدي في القضاء. فقد روى حسين المفتي أن المهدي انتدبه ومعه الشيخ محمد البدوي ليرافقا السيد محمد عبد الكريم الذي كلف بفتح سنار ليقوما بتعيين القضاة في الجهات التابعة لعمالته[4]. ويروي نفس المصدر اسمه ضمن قضاة أم درمان[5]، كما يذكر من أقربائه في مجموعة قضاة الاقاليم اسماعيل الأزهري الذي تولى القضاء في منطقة الكاملين والباقر ابن اسماعيل الولي الذي كان قاضيا على جهة السبيل بالجزيرة[6].

ويقول في موضع آخر ان الخليفة عبدالله انتدبه للفصل في المنازعات التي

---

(١) السيرة ص ١٧٧.
(٢) السيرة ص ٨٤ - ٢١٢.
(٣) تاريخ نعوم ص ١١٧٦.
(٤) القضاء ص ١٣٢.
(٥) القضاء ص ١٤٩.
(٦) القضاء ص ١٥٠.

تقع بين كبار التعايشة على اختلاف أنواعها حتى الجنائية منها[1]. ويظهر من تصديق صادر من محكمة الاسلام أنه كان احد نواب هذه المحكمة[2]. وقد جاء في كتاب سلاطين أنه كان قاضيا[3]. وجاء في تقرير نعوم أنه كان نائبا لقاضي ام درمان[4]، ويعني به قاضي الاسلام احمد علي، وان كان من المظنون عندنا أنه بلغ منصب نائب قاضي الاسلام بعد تأليف السيرة. ومن الملاحظ ان نعوما اسقط الإشارة الى توليه القضاء عندما تكلم عنه في تاريخه. وربما كان ذلك لأن أمر توليه القضاء لم يعد يهمه وهو يؤرخ للمهدية كلها، أي أن اغفال ذلك لا يعني نفيا لواقعة التولية نفسها. وقد روى سعد ميخائيل أنه تولى القضاء بأم درمان في عهد الخليفة[5]. ومما يرجح هذا الأمر إشاراته الكثيرة في السيرة والطراز الى قاضي الاسلام احمد علي. ومما يدل على وجاهته بين العلماء والكتاب أنه كتب تقريظا لرسالة الحسن سعد العبادي التي طبعت في ١٣٠٤هـ بمطبعة المهدية، اي قبل قيامه بكتابة السيرة[6]، ويؤكد هذا ما ذكره سعد ميخائيل من أنه ظفر بمكانة عالية عند الخليفة عقب توليه القضاء وان ذلك مهد الى تكليفه لوضع السيرة[7].

ويذكر سلاطين أنه نال حظوة عظيمة لدى المهدي عندما أعد جانبا من تاريخه[8] ومع أن هذه الواقعة مشكوك في أمرها فانها تفيدنا بأن اسماعيل كان على شيء من الوجاهة في عهد المهدي.

وقد ظل حاله على ما كان عليه حتى كان تأليف السيرة فارتفعت مكانته

(١) القضاء ص ٥١ - ١٥٢.
(٢) القضاء ص ١٦١.
(٣) سلاطين ص ٣٠٩ - ٢٢٣.
(٤) شاكد ص ٥٣١.
(٥) شعراء السودان ص ٤٠.
(٦) الأنوار السنية ص ٢٦٢ - ٢٦٥.
(٧) شعراء السودان ص ٤٠.
(٨) سلاطين ص ٣٠٩ - ٢٢٣.

وعلا شأنه. يقول نعوم في تاريخه: « وعلت منزلة اسماعيل عبد القادر ونفذت كلمته »[1]. ويقول سعد ميخائيل: « وبعد وفاة المهدي صحب خليفته عبدالله التعايشي فولاه منصب القضاء بأم درمان واصطفاه لنفسه وبلغت منزلته عنده الدرجة القصوى. ولما تحقق فيه العلم اشار عليه بتأليف سيرة في المهدية تكون جامعة لجميع حوادثها وتطوراتها من يوم نشأتها الى فتوح الخرطوم... ووقعت هذه السيرة من قلب الخليفة الموقع الحسن فقربه إليه كثيرا واتخذه خليلا له في أخص خلواته وطار صيته في المهدية وعلت منزلته عند خليفتها الى درجة جعلت اصحاب الغايات يشون به لديه »[2].

ومما يدل على « ان السيرة قد وجدت مثل هذه الاستجابة أنه أسرع بتأليف كتاب الطراز.

وهناك دليل آخر على ما بلغه المؤلف من المكانة بين العلماء والقضاة والاعيان. فاسمه يظهر في المركز الرابع بين العلماء والقضاة الذين نظروا في أمر الخليفة شريف وأصدروا وثيقة ادانته[3]. وهو يأتي بالتحديد بعد احمد علي قاضي الاسلام والسيد محمد المكي وعبد القادر أم مريوم. وفي اعلام صدر عن العلماء والاعيان والقضاة بصدد ضم المراكب الى بيت المال[4] يظهر اسمه في المركز الثالث، أي بعد أحمد علي وعبد القادر أم مريوم. وقد صدر الاعلام في ٢٣ شعبان ١٣٠٩هـ الموافق ٢٣ فبراير ١٨٩٢م. أما وثيقة الإدانة فقد صدرت في ١٣٠٩هـ ولكننا لم نجد تاريخا معتمدا لليوم والشهر.

ثم جاءت النكبة في السنة التالية. وعلى ما يقول سلاطين فان الخليفة قد عهد لجماعة من العلماء ليحققوا فيما نسب إليه، ولما تحقق ذلك وضع في الحديد

---

(١) تاريخ نعوم ص ١١٧٧.
(٢) شعراء السودان ص ٤٠.
(٣) تاريخ نعوم ص ١١٦٩.
(٤) هولت: وثائق المهدية وما يتصل بها مقابل صفحة ١٩٥.

ونفي الى الرجاف[1]. وكانت هناك قوة بقيادة عربي دفع الله متجهة الى الجنوب على سفينتين فأرسل المؤلف في معيتها ضمن عدد من المسجونين ممن يتصلون بحركة الاشراف، وكان من بين هؤلاء محمد خالد زقل. وقد أبحرت السفينتان من أم درمان في ١٢ أغسطس ١٨٩٣. ثم وبعد ان تعطلت الحملة في الطريق بسبب حرب الشلك وصلت الى الرجاف في ٢٢ اكتوبر سنة ١٨٩٣[2]. وقد نقل اسماعيل مع المسجونين الآخرين الى جزيرة قصاد الرجاف ليبقى بها في ضيق وكرب حتى توفي في أواخر ١٣١٦هـ (يوافق ذلك أوائل ١٨٩٧). ويقال ان مرفعينا اختطفه وهو ملقى على مرقده لا يستطيع حراكا من شدة الجوع. ولكن أقرباءه ينفون هذا الوجه من نهايته[3].

وقد لحقت النكبة بتأريخه ـ أي بالسيرة والطراز معا ـ اذ صدر أمر الخليفة بأن يحرق أينما وجد فأحرقت نسخه ما عدا نسخة وحيدة اقتناها نعوم شقير وهي النسخة المحفوظة في مكتبة جامعة درهام والتي عليها الاعتماد الآن[4].

ترى لماذا غضب الخليفة على اسماعيل بعد أن قربه إليه ورفع من شأنه ثم دفع به الى ذلك المصير البشع، ليموت جائعا مهملا في أقاصي البلاد او ليخطفه مرفعين وهو لا يستطيع حراكا. لماذا يفعل ذلك وهو العالم المقرب وصاحب كتاب السيرة الذي أعجب به الخليفة. لماذا هذه القسوة وهو ابن اخت محمد المكي أحد اقرب المقربين الى الخليفة؟ هناك عدد من الروايات تروى في هذا الصدد.

يقول سلاطين أن مرد نكبة اسماعيل هو غروره الذي جعله يشبه علاقته

---

(١) سلاطين ص٣٠٩ - ٣١٠، ٣٢٣ - ٣٢٤.
(٢) تاريخ نعوم ص١١٧٧، الحركة الفكرية ص٢٠٢.
(٣) الحركة الفكرية ص٢٠٢.
(٤) سلاطين ص٣١٠ - ٣٢٤، تقرير نعوم ص١، الحركة الفكرية ص٢٠٢ - ٢٠٣.

بالخليفة عبدالله بعلاقة اسماعيل المفتش بالخديوي اسماعيل، وأن الخليفة عندما بلغه هذا التشبيه انتابه الغضب الشديد، وأنه عهد الى بعض العلماء ليحققوا فيما نسب إليه[1]. ويروي نعوم في تقريره أن الخليفة نكب به لأن لسانه قد انزلق وتعرض الى الخليفة بسوء[2]. ويبدو من اشارة شاكد[3] أن هذا التقرير لا يتعرض الى تفاصيل ما نسب إليه. ويرجع سعد ميخائيل بالسبب الى الوشاية ولكن دون أن يذكر ماهيتها ومصدرها، يقول سعد: «وعلت منزلته عند خليفتها الى درجة جعلت اصحاب الغايات يشون به لديه، وكانت الوشاية آخذة مأخذها حين ذاك، ففعلت هذه الوشاية فعلتها في نفس الخليفة»[4]. أما نعوم في تاريخه فقد ألقى التبعة كلها على احمد علي قاضي الاسلام، يقول: «فحسده القاضي احمد وسلط عليه بعض أخصائه فسعوا به عند الخليفة فشهد بعضهم أنه سمعه يقول: كيف تطاق أن تسلم أمور الرعية كلها الى رجل جاهل غشول مثل عبدالله التعايشي. وشهد آخر عليه أنه قال: اني والخليفة كاسماعيل باشا المفتش مع اسماعيل باشا الخديوي. وقال آخر انه ملأ السيرة مغامز تحط من شأن المهدية وتدل على انكاره اياها»[5].

وهكذا تتفق المصادر على ارجاع سبب النكبة الى الوشاية، وقد ساقت لذلك، على اختلاف بينها، ثلاثة امور: أنه قال بجهالة الخليفة عبدالله وعدم أهليته الخلافة. والقول بأنه ملأ السيرة بالمغامز التي تحط من شأن المهدية. ثم القول بمقارنة علاقته بالخليفة بالعلاقة بين اسماعيل المفتش والخديوي اسماعيل. وأول هذه الأمور قد يلحق بالحركة المناوئة للخليفة فينسب المؤلف الى حركة الاشراف. وهذا ما نعالجه أدناه. والثاني نعالجه عند الكلام عن اسلوب التأليف. وكلا الأمرين لا يمكن اثباتها أو نفيها بوجه محقق. أما الثالث فقد

(١) سلاطين ص٣٠٩ - ٣١٠/ ٣٢٣ - ٣٢٤.

(٢) شاكد ص٥٣١.

(٣) شاكد ص٥٣٢.

(٤) شعراء السودان ص٤٠.

(٥) تاريخ نعوم ص١١٧٧.

وصف سلاطين تأثيره على نفس الخليفة، اذ أن ذلك في تقديره يجعله في مصاف الخديوي والذي هو مجرد (تركي) بدلا من أن يكون خليفة للمهدي والذي هو خليفة الرسول ويبعده كليا عن النظرية الدينية التي تقوم عليها الخلافة. وعندنا ان استعارة اسماعيل بالمفتش لم يقصد به النيل من الخليفة او تخفيض مكانته ان صح أنها صدرت منه وانما القصد منها الكناية عن علو مرتبته وقربه من الخليفة وقوة تأثيره عليه. ومثل هذه الاستعارة لا يبعد أن يصدر من شخص تعلم في مصر وعرف ما كان للمفتش من نفوذ وتأثير على الخديوي.

وقد روى لي ميرغني السيد الباقر، وهو قاضٍ شرعي سابق ومن أحفاد اسماعيل عبد القادر، وجها آخر للنكبة فقال: ان الخليفة روى في مجلس الآباء: ان اسماعيل الكردفاني اخونا وحبيبنا وما عمل لينا أي حاجة ولكن كلما استشيره في موضوع من المواضيع يبدي لي آراء كثيرة واجد رأيي فيها أضعف الآراء فخشيت أن ينحاز الى الجانب المناوئ لنا وهو جانب الاشراف فيرجح كفته فأحببت أن أبعده.

هذه الرواية تبرز ثلاث نقاط: أولها أن اسماعيل لم يقم بعمل ايجابي يمس الخليفة. وأن سبب النكبة لا يرجع الى الوشاية، وإنما الى ملاحظة الخليفة الشخصية ومعرفة مكمن الخطر منه. وثانيها رجاحة عقله واعتراف الخليفة بتفوقه عليه وهذا أمر نستبعد صدوره من الخليفة. وثالثها أنه اتقى شره بأن أبعده حتى يبعد فرص احتمالات استفادة الطرف المعادي له منه. أي ان نكبته مرتبطة بحركة الاشراف.

ولقد أبدى حايم شاكد[1] وجهة نظر جديدة إزاء أسباب النكبة. فهو يرفض أن يكون احمد علي قد لعب الدور الذي يروى عنه، لأنه يرى بشكل قاطع ان اسماعيل لم يصل قدرا من المرتبة والنفوذ ما يجعله خطرا عليه.

---

(١) شاكد ص ٥٣٢.

ولذلك فانه يرى بعد ان يستعرض ما رواه سلاطين ونعوم أن ما ذهبا إليه، حتى وان أصاب الحقيقة، يبدو مستندا على الاشاعات التي تصور نهاية اسماعيل اكثر من كونه تفسيرًا للاسباب الحقيقية لسقوطه. ثم يقول ان مرد التحول الذي طرأ على وضع اسماعيل قد يبدو في الأمر الذي توافق صدوره مع أمر النفي بجمع نسخ تاريخه - أعني السيرة والطراز - واعدامها وذلك بالرغم من أن هذا التاريخ كان مغاليا في مدح الخليفة. وفي احتماله - وهو احتمال يسوقه بكثير من التحفظ - ان الخليفة قصد أن يقضي على هذا التاريخ لأنه حوى تمجيدا لشخصيات بخلافه وركز على دورها في بناء المهدية. وعلى ذلك فان المقصود هو الكتاب وليس الكاتب.

وفي نظرنا انه لا يمكن نفي التهمة عن احمد علي بهذه السهولة. والقول بالفارق بين احمد علي واسماعيل في المكانة والحظوة لا يكفي، اذ ربما كان مثل هذا الرأي غير ماثل في ذهن احمد علي، أو كان لا يعير هذا الفرق اهتماما طالما أنه يرى مجرد احتمال. وقد وضح من المركز الذي يحتله اسمه في وثيقة إدانة الخليفة شريف واعلام المراكب أنه لم يكن بعيدا عن مركز احمد علي بقدر كاف يطمئن رجلا حذرا وحاذقا في المؤامرة مثل القاضي احمد.

ثم ان ابعاد احمد علي عن المسرح لا يكفي لرفض روايات نعوم وسلاطين. اذ ربما يكون هناك غيره ممن أثارت مكانة اسماعيل حفيظتهم فسعوا بالوشايةواثارة نوازه الخليفة. ويمكن ان نذكر هنا ان اسم احمد علي لا يذكر بالتحديد الا في تاريخ نعوم، اما المصادر الاخرى بما فيها تقرير نعوم، فلا تذكر اسما معينا.

كذلك يمكن ان يقال ان تاريخ اسماعيل لم يكن منتشرا الى هذا القدر الخطير. فهو لم يطبع كما طبعت رسائل زهرا والعبادي والعوام وانما ظل مخطوطا، والمخطوط لا يشجع على الانتشار السريع الواسع. وظاهر من إشارة

سلاطين[1] أن عدد نسخه كان قليلا. ولو كان ما نسخ منه كثيرا لما بلغ الفعل به هذا المدى ولنجا منه أكثر من هذه النسخة الوحيدة. واذا كان هدف الخليفة هو القضاء على الكتاب فقد كان ميسورا ان يفعل ذلك دون ان يمس المؤلف بسوء.

واقعة صدور أمر اعدام الكتاب مع أمر نفيه لا تكفي للدلالة على ان النقمة كانت على الكتاب ثم امتدت الى المؤلف، اذ يمكن ان يقال اعتمادا على نفس المنطق ان النقمة كانت على المؤلف ثم جرت الى الكتاب. بل من الواضح من خلال الملابسات ان القصد هو الكاتب وان الغضب عليه قد استتبع الغضب على ما هو متصل به. ومن الظواهر الغريبة في أمر نكبته أنها لم تترك أي اضطراب في العلاقات بين الخليفة وبين خاله محمد المكي.

ويمكن ان نضيف الى ذلك ان كتاب المؤلف قد كشف عن كثير من ارتباطاته، الأمر الذي اوجد مجالا للقول بأنه متباعد عن الروح السائدة. فهو يظهر موقفا متعاطفا مع اسرة الميرغني ويعتبرهم من أهل الديانة مع انهم اعداء للنظام. وهو لا يمس الاشراف او يدينهم بشكل ملموس وان كان يؤكد في كل مناسبة تخطر على باله المركز الديني للخليفة وما يستتبع ذلك من الانقياد له والخضوع لأوامره. ومع أنه كان حريصا على الا يثير عصبية البقارة وعلى ان يمدح قادتهم مثل حمدان والزاكي طمل وعثمان آدم، الا ان صورته لا تبدو مرضية بالنسبة للدور الذي لعبه قادة الاشراف وأولاد البلد في معارك المهدية الاولى، وهو الدور الذي يروي المؤلف تفاصيله بحكم معالجته لسيرة المهدي. ومن الملاحظ بشكل واضح أن يعقوب لا يظهر في المسرح بصورة تليق بمركزه المتأخر. وعلى ذلك فان السيرة كانت تحمل صورة لمرحلة ماضية تثير حساسيات المرحلة الباقية. وفي نظري ان حايم شاكد محق في ملاحظته هنا.

---

(١) سلاطين ص٣٠٩/٢٢٣.

على أن هذه الارتباطات، كما تبدو من واقع عرضه للحوادث، والقول بأنه كان يمدح ويغمز ويطعن في المهدية في مواضع ظاهرها مدح وباطنها شك، كانت كفيلة بأن يدعو الى إثارة الظنون حوله وحول ولائه للخليفة وبأن يجعل احتمال انضمامه الى الاشراف احتمالا ماثلا. وهذا في نظرنا هو الذي ادى الى نكبته وربط نفيه مع نفي محمد خالد زقل وزملائه من الاشراف.

مصادر المؤلف:

ان مؤرخ المهدية في وقتنا هذا يجد مصادره ومراجعه ميسرة. ففي دار الوثائق القومية بالخرطوم عشرات الآلاف من الوثائق الأصلية التي خلفتها المهدية بالإضافة الى مئات من ملفات المخابرات المصرية الحربية والتي تتضمن معلومات هائلة عن حركة المهدية وعن السودان في فترة المهدية. وتوجد مجموعات أخرى من الوثائق بجامعة درهام. وكل هذه الوثائق مرتبة ولها مراشد وكشافات تيسر الاستفادة منها. وتوجد مجموعة طيبة - وان كانت قليلة - من الأبحاث حول هذه الوثائق، تصفها وتعرف بها وبمحتوياتها.

وهناك العشرات من الكتب والمقالات التي وضعت عن هذه الفترة.

اما اسماعيل عبد القادر فقد كانت حالته عندما ألف السيرة والطراز على النقيض. فهو أول من ألف كتابا في تاريخ المهدية، ولذلك لم يكن أمامه كتاب مؤلف يهتدي به أو يسير على منواله أو يأخذ عنه المادة التاريخية. وكانت وثائق المهدية بعيدة عن التناول ولم تيسر للدراسة على نحو ما هي ميسرة اليوم بحكم أنها لم تجمع ولم ترتب. ولعل جيل المؤلف لم يكن ينظر الى هذه الوثائق مثل نظرتنا إليها كمصدر للتاريخ بل لعلهم كانوا يفضلون روايات الرواة وأحاديث المشاهدين وما يسوقه المشتركون في الوقائع والحوادث من الأمراء وعلية القوم.

ولذلك كانت الكيفية التي حصل بها على المادة التاريخية حالة فريدة

تستحق ان تدرس وأن يعنى بها عناية خاصة.

ولعل ادراك المؤلف نفسه لهذه الحالة الفريدة هو الذي جعله يكرر في كل طرف من أطراف كتابيه المصادر التي اعتمد عليها للحصول على المادة التاريخية وكيفية تناوله لها.

وقد ذكر المؤلف المصادر التي اعتمد عليها في صورة مجملة في السيرة عندما قال: (وانما تكلمنا على اليسير من سيرته عليه السلام حسبما اطلعنا عليه ورويناه من الثقات من أصحاب المهدي عليه السلام على قدر الطاقة والإمكان وما فتح به علينا المنان)[1]. ويمكننا ان نعلم من هذا الاجمال ان مصادره ثلاثة أنواع: أولها الاطلاع، وهويكون على سبيلين: اطلاعه بنفسه على الحوادث ووقوفه على الاخبار باعتباره مشاهدا ومعاصرا مهتما، واطلاعه عن طريق القراءة. وثانيها ما يسميه الفتح، والمقصود به هو جانب التأليف - جمعا واستنتاجا واستقصاء واستخراجا وعرضا. وقد تعرضنا الى هذا الأمر عندما تكلمنا عن اسلوب المؤلف ومنهجه في التأليف في مكان آخر من هذه الدراسة، فلا نعيد الكلام هنا. أما النوع الثالث فهو الرواية وقد كان عليها جل اعتماد المؤلف.

الاطلاع:

وهو كما قلنا اثنان، المشاهدة الشخصية والقراءة. أما المشاهدة فكانت قدرا عظيما، وخاصة فيما يختص ببعض جوانب السيرة. ولعل أوضح مثال لذلك تلك الصورة الدقيقة التي يرسمها عن مدينة الأبيض وماجرى فيها قبيل حصارها، إذ لا شك عندنا أن وصفه لما كان يجري داخل المدينة من المواقف ومن الاستعدادات يعتمد قبل أي مصدر آخر على مشاهدته الشخصية ووقوفه على الأمور بحكم وجوده في المدينة في تلك الأيام العصيبة.

ومع أن المشاهدة الشخصية كانت مهمة بقدر عظيم في تصور عديد من

---

(١) السيرة ص ٣٧٦.

المواقف والصور فان أثرها لا يبدو بشكل مباشر عندما يروي المؤلف عن هذه المواقف أو يحاول رسم هذه الصور، ذلك لأن المؤلف يباعد بين نفسه وبين ما يرويه حتى أنه لا يكاد يذكر نفسه الا في موضعين، وحتى في الموضعين يذكر نفسه بطريقة عابرة[1].

وفيا عدا هذين الموضعين لا نكاد نتبين وجوده. حتى أنه لا يذكر عن نفسه شيئا عندما يشير الى واقعة التأليف أو فراغه منه مع أن عادة بعض الكتاب قد جرت على أن يذكروا عن أنفسهم عندما يبدأون كتبهم أو يأتون الى ختامها. كذلك لا يذكر المؤلف شيئا عن أقربائه الذين كانوا بالابيض وخرجوا منها فيمن خرج للقاء المهدي مع أن خاله محمد المكي كان يلعب دورا بارزا بين الجماعة التي تميل الى جانب المهدي. وقد خرج على رأس الخارجين.

ونخال أن هذا التباعد مقصود، ذلك لأن ظهور المؤلف في الصورة كان في اعراف المؤلفين من أمثاله يعد اقحاما لشخص المؤلف في السيرة واستبدادا بالنفس. وفي ذلك تقليل من شأن سيرة المهدي في حين أن الأنصار كانوا ينظرون الى هذه السيرة بقدر عظيم من التقديس. والتواضع في مثل هذه المواضع اليق بالمؤلف الحصيف. وفيا فعله ود ضيف الله عندما اعتذر لنفسه قبل أن يسوق ترجمته في مقدمة الطبقات مثل لتواضع المؤلف واكبار لمن يكتب عنهم.

اما المؤلفات التي وقف المؤلف عليها واستفاد منها عندما ألف السيرة فبعضها مذكور في السيرة والبعض الآخر غير مذكور ولكن يمكن ادراكه بالاستنتاج.

فهو يذكر في السيرة: الراتب والامداح والمراثي ونصيحة العوام وجامع المنشورات.

---

(١) السيرة ص ٨٤ و٢١٢.

اما الراتب[1] فكتاب دعوات وتوسلات، ولا نخال أنه أفاد المؤلف بمادة تاريخية، ولكنه ينوه به باعتباره اثرا عظيما وعملا روحيا مجيدا.

والمقصود بالأمداح القصائد التي قالها الشعراء في مدح المهدي سواء كان بالفصحى او باللهجة العامية. ونحن نخالف المؤلف عندما يزعم أن هذه المدائح قد جمعت أو أفردت في الدواوين، ونقول انها لم تجمع بهذا النحو الى هذا اليوم. ولعل ما ذهب إليه قد يعني وجود الرغبة في جمع المدائح على النحو الذي جمعت به رسائل المهدي. وعلى أي، فانه لا يبدو من واقع السيرة أن المؤلف قد استند في جمع المادة التاريخية على قصائد المديح، كما يبدو واضحا انه لا ينقل طرفا منها.

وكذلك الأمر بالمراثي التي قيلت في وفاة المهدي، فانها لم تجمع في الدواوين على نحو ما يروي المؤلف[2]، ولكنها كانت كثيرة. وقد نقل المؤلف منها مرثية واحدة هي مرثية ابراهيم شريف الدوليبي[3]. وفي ظننا أنه لم يجد غيرها عند التأليف فاقتصر عليها.

أما كتاب نصيحة العوام فيطرح قضية هامة وهي بطلان خلافة آل عثمان من الوجهة الشرعية واثبات شرعية الخروج عليها وقتالها وبالتالي بطلان السند الشرعي لنظام الخديوية في مصر وجواز القتال من أجل اسقاطها، وهي قضية تتفق مع حال المهدي ومناداته بالقضاء على نظام الترك بحد السيف. وقد ذكر المؤلف العوام ونصيحته فقال: «ثم بعد كتابي هذا وجدت الرسالة المسماة بنصيحة العوام للخاص والعام عند التكلم على واقعة أبا ما لفظه...»[4]. وبعد أن نقل الشطر الذي يريده تكلم عن العوام كلاما قصيرا. وفي نظرنا ان ما أخذه المؤلف من نصيحة العوام كان قليلا، لقلة ما في هذا الكتاب من المادة

---

(١) السيرة ص ٩١.
(٢) السيرة ص ٣٩٩.
(٣) السيرة ص ٣٩٧ - ٣٩٩.
(٤) السيرة ص ١٣٤.

التاريخية المتعلقة بسيرة المهدي. ولعله يأخذ عنه ما يرويه عن فتوى بعض علماء مصر بتأييد ثورة عرابي. وقد احتج المؤلف عليهم لأنهم جوزوا الخروج على سلطة الخديوي في حالة عرابي ثم أنكروه بالنسبة للمهدي[١] مع أن الأمر واحد.

ويذكر المؤلف جامع المنشورات فيقول في موضع: «ومن اراد الاطلاع على جميع ذلك فليراجع جامع المنشورات»[٢]، ويقول في موضع آخر: «وأما جميع منشوراته عليه السلام، فيضيق عنها نطاق هذه الورقات. فانها تحتوي على عدة مجلدات كما يعلم ذلك من الاطلاع على جامع المنشورات»[٣].

وقد وضح لنا من نصوص المنشورات التي ينقلها أنه ينقل منشور الدعوة من كتاب المنشورات وأنه ينقل رسالة المهدي الأولى الى غردون من الطبعة الاولى من كتاب الانذارات. ولكنه بالتأكيد لا ينقل منشور المهدي عن منصب الخليفة عبدالله ومكانته من الأجزاء المطبوعة. وفي ظننا أنه نقل نصه من مصنف مخطوط، كذلك ينقل المؤلف نص رسالة المهدي الى النجومي وحمدان مع أنه لا يرد في الأجزاء المطبوعة. وهذا يؤكد أن مصنفا مخطوطا كان متوفرا له.

ومما يلفت النظر ما يرويه عن انذار المهدي لأهل الابيض. فهو يذكر ان المهدي كتب انذارين: احدهما لمدير الابيض والآخر لأعيان الابيض. ولكن الحقيقة أنه كتب انذارا واحدا ووجهه للحكام والاهالي معا. وهذا أمر غريب لأن الكردفاني كان بهذه المدينة عندما جاءها هذا الانذار. ثم انه يقول: «ولم أقف الآن على الكتابين المذكورين حتى نكتبهما في هذه السيرة ولعلي نجدهما بعد ذلك فنثبتهما بخطهما (يقصد بحرفهما) كما التزمنا بذلك».

(١) السيرة ص ١٥٧.
(٢) السيرة ص ١٠٥.
(٣) السيرة ص ٣٧٦.

ووجه الغرابة في هذا أن الانذار وارد في كتاب الانذارات ونحن نرى احد وجهين: إما أن هذا الكتاب لم يكن متوفرا لديه اثناء الكتابة، وإما ان المؤلـف لم يعرف ان هذا الانذار وارد فيه.

على أنه يجوز لنا مما تقدم ومن استعانة المؤلف في الطراز بما صدر من المنشورات المطبوعة أن علمه بما طبع كان جيدا وأنه وقف ايضا على مصنفات مخطوطة وعلى وثائق أصلية صدرت من المهدي.

وهناك مصادر غير هذه اعتمد عليها المؤلف وان لم يورد ذكرها بشكل ظاهر. ومن قبيل ذلك مجالس المهدي، وهي مصنفات تعنى بجمع مأثورات المهدي، اذ يفهم من إشارة غير مباشرة إليها أن المؤلف وقف عليها[1].

ويورد المؤلف مادة تتعلق بالمهدي المنتظر والأحاديث الواردة فيه. وقد كانت هذه المادة متداولة في السودان في تلك الفترة. وقد وضع في موضعه عالمان من علماء المهدية سفرين جليلين هما الآيات البينات والأنوار السنية. ومن المؤكد أنه وقف على السفر الأخير وذلك بدليل أنه كتب تقريظا يرد في نهاية هذا الكتاب. وهناك احتمال في أنه وقف على الآيات البينات وعلى المصادر الأخرى المتداولة في موضوع المهدي والمهدية.

وقد استفاد المؤلف استفادة غير مدروكة الحد من ديوان المهدية، فهو يذكر ختم المهدي[2]؛ وقد تبين لنا أنه وقف على المنشور الذي أصدره الخليفة مصورا فيه انقياد الاتباع له بانقياد المصلين لامامهم. كذلك نعتقد أنه حصل على وصف وقائع شرق السودان من هذا الديوان.

وقد كان أهم مصدر اعتمد عليه رواة الاخبار من الأمراء والأعيان. وقد روى نعوم أن الخليفة كتب الى جميع العمال في الجهات فأرسلوا إليه التقارير الوافية عما جرى على أيديهم من الوقائع والفتوحات وجمع إليه من كان في أم

---

(١) السيرة ص ٩٨.

(٢) السيرة ص ١٠٧.

درمان من القواد والمحاربين. وسواء صح أن اسماعيل أخذ عن هؤلاء بهذه الصورة أم لم تصح فان المؤكد هو أنه أخذ جل مادته من الرواة.

وقد أشار الكردفاني نفسه الى هؤلاء كلما ذكر واقعة من الوقائع، يذكرهم احيانا في أول كلامه وأحيانا يذكرهم في آخره. وحتى تلك التي نعتقد أنه أخذها عن نصوص مكتوبة ينسبها الى الرواة. وهو غالبا يشير الى الرواة بالثقة أو الثقات. ثم انه يذكر صراحة انه بعد ان يجمع مادته من مصادر متفرقة يجمعها في سياق واحد. وقد لاحظ شاكد بحق أن إشارته الى الثقات قبل واقعة الجمعة أكثر من إشارته إليهم بعدها ولكننا نختلف معه عندما يعزو ذلك الى أن المؤلف كان بعد هذه الواقعة مشاهدا للحوادث. وعندنا أن هذا راجع الى طبيعة الفترة التي سبقت واقعة الجمعة وغموضها وقلة مصادرها المكتوبة واعتماد المؤلف في وصفها على الرواية وحدها.

ولعل أهم مصدر مكتوب استعان به الكردفاني وصف وقائع شرق السودان والذي يعرف بدفتر وقائع عثمان دقنة. ونشرناه بعنوان مذكرات عثمان دقنة. وكان الظن بي أن هذه الوقائع من وضع محمد المجذوب بن الطاهر المجذوب ولكني في النهاية تشككت في الأمر واعتبرت ان محمد المجذوب قد يكون كاتب الوقائع أو قد يكون ناقلا عن كاتب آخر.

والذي يبدو ان خطابات في وصف وقائع الشرق قد اعدت وأرسلت الى المهدي. ويبدو ان ذلك كان بناء على إلحاح المهدي ومؤاخذته الأمير عثمان دقنة لعدم ارساله أنباء الحركات. ففي رسالة من المهدي الى عثمان دقنة يشكو المهدي من قلة مكاتباته ويطلب ان يمده بالاخبار ويشير الى ما بلغه عن القضاء على الجردات الأربعةوالعجائب التي وقعت ثم يرسل له جوابا من محمد خالد زقل يسرد فيه وقائعه وطالبا منه ان يفعل مثله[1]. ويبدو أن عثمان قد

(١) المرشد الى وثائق المهدي رقم ٢٥٦ ـ رسالة من المهدي الى عثمان دقنة في ٢٠ جماد أول ١٣٠١/ ١٨ مارس ١٨٨٤.

تأثر بذلك وعزم على عرض الوقائع ومن ثم جاءت هذه الخطابات الموجهة الى المهدي والتي وصفت الوقائع وصفا طويلا. وهذه الخطابات غير مؤرخة ولكنها صادرة احتمالا بعد تاريخ خطاب المهدي الذي عاتب فيه عثمان ورجا أن يخبره بوقائعه، أي بعد ٢٠ جماد أول سنة ١٣٠١هـ، وقبل رمضان سنة ١٣٠٢هـ، وهو تاريخ وفاة المهدي.

وقد وجدت مصدرين عن هذه الخطابات: أما أولها فشتات من الورق وقصاصات حصلت عليها من أحد أحفاد خليل بادي ببارة. وكان خليل بادي أمير مطبعة المهدية بينما عمل أخواه فوزي محمود واحمدي محمود في ديوان المهدي والخليفة. وكان مع هذه الأوراق والقصاصات بعض قصاصات اخرى هي بقايا دفاتر صادر ووارد وخطابات، وهي بالتأكيد من أوراق ديوان المهدية. والجزء الخاص بوقائع الشرق مكتوب بخط أحد كتاب الديوان ويبدو أنه جزء من سجل الوارد. وعلى ذلك فان النص الذي يرد فيه هو النص المطابق لما ورد من الشرق أصلا.

وتتكون الكراسة من سبع ورقات من الحجم الكبير، وورقه مأخوذ من فتر حسابات من النوع الذي يعرف بدفتر الاستاذ. ويبلغ المكتوب ١٣ صفحة، وفي كل صفحة ٣٥ سطرا. وكتابتها واضحة ومقروءة الا في بعض مواضع قليلة. ويرد فيه ثلاثة خطابات كلها من عثمان دقنة الى المهدي. أما الخطاب الأول فيبدأ بوصول عثمان الى الشرق موفدا من قبل المهدي وينتهي بذكر واقعة تهشيم وملخص للوقائع التي سلف وصفها. ويرد الخطاب الثاني بعد الأول مباشرة (ص١١) وهو يبدأ بعودة المحاربين من تهشيم الى هندوب. الا أن الجزء الأكبر من هذا الخطاب قد سقط، وما بلغنا منه يبلغ ٢٨ سطرا فقط وهو قليل بالقياس الى طول الخطاب الأول. وفي الصفحة التالية (ص١٢) نجد الخطاب الثالث، وقد سقط أوله، غير أن هذا السقط لا يتعدى الديباجة واسم المراسل، وهما معروفان عندنا سلفا. وقد بدأ الوصف بواقعة صغيرة في اربعات. ثم انتهى الخطاب (في ص١٣) بقوله: «والى هنا انتهى ما كان من

أخبار هذه الجهة، ولنذكر اخبار اهالي الهباب ـ يقصـد الحبـاب ـ مـن الجهـة اليمانية»، ثم يتوقف. ويبدو من هذا التوقف أن الخطاب غير كامل وأن نقل بقيته قد أرجئ لسبب من الأسباب.

ومن حسن الحظ ان الكردفاني وقف على نصوص كاملة. وعلى ذلك يمكننا أن نعوض ما يسقطه الدفتر.

ولقد أشار ونجت في مذكراته التي كتبها بعد واقعة عفافيت الى هذا الدفتر ويبدو واضحا من وصفه لها ان حالته المدنية عندها كانت مثلما هي الآن، أي أن عدد الصفحات لم يتغير. وقد اورد في كتابه ترجمة الخطاب الأول[1] بينما ترك الخطابين الآخرين بحجة أنه نقل مضمونها في صلب كتابـه. ولكن السبب الحقيقي الذي حدا به هو أن الخطابين كانا ناقصين الى حد لا تفيد ترجمة ما تبقى.

والظاهر أن الكردفاني قد وقف على هذه الخطابات. والاحتمال الأكبر هو أنه وقف على النص الذي ورد الى الديوان. وعندما قارنا بين نص الكردفاني ونص كراسـة المجـذوب ونـص القصـاصـات وجـدنـا بعـض اختلافـات. والاختلاف بين الكراسة وبين القصاصات قليل لأنه لا يعدو تعديل لفظ بلفظ او تعبير بتعبير، أما الفرق بينها وبين الكردفاني فيتعدى أحيانا الى المادة ذاتها اذا كانت تمس بعض ما لا يرغب.

كيف استقى الكردفاني معلوماته عن هذه الوقائع؟ لقد اعتمد عليها اعتمادا كليا ونقل عنها نقلا مباشرا ولكنه لم يشر إليها ولم يذكر أنه وقف على مصدر مكتوب، بل اكتفى بقوله انه أخذ عن الثقة من الأصحاب[2] كعادته في المواضع المختلفة. ولكن هذا الطرف من المخطوط متميز عن الأطراف الأخرى بحكم أنه يورد وقائع مفصلة ومدعمة بأسماء الاعلام والأماكن

(١) ونجت: المهدية في السودان المصري ص٥٠٩ ـ ٥٢١.
(٢) السيرة ص ٢٨٢.

والتواريخ واعداد الجيوش المتحاربة والقتلى والأسرى.

ويكاد الكردفاني أن ينقل من هذا المصدر لفظا لفظا الا عندما يختلف عنه في رأي. فالوقائع تشير الى اتباع المهدي الذين يحاربون تحت راية عثمان بلفظ الفقراء بينما يشير إليهم الكردفاني بلفظ الأصحاب. وفي هذا تطور واضح في الاصطلاح. ففي الوقت الذي كتبت فيه الوقائع كانت الثورة ثورة دينية، أي ثورة فقراء، وكان أغلب المحاربين في الشرق هم أتباع المجاذيب ولذلك سماهم صاحب الوقائع الفقرا. أما الكردفاني فلا يرى صفة (الفقرا) وانما يرى فيهم صفة الاصحاب، وذلك لأن نفوذ الفقرا قد قل، وقد ذاب نفوذ المجاذيب قليلا. والأمر قد أضحى دولة أصحاب المهدي من فقرا وغيرهم. وقد تطور الأمر في العهد الثنائي وصار التعبير الشائع هو الانصار. أما أعداء الانصار فقد سموهم الدراويش أو المهدويين وما الى ذلك من التعابير.

وهناك اختلاف أيضا إزاء الختمية. فالختمية قد عملوا بكل جهد للوقوف ضد المهدية، وقد عاونوا كثيرا في التحريض عليها بالحيلة والعمل المباشر. وكانت المنافسة بينهم وبين المجاذيب شديدة وحامية. ولما جاءت المهدية وقف المجاذيب معها وعملوا لنشرها، ولذا تطاحن المجاذيب والختمية واصطدموا في المهدية مثلما تطاحنوا من قبل واصطدمت مصالحهم. ولما تعرض صاحب الوقائع لوصف المعارك سجل نشاط الختمية المناوئ وأوضح دوره بشكل بارز. وهذا حق لا مراء فيه. غير انني المح أن الكاتب، وهو من المجاذيب، لأن هؤلاء كانوا مسيطرين على ديوان دقنة، حاول أن يعرض أمرهم بشكل بارز لأنهم أعداؤه وينبغي اظهار دورهم العدائي ولأن ابراز هذا الجانب يخدم قضية المجاذيب في معسكر المهدي ويضر بموقف الختمية، لأنه يظهر الأوائل بمظهر الحليف المؤيد ويظهر الآخرين بمظهر العدو اللدود. أما اسماعيل الكردفاني فقد وقف موقفا مغايرا. فجده اسماعيل الولي هو تلميذ محمد عثمان الميرغني، جد الختمية، في الطريقة، وكانت العلاقة بين الختمية والاسماعيلية وثيقة. وكان خاله محمد المكي هو المشرف على أحمد الميرغني وعلى تربيته

بتكليف الخليفة عبدالله. ولذلك فانه حاول أن يحافظ على هذه العلاقة التاريخية والأثرية عن طريق السكوت عن تصرفات الختمية. فهو يحاول قدر جهده أن يسقط دورهم في الوقائع وأن يتفادى ذكرهم. أما اذا اضطر بحكم أن الواقعة مهمة وكبيرة فانه يشير إليهم بقوله بعض أهل الديانة. وتعبير أهل الديانة تعبير جديد وطريف. فالمهدية تعرف الانصاري التابع للمهدية وهو المسلم الصحيح. أما ما عداه فكافر. فإذا جاء الكردفاني ووضع تعبيرا يضع هؤلاء الخارجين في داخل الديانة أي الاسلام دون أن يكونوا من أصحاب المهدي ومع أنهم يشهرون السيف أمامهم فان تعبيره هذا يدل على تعاطف واضح وعلى وضعية لرجال الدين المخالفين تختلف عن موقف المهدية ازاءهم.

وهناك اختلاف في تقدير الوقائع، اذ يعتبر الكردفاني واقعة قباب وحصار سنكات وواقعة بنت وحصار توكر وواقعة التيب واقعة واحدة لأنه قال في نهايتها: «انتهى ما يتعلق بقباب كلها تحت باب سرية عثمان». وهذا يختلف عن الوضع في الوقائع اذ اعتبر كلا منها واقعة منفصلة. كذلك نجد اختلافا إزاء واقعة كسلا. فالوقائع تتكلم عن وقائع كسلا كواقعة وتفرد لها كلاما متصلا. أما الكردفاني فقد ذكر كسلا ضمن الوقائع وعقب بأنه سيأتي بيان تسليم أهلها. ومع ذلك فانه لا يذكر الواقعة في ملخص واقعات عثمان دقنة[١] وانما يفرد لها كلاما بعد ذلك[٢]. والأمر ان الوقائع عدت وقائع كسلا ضمن وقائع الشرق، ولذلك أوردتها ضمنها وأعطتها حيزا بمقدار ذلك. أما الكردفاني فيبني بناءه على أساس الوفد الذي أرسله المهدي، ولذلك يأخذ الكلام عن كسلا مكانا مستقلا عن وقائع دقنة لأن السيرة مبنية على أساس السرايا والبعوث وليس على الجبهات. وقد جاء كلامه عن كسلا مقتضبا. وفي نظرنا انه فعل ذلك ليتفادى ذكر الختمية ولأنه لا يهتم بالوقائع التي تقع في الجهات قبل وصول السرايا والمبعوث.

---

(١) السيرة ص ٢٧٧ - ٢٧٩.

(٢) السيرة ص ٢٨٢.

اذا نستطيع أن نقول ان الكردفاني يرى وقائع الشرق في وجهين: وجه بقيادة عثمان دقنة، ووجه بقيادة الوفد الذي أرسله المهدي لاستلام كسلا.

اعماله:

كان أبرز أعماله كتابيه سعادة المستهدي والطراز، وقد تكلمنا عنهما كثيرا في هذه الدراسة ـ فلا حاجة بنا الى مزيد هنا.

وهناك كلمة تقريظ لكتاب «الأنوار السنية الماحية لظلام المنكرين على الحضرة المهدية» للحسن سعد العبادي. وقد وردت هذه الكلمة في نهاية الكتاب[1]، وهي تتكون من مقدمة قصيرة تتلوها قصيدة تنوه بشأن الكتاب وكاتبه وتؤرخ تاريخ كتابته على الوجه الذي كان شائعا في ذلك الزمن، أي باستعمال حروف الجمل.

ثم قصيدته المشهورة في قبة المهدي: سمت قبة المهدي مجدا وسؤددا. وقد نقلها في السيرة[2].

ويقال ان له قصيدة نشرت في مجلة الجوائب المصرية بعد ان فازت بالمرتبة الاولى في مسابقة شعرية أجرتها هذه المجلة. وكان اسماعيل عندها طالبا بجامعة الأزهر.

ويذكر حفيده حسين المفتي مؤلفاته فيقول: «كما ان المؤلف قد وضع قبل ذلك (يقصد قبل سعادة المستهدي) وبعد ذلك عدة كتب علمية وتاريخية منها كتابه «الطراز المنقوش ببشرى مقتل (الصواب قتل) يوحنا ملك الحبوش»، ولم يطبع كتبه لعدم امكان ذلك اذ ذاك وضاعت كلها في أيام الثورة المهدية كما ضاعت عدة قصائد له منها قصيدته التي أنشدها عام

---

(١) الانوار السنية ص ٢٦٢ ـ ٢٦٥.

(٢) السيرة ص ٤٠٢ وما بعدها.

١٨٩٠م الموافق ١٣٠٨هـ، في رثاء خاله العلامة السيد البكري ابن الشيخ اسماعيل الولي ومطلعها:

الى متى أنت بالآمال مغرور وخالك السيد البكري مقبور

ولم يبق من قصائده الا ما حفظه بعض الناس. ومن ذلك هذه القصيدة التي أنشدها في عهد المهدية في سنة ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٧٧[1] ثم نقل قصيدة سمت قبة المهدي.

وقد اشترك اسماعيل مع عدد من العلماء والأعيان في اصدار وثيقتين من أخطر وثائق المهدية وهما الاعلام الصادر بشأن محاكمة الخليفة شريف والقضاء بسجنه والاعلام بصدد ضم المراكب الخاصة الى بيت المال. والاعلام الاول مشهور وقد نقله نعوم شقير في تاريخه، وتوجد منه نسخ مطبوعة بالحجر بدار الوثائق القومية، ويرد نصه ايضا في كتابنا «منشورات المهدية». اما الثاني فتوجد منه نسخة وحيدة وقد ظهرت مصورة مقابل صفحة ١٩٥ في مقال الدكتور هولت عن وثائق المهدية وما يتصل بها.

غير أنه من الصعب ان نعتبر الوثيقتين من أعماله. فهما أولا: وثيقتان رسميتان، وقد صدرتا لاقرار اجراءين اتخذا بوجه رسمي باشتراك عدد كبير من العلماء والأعيان، وبالتالي لا يصح أن نعتبرهما عمل فرد منهم. وهما ثانيا: مجهولتان من ناحية الانشاء، لأننا لا نعرف الكاتب أو الكتاب الذين اسهموا في كتابة نصيهما. قد يكون اسماعيل كاتبهما، وقد يكون مشتركا مع غيره في كتابتهما، وقد لا تكون له صلة بالتحرير قط، اذ كل ما في الأمر أنه أحد العلماء والأعيان الذين تتكلم باسمهم الوثيقتان.

---

(١) القضاء ص١٤٣.

تاريخ السيرة:

أرجع سلاطين تاريخ السيرة الى عهد المهدي. فهو يذكر أن الكردفاني كتب جانبا من السيرة وعرضه على المهدي وأن الاخير اغتبط بما كتب الكردفاني وطلب إليه أن يواصل الكتابة حتى يؤرخ الوقائع كلها كما حصلت، وأنه طلب من الأمراء أن يعطوه البيانات. ولما توفي المهدي عينه الخليفة مؤرخا وطلب إليه مواصلة الكتابة[1]. ولكننا لم نرَ مصدرا آخر يشارك في هذا الرأي.

والقول بأنه عين مؤرخا يحتاج الى دليل، ذلك لأننا لا نعهد مثل هذه الوظيفة في المهدية. وكان عمل الكردفاني في السلك القضائي كما بينا. ويبدو لنا أن سلاطين تأثر في ذلك بما يعرفه عن مؤرخي القصور في أوربا.

أما نعوم فيذكر أنه كتب في عهد الخليفة، ويقول بأنه كتب طرفا وعرضه على الخليفة فشجعه الأخير على مواصلة الكتابة، وهذا الرأي يتفق مع ما يذكره المؤلف نفسه.

ويذكر المؤلف ان كتابة السيرة قد تمت في ٣ ربيع أول ١٣٠٦هـ ولكنه لا يذكر بدء الكتابة. وقد ذكر شقير في تقريره أن التأليف قد استغرق نحو ثلاث سنوات بينما ذكر في التاريخ أنه أخذ عشرة شهور. ومع أننا لا نجد دليلا قاطعا للترجيح بين الرأيين أو لبيان رأي مختلف فاننا نميل الى الرأي الأخير، ذلك لأن أسلوب الكتاب يدل على أنه كتب بنفس واحدة وفي وقت متقارب.

ويذكر الكردفاني صراحة أنه وضع السيرة بتكليف الخليفة فيقول: «وقد أشار إلى من سعدت الأكوان بامتثال راسمه واستنارت البلدان بنيران هدايته ومعالمه... الخليفة الأكبر وارث مقام الاصطفاء... سيدنا الخليفة عبدالله بن

---

(١) سلاطين ٣٠٩/٢٢٣.

محمد خليفة الصديق... أن أجمع بعضا من سيرته عليه السلام».

وقد روى حسين المفتي[1] عن ظروف التأليف ما يلي: «اجتمعت بالعلامة الاستاذ الشيخ المجذوب مدثر ابراهيم الحجاز من علماء السودان والمدرس بالمعهد العلمي بأم درمان. اجتمعت معه بمنزله بمدينة بربر في شهر ديسمبر ١٩٥٣ وكنا نتكلم في مسائل علمية وبعد أن تم الموضوع أخبرني أنه قد سمع من سيادة والده المرحوم الشيخ مدثر ابراهيم سليمان الحجاز أن خليفة المهدي لما رأى ضرورة وضع كتاب في سيرة المهدي انتهز فرصة وجود جميع العلماء بمجلسه بالجامع فخاطبهم جميعا بقوله: من منكم أيها الأنصار يقوم لنا بوضع كتاب عن سيرة المهدي عليه السلام؟ قال لهم ذلك وهم جاثون على ركبهم منكسو الرؤوس. فسكت الجميع قليلا ثم قالوا للخليفة لا يستطيع أحد أن يقوم بذلك خير قيام غير اسماعيل عبد القادر فوافق الخليفة على ذلك. ثم شرع المؤلف في تأليف الكتاب». هذه الرواية تؤكد بأن بحثا قد جرى عن تأليف السيرة بعد وفاة المهدي وأن الاختيار قد وقع على اسماعيل وأنه شرع في التأليف بعد أن أمره الخليفة. غير أني لا أتصور أن يسأل الخليفة الجمع بهذه الكيفية كما لا أتصور أن يتفق رأي الجميع، وهم جاثون على الركب، بأن لا أحد يستطيع أن يقوم بذلك خير قيام الا الكردفاني.

واذا ما انتقلنا الى دواعي التأليف فان أول ما يذكر هو هذا التكليف الذي جاءه من الخليفة. وهي: (أ) كما أن سيرة الرسول قد بقيت بفضل تسجيل الصحابة لها فان سيرة المهدي تبقى بالتسجيل[2]. (ب) ان بيان سيرة المهدي واذاعتها بين الناس من أوكد الأمور الدينية[3]. (ج) ان هذا البيان هو الذي يحفظ هذه السيرة الجليلة من التحريف[4]. (د) وان نشر السيرة

(١) القضاء ص ١٤٢.
(٢) السيرة ص ٦٣.
(٣) السيرة ص ٦٣.
(٤) السيرة ص ٦٣.

يؤدي الى تأكيد محبة الاتباع: (تأكيدا لمحبتهم وزيادة في تصحيح عقيدتهم وليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ويحوزوا بذلك مزيد بيان على بيانهم)[1]. (هـ) زيادة الرجاء لأن ينتظم في سلك أصحاب المهدي بفضل هذه السيرة وما يناله منها من الثواب والشرف[2]. ومع أن الكتاب وجد استقبالا طيبا ودفع بصاحبه الى مكانة مرموقة، مما دعاه الى تأليف كتابه الآخر عن الحروب الحبشية، الا انه لم يقدر له أن يطبع في المطبعة. ويبدو لي ان السبب يعزى الى توقف المطبعة عن طبع الكتب نسبة الى شح الورق.

وقد تولى محمد احمد هاشم (بمعاونة شخص آخر) نقل نسخته في ١٠ محرم ١٣٠٨هـ الموافق ٢٦ أغسطس ١٨٩٠[3]، وهي النسخة الوحيدة التي بقيت من الكتاب. أما النسخ الأخرى، وهي لم تكن كثيرة فيما يفهم من إشارة سلاطين وفيما يؤخذ من ظروف النقل العملية، فقد احرقت بأمر الخليفة أثناء النكبة التي حلت بالمؤلف.

وقد تمكن نعوم من شراء النسخة الوحيدة منه بعد مجهود كبير وكان ذلك في ١٨٩٥ وهو بمصر. يقول نعوم في ذلك: «وقد بلغني خبرها (يعني السيرة) وأنا في قلم المخابرات في مصر أتحرى وقائع الثورة من الضباط والعساكر الذين نجوا من الاسر فبحثت عنها مستعينا بالتجار الذين يترددون الى السودان حتى ظفرت بها فإذا هي مع كثرة ما فيها من الاطراء والتملق للمهدي وخليفته، وقد ضمنت الحقيقة أحسن تضمين وانطبقت حقائقها على ما تحريت جمعه في مصر فزدت به ثقة واستشهدت بالسيرة في مواضع كثيرة من التاريخ»[4].

---

(١) السيرة ص٨٣.

(٢) السيرة ص٦٤.

(٣) الطراز ص١٨٣ ـ لا يذكر الناقل واقعة نقله ولا زمنها في السيرة. وهذا قد يعني انه يعتبر السيرة والطراز عملا واحدا، وهو الرأي الغالب فيما بينا.

(٤) تاريخ نعوم ص١١٧٦.

ولقد كان تقدير نعوم له عظيا. ويبدو ذلك مما كتبه عنه في تقريره. وهو يضع المؤلف في مصاف ابن الأثير وأبي الفدا وابن خلدون والمقريزي. وبعد ذلك اختفى الكتاب حتى ظهر ضمن مجموعة وثائق ونجت باشا التي اهداها ابنه الى مكتبة كلية الدراسات الشرقية بجامعة درهام بانجلترا. ويبدو لي من ذلك أن مكتب المخابرات هو الذي اشترى السيرة وليس نعوم بشخصه وأنها بقيت ضمن مجموعة كتب ومذكرات المخابرات التي بقيت عند ونجت[1] وأهديت الى هذه المكتبة.

ومنذ ظهوره هناك بدأ يلفت أنظار المؤرخين ويدخل ضمن اهتماماتهم. وكان أكثر من اهتم به الدكتور حاييم شاكد الذي أرسل إليّ مشكورا دراسته المنشورة عن السيرة ومقالا آخر عن صورة مهدي السودان كما يستوحيها من السيرة. وقد استعنت ببحثه الأول كثيرا ولكني لا أعلم ان كان قد أجرى تحقيقا لنصوص السيرة نفسها[2].

ومما يجب ملاحظته أن من تكلموا عن السيرة أغفلوا ذكر كتاب الطراز. وقد قمت بتحقيق الكتاب الاخير بالاشتراك مع الاستاذ محمد سعيد القدال بتكليف شعبة أبحاث السودان.

وصف السيرة:

توجد النسخة الوحيدة من السيرة في مكتبة الدراسات الشرقية بجامعة درهام تحت رقم: صندوق ٩٩/٦ ومع السيرة كتاب الطراز. وتوجد أوراق تتعلق بالسيرة تحت رقم صندوق ٢٤٧/٤.

وتتكون النسخة من ٤٠٥ صفحات. ومسطرتها تتفاوت بين ١٥ و٢٤

---

(١) Hill, Richard: Provisional Hand-list, Durham: Sudan Archives.

(٢) نشر شاكد بحثه فيا بعد، وهو جيد الاعداد. وقد طبع في نيوجرسي بالولايات المتحدة الاميريكية في ١٩٨٧، وعنوانه: The Life of the Sudanese Mahdi.

سطرا لتعاقب ناقلين. وصفحاتها مرقمة ومعقبة معا. وقد سقطت ورقة واحدة (ص٨٣/٨٤) بينما تكررت صفحة اخرى، وربما وقع هذا التكرار في النسخة المصورة التي اعتمدت عليها. وقد جاء في اولها العنوان كاملا كما يرد في نهايتها تاريخ الفراغ من التأليف. أما تاريخ النقل فلا يذكر. وكذلك لا يذكر تاريخ بدء كتابة السيرة. كذلك يغفل الناقلان ذكر اسميهما. ولكننا نعلم أن أحدهما هو محمد أحمد هاشم الذي تولى أيضا نقل كتاب الطراز[١]، وقد تولى نقل الصفحات ١ إلى ٢٨٠ و٣٠٥ الى ٣٠٨ و٣٦٩ الى ٤٠٥ بينما تولى الآخر نقل الصفحات ٢٨١ الى ٣٠٤ و٣٠٩ الى ٣٦٨. وظاهر ان الشق الأكبر من نقل الأول. ويأتي في الهامش بعض التعليقات والتنبيهات، ولكنها قليلة وعديمة الجدوى.

وتتكون مادة السيرة من اربعة عناصر رئيسية:

أولها التعريف بأجزاء الكتاب والظروف التي دعت الى وضع السيرة.

وقد جاء ذلك في خطبة الكتاب. أن السيرة، فيما يذكر صاحبها في الخطبة وفيما يظهر من السياق، تتكون من مقدمة وثمانية أبواب وخاتمة. ويضاف اليها الخطبة نفسها.

اما الثاني فهو الجانب الذي يتصل بفكرة المهدية. وقد أتى الكردفاني بمعظم ما يتعلق بهذه القضية في الطرف الأول من الكتاب (المقدمة والباب الاول الى الثالث). وكانت الخطة التي سار عليها هي عرض الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر وشروطه وأقوال السلف عنه ثم بيان مطابقة كل ذلك في شخص مهدي السودان: محمد المهدي بن عبدالله، وذلك فيما يتصل بأوصاف الخلقة البشرية والخلق النفسي وظروف المولد والنشأة كالنسب والاسم ومكان الظهور ووقته ثم سيرته. ثم تكلم عن الخلافة الكبرى التي تقلدها المهدي وهي

(١) ثبت لنا ذلك من مضاهاة خط السيرة والطراز بخط محمد احمد هاشم الذي يوجد نموذج من خطه بدار الوثائق القومية.

الخلافة الكاملة للرسول والتي بشر بها بعض الصوفية، كما تكلم عن العصمة والغاء المذاهب وابطال الطرق وعن وراثة المهدي للنبي وعن وزراء المهدي وعن علامات المهدي واقتفائه لأثره.

وفي ظننا أن محصول الكردفاني عن المهدي والمهدية كان محصولا طيبا وأنه نجح - بالقياس إلى الحيز الذي خصصه - في أن يعطي تفصيلات كثيرة.

ونأتي الى العنصر الثالث وهو قصة المهدي والثورة المهدية والوقائع التاريخية التي وقعت في حياة المهدي.

لقد تكلم المؤلف عن حياة المهدي الاولى وأعطى تفصيلات وافية عن دعوته السلمية للاصلاح (الباب الثالث الى الخامس). ثم أخذ يتتبع وقائع المهدية من أبا الى قدير ثم إلى كابا متتبعا تحركات المهدي. ثم يتوقف قليلا ليروي عن حروبات كردفان. وعند ذكر التيارة يخرج عن خطته ليتكلم عن المنا اسماعيل حتى مقتله. ثم يعود ليصف مدينة الابيض واستحكاماتها ويروي الكثير عن أهلها وحوادثها الداخلية. وينبغي أن نلاحظ هنا أنه يصف الحالة بتباعد مع أنه كان مشاهدا وكان من بين من كانوا بالمدينة ثم خرج منها فيمن خرج ليلحق بالمهدي.

وبعد ان يفرغ من الابيض ينتقل الى شيكان ليصف اندحار هكس وقواته ثم يورد خطابات المهدي الى غردون وأهل الخرطوم. وكأني به يوحي بأن واقعة شيكان هي التي فتحت طريقه الى الخرطوم. ثم ينتقل ليصف وقائع الشرق. وهناك ينبغي ان ندرك ثلاثة أمور: فهو اولا: ينقل مادته نقلا مباشرا من وصف وقائع الشرق الذي حصل عليه، وهو ثانيا: يتحاشى ان يمس الختمية أو ان يبين دورهم في مقاومة المهدية[1]، وهو ثالثا: يقسم

(١) يتعرض نعوم في تاريخه (ص٩٠٤) الى تفاصيل نشاط المراغنة (الختمية) في مقاومة المهدية في الشرق، وهو يرويها على وجه البطولة. وهكذا كانت النظرة في أوائل العهد الثنائي. أما نظرة الكردفاني فمختلفة. وكذلك نظرة صاحب الوقائع - أي أن الظروف السياسية تكيف وجهات النظر حيال الحوادث.

موضوعه الى قسمين بحيث تأتي حركات عثمان دقنة تحت الكلام عن سريته ويأتي أمر تسليم كسلا تحت الكلام عن الوفد الذي أرسله المهدي ليشرف على تسليم قواتها. انه يتعرض الى حوادث كسلا عندما يعرض لحوادث الشرق الأخرى[1] بحكم اتصالها، ولكنه يسقط أمرها في ملخص الوقائع[2]. وهو يذكر أنه سيذكر تسليم المدينة تحت الكلام عن وفد زهرا وعالم. وعندما يأتي الى هذا يقتضب في الكلام الى حد بعيد[3]. وبخطاب المهدي الى عفت ينتهي كلامه عن الشرق. ومنه يتجه الى أقصى الغرب ليصف حوادث دارفور، وقد عرض نقاطا مهمة فيما يتصل بها. ثم ينتقل الى بربر ثم الى حرب الدائر ثم الى سرية أبي قرجة الى البحرين، أي فداسى والخرطوم، ثم الى سرية النجومي لاحكام الحصار على الخرطوم. وبعد ان يفرغ من ذلك ينتقل الى القلابات ليصف سرية محمد ولد أرباب. غير ان حساسية الحرب الحبشية واهتمامه بحمدان يدفعانه الى الاستطراد الذي يخرج به خارج نطاق السيرة.

يأتي الكردفاني بعد ذلك بوقائع الشريف محمود في كورتي ونواحيها.

ثم يعود الى معسكر المهدي ليصف زحفه الى الخرطوم. وقد تتبع مسيره الى مرحلتين، أولاهما من الابيض الى الرهد. وفي الرهد يتبين أن خطة السيطرة على السودان قد وضعت، اذ منها تخرج السرايا لجهات مختلفة. والمرحلة الثانية هي مرحلة المسير من الرهد الى أبي سعد. ويتلو ذلك وصف وقائع أم درمان والخرطوم ثم يأتي الكلام عن سرية موسى الحلو وواقعة أبي طليح. ويأتي الكلام عن فتح دنقلا ثم حملة محمد عبد الكريم وحوادث مدينة سنار. ولعجبنا يأتي الكلام هنا باستفاضة ويتصل حتى سقوطها في عهد الخليفة عبدالله. وكانت واقعة سنار آخر الوقائع.

---

(١) السيرة ص ٢٦٧.

(٢) السيرة ص ٢٧٧ – ٢٧٩.

(٣) السيرة ص ٢٨٢.

أما العنصر الرابع فهو ما يتصل بخلافة الخليفة عبدالله، وهو يأتي في آخر الكتاب استطرادا من وفاة المهدي، وغرضه من ذلك اثنان: بيان أن المهدية متصلة وانها لم تتوقف بوفاة المهدي، ثم وضع الخليفة عبدالله في صورة الرجل المثالي والخليفة الشرعي للمهدي.

وكما عرضنا في دراستنا التالية لكتاب الطراز فان الكردفاني يتعرض الى بعض المواضع الحساسة بحذر وذكاء حتى لا يمسه سوء أو مداراة منه لمواقفه الخاصة. ولعل أظهر هذه المواضع موقفه ازاء الختمية عندما يعرض حوادث شرق السودان. وقد سبق الكلام في ذلك. ولكن لا بد أن نكرر أن موقفه المتسامح إزاء الختمية ينبع من الارتباط الاسري الذي يربط بين المراغنة والاسماعيليين. ثم نضيف الى ذلك أن قضية المنافسة بين الختمية والمجاذيب وهي التي كانت خلفية الصراع في الشرق وتدفع بكاتب الوقائع الى ابراز جانب الختمية بهذا المقدار، لم تكن تهم الكردفاني بقدر. بل يمكن ان نقول بشيء من الثبات أن تسامحه إزاء المعارضين كان اوسع من هذا المدى بحيث يظن أنه لم يكن يؤمن بتفكير المخالفين، كما كانت قاعدة المهدي تتطلب، فها هو يصف أحد رجال الدين وهو عبد النبي عبد الوالي بأنه من أهل الديانة[1]. ويمكننا أن نعتبر مثل هذه النظرة أمرا طبيعيا بالنسبة لرجل تعلم في الأزهر.

وانظر موقفه ازاء حسين باشا خليفة مدير بربر. انه يسقط دوره في حوادث بربر وسقوطها كما يسقط ذهابه الى المهدي وأخذ البيعة على يديه ثم ارساله الى صعيد مصر بعد أن عين عاملا عموميا على العبابدة. وفي رأينا ان هذا يعبر عن الموقف الرسمي إزاءه. فهو ليس عدوا يذكر وليس صديقا تذكر صداقته، وقد اخفقت فيه فراسة المهدية، ولكنه على أي حال بعيد عن المسرح وليس في موقفه ما يضر. وهناك أيضا ما يثيره ذكره في أوساط العبابدة وعلى رأسهم رئيس البريد.

(١) السيرة ص١٩٦.

وموقفه إزاء سلاطين هو نفس الموقف الرسمي حياله لأنه عند صدور السيرة كان من ملازمية الخليفة. وفي اعتبار الكردفاني ان اسلامه صحيح بل انه كان مسلما حقيقة من قبل اعلان الاسلام. كذلك يتوافق موقفه مع موقف المهدي الذي يؤمن بحسن اسلام المسيحيين وغيرهم الذين أسلموا على يديه وأخذوا البيعة عنه على اعتبار أنهم تنوروا بنور الاسلام وتنعموا ببركات المهدية.

أما عن التعايشة فانه يذكر قادتهم ويشيد بمواقفهم ولكن دون أن يتدخل في علاقاتهم الداخلية. ولكن يؤخذ عليه هنا أن الأمير يعقوب لا يظهر في الصورة كما ينبغي. ثم انه يذكر أحمد علي قاضي الاسلام عدة مرات، وهو الراوية الوحيد الذي يذكر باسمه باستثناء الخليفة. وكان احمد علي من بطانة الخليفة كما كان رئيس الكردفاني في سلك القضاء.

ولأن أمرهما يرتبط بموضوع الخلافة فانه لا يذكر الخليفة شريف والخليفة علي الحلو الا قليلا. وهو لنفس السبب يبتعد عن نزاع الاشراف، وحتى لا يتهم بأنه متعاطف معهم فانه يركز على شخص الخليفة وعلى الانصياع لأوامره.

وحرب القلابات يثير اهتمامه الخاص فيستطرد في الكلام فيها. ومرد ذلك أن هذه الحرب قد أثارت مخاوف الناس. فكأن الكردفاني يريد أن يتعاطف مع الموقف الرسمي ويبين أن جنود الخليفة يغزون الحبشة بقيادة حمدان.

وهو يتحرج من ذكر اسم جورجي[1] اسطمبوليه، الذي توسط بين المهدي وبين قوات الابيض حتى سلموا له، لأنه لا يريد أن ينسب مثل هذا الفضل لمسلماني.

وهو لا يتكلم عن الخليفة الا استطرادا من بعض مواقف متصلة بالمهدي أو بحوادث السيرة، أي حسبما يقتضي السياق، ولكنه يركز كاميرته في مواضع

(١) السيرة ص ٢١٧.

حساسة، كموقفه من المهدي في الحرب، والبيعة له بعد وفاته وبيان مزاياه الشخصية ومسانده الدينية، وهو يكرر دائما التحذير للمخالفين.

والمواضع التي من هذا القبيل كثيرة، ونحن نترك تقصيها للقارئ.

وينبغي ان نشير الى قضية هامة، وهي وجود مغامز في الكتاب يطعن بها الكاتب في شخص الخليفة عبدالله. غير أن الوصول بهذه القضية إلى نهاية مقررة ليس متاحا لأن الكاتب لا يقول بذلك، فيما يتهم، بشكل مباشر وانما يبالغ في الشكر حتى يصل الى الذم. واننا نكتفي بأن نعرض مثلين لما يعد من هذا القبيل. يقول الكاتب: «...ان خليفته رضي الله عنه موفق للصواب وممنوح بالحكمة وفصل الخطاب وثم بينهما سر لا يعلمه الا اللطيف الخبير. وقد قال ﷺ في حق سيدنا ابي بكر الصديق رضي الله عنه (الإشارة هنا للخليفة عبدالله بطرف خفي) ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في صدره أو كما قال. ولخليفة المهدي مع المهدي عليه السلام من هذا المعنى مشرب روي ومورد هني. فافهم ذلك واسلك من التسليم أسلم المسالك»[1]. ويقول في مكان آخر، «وأنى لمثلي مع قصوره وجمود قريحته وفتوره مع قلة اطلاعي وقصور باعي الاحاطة بصفاته (يقصد الخليفة عبدالله) وآخر كمالاته بل جميع ذلك ليس في الطاقة البشرية ولا يحيط بتفاصيل حمله الا خالق البرية. فلنمسك عنان الأقلام عن السير في هذا الميدان الذي تاهت فيه افهام الاعلام ونسأله سبحانه وتعالى أن يديم لنا ولسائر الأمة أيام سيدنا خليفة المهدي عليه السلام»[2].

ولا بد لنا من أن نتعرض إلى المنهج الذي يتبعه الكردفاني في بناء السيرة.

فكتابه ليس سيرة بالمعنى المفهوم وليس تاريخا بمعنى التاريخ وانما هو شيء يجمع بينهما بغرض التمجيد لبطولات المهدية في عهد المهدي والوصول بها الى

---

(١) السيرة ص ١٣١.

(٢) السيرة ص ٣٩٦.

خلافة الخليفة عبدالله. وللخطة الرئيسية التي يسير عليها هي أن يبدأ السيرة بالمهدي وأن يتتبع حركاته حتى وفاته. أما الوقائع التي تقع بعيدا عنه فهو يوردها تحت السرايا والبعوث. وتبدأ الوقائع من لحظة التقاء الغزوات والسرايا والبعوث بالاعداء دون اكتراث بما وقع قبلها أو بالخلفيات السياسية والادارية للعدو. وهكذا نجد أنفسنا أمام الشلالي وراشد أيمن وهكس دون ذكر مقدمات عنهم وعن ظروف مجيئهم. كذلك تبدأ السرايا عملها مباشرة في بربر وفداسي ودنقلا والقلابات دون ذكر لخلفيات الحوادث وما جرى في تلك الاقاليم حتى وصول تلك السرايا. ونحن لا نكاد نلمس اختلافا الا فيما جرى في دارفور، واذ يهتم المؤلف بالوقائع التي حصلت قبل زحف محمد خالد زقل عليها، ولا يفوت القارئ الحصيف ان الاهتمام هنا مركز لشخص محمد خالد.

ومع أن موضوع الكتاب ينتهي بوفاة المهدي فانه يستطرد في مواقف معينة لما بعد وفاته اما لاتمام الصورة واما لأن الموضوع يهمه لسبب من الاسباب. ومثل ذلك استطراده في الكلام عن حوادث القلابات، وكلامه عن سنار حتى سقوطها، وكلامه عن تسليم كسلا، وما يسوقه عن اعتلاء الخليفة عبدالله.

وينقل الكردفاني جلة من رسائل المهدي، وهدفه من ذلك أمران: أولهما ان يكمل صورة الحوادث التي يرويها بابراز الرسائل المتعلقة بها. يقول الكردفاني في ذلك إزاء خطاب المهدي (يعتقد أنها خطابان ولكن هذا غلط) الى أهل الابيض: «ولم أقف الان على الكتابين المذكورين حتى نكتبهما في هذه السيرة ولعلي نجدهما بعد ذلك فنثبتها بخطها (يعني بحرفها) كما التزمنا بذلك في خطاباته عليه السلام للملوك وغيرهم»[1]. وثانيهما بيان نماذج الرسائل بحيث يتبين القارئ أسلوب الرسائل ونمط الكتابة. ويجيء هذا في الباب الثامن، اذ يعرض ثلاث رسائل هي: منشور الدعوة، وقد سبق أن نقله عند الكلام

---

(١) السيرة ص ٢٠٣.

عن الدعوة ونشرها، ومنشور المهدي عن مكانة الخليفة عبدالله الدينية ومنصبه في التنظيم، ومنشور عن الغنائم ومنع الغلول.

ويتبين لنا من النماذج التي ينقلها في الحالين أنه كان متمكنا من هذه الرسائل يعرفها ويعرف مناسبات صدورها ويعرف ما تهدف إليه ويستطيع أن يضعها في مكانها المناسب. الا أننا نأخذ عليه أنه لم يتخذ الرسائل مصدرا للمادة التاريخية ويعتمد عليها في بناء السيرة ومناقشة القضايا المختلفة التي تعرض لها. وعلى ذلك فان الرسائل التي يوردها ليست مربوطة ببناء الموضوع وليست لبنة من لبناته وانما هي مجرد حلية تكمل الصورة وتزين البناء ونماذج لبيان امور بغير السيرة.

والمؤلف مؤمن، على الأقل فيما يظهر، بالقضية التي يكتب عنها، فإذا أعوزته الحيلة لجأ إلى الاصطناع المنهجي في التأليف ليقوي حجته كاللجوء إلى الأسلوب الخطابي، أو الوصف الذي يخرج عن حدود الزمن والحساب أو خلق الشواهد والأدلة خلقا. ويكفينا من ذلك أن نرجع بالقارئ الى ما يقوله عن رجل المهدي في الطريق[١] وما يذكره عن أمان الله[٢] وعن تصويره لتواضع الخليفة في الطراز.

وعندما يتعرض الى الوقائع التاريخية فانه يضع لها أسس التصنيف ثم يرتبها بعد ذلك. هناك ترتيب الوقائع على أساس الجهات بحيث تأتي وقائع كل جهة في مكان ثم ترتيب وقائع الجهات حسب قربها. وهناك الترتيب على حسب تصنيفه الموضوعي بحيث تأتي الغزوات على حدة والسرايا على حدة والبعوث على حدة. ثم هناك الترتيب على حسب المناسبة بحيث يستطرد من نقطة الى غيرها دون أن يكون هناك ضابط موضوعي او زمني على النحو الذي فعله عندما استطرد من التيارة الى المنة ومواقفه ومقتله.

---

(١) السيرة ص ٣٣٦.

(٢) السيرة ص ٣٣٨.

ثم هناك الترتيب حسب التتابع الزمني بحكم أن الحوادث تتطور مع مضي الزمن وان الوقائع تتلو بعضها بعضا. لقد حاول الكاتب أن يضع موازنة للحوادث والوقائع حسب هذا التصنيف ووضعها وضعا موزونا، حتى اننا نعهد خلال كلامه عن وقائع المهدي ووقائع الاقاليم وانتقاله من طرف الى طرف، ومن جهة الى جهة ومن خلال عملية البناء الموضوعي للسيرة على أساس الغزوات والسرايا والبعوث عملا متكاملا من الناحية الفنية، وصورة متكاملة ومرئية وموزونة لتاريخ المهدية في عهد المهدي.

وقد أفادنا في أماكن متفرقة ببعض قواعد منهجه وأسلوبه في التأليف. ومع اننا قد شرحنا منهجه وبينا اسلوبه فلا بأس من أن ننقل بعض أقواله في هذا الصدد. يقول عن ترتيب الغزوات: «وكان الأوفق ضم الغزوات جميعها في محل واحد ليسهل تناولها لمن يريد الاطلاع على سيرة المهدي عليه السلام. ولكن انما قدمنا بعضا على هذا الباب وأوقفنا كل غزوة في محلها على حسب ترتيبها في الوجود والاسبقية ليتلو بعضها بعضا فيكون أحسن في سياقها. ونحن ان شاء الله نتكلم عن المشاهير من السرايا والبعوث عن المناسبات الداعية لذكرها»[1].

ويقول عن الوقائع وترتيبها وأنماطها ما يلي: (وقد كان أمر الجهاد يدور على الغزوات والسرايا والبعوث، وذلك من عهد النبوة، فكل عسكر حضره النبي ﷺ بنفسه الكريمة يقال له غزوة، وما لم يحضره بل أرسل فيه بعضا من أصحابه يقال له سرية، وما افترق من السرية يقال له بعثا. وقد كان عدد مغازي المهدي عليه السلام التي خرج فيها بنفسه تسعا وهي غزوة أبا، ثم غزوته عليه السلام لمحمد سعيد لما بلغه أنه قصده بأبا ولم يجده هناك، ثم غزوته للمختار بن الزبير الكناني، ثم غزوته لراشد مدير فشودة، ثم غزوته لجبل فنقر، ثم غزوته ليوسف حسن الشلالي، ثم غزوته لمدينة الابيض، ثم

---

(١) السيرة ص٢٢٢.

غزوته للطاغية الهكسي، ثم غزوته لمدينة الخرطوم. فجملة غزواته عليه السلام تسعة كما تقدم. وجميع غزواته وقع فيها القتال من اصحاب المهدي عليه السلام الا غزوته لمحمد سعيد وغزوته لجبل فنقر فلم يقع فيهما قتال أصلا كما تقدم فيهما)[1].

وعن الوفود التي جاءت الى المهدي يقول: «ثم تتابعت الوفود... وسيأتي ان شاء الله ذكر ما تيسر ذكره من الوفود في هذه السيرة عند ذكر المناسبات الداعية الى ذلك لأن الغرض الأعم هنا هو التكلم على الوفود الذين وفدوا عليه وهو بجزيرة أبا»[2].

ويشير الى مصادره وما أخذه عن الرواة وما فعل بما أخذ فيقول: «وقد حدثني بواقعة أبا جماعة من أصحاب المهدي عليه السلام الثقات وكل منهم قد حدثني بعض الحديث فاجتمع حديثهم فيما سقته»[3]. ويقول في مكان آخر: «حدثني بحديث الهجرة المذكورة جماعة من اصحاب المهدي عليه السلام الثقات»[4].

وفي التبويب نلاحظ أنه قد يتخذ تقسيما أصغر من الباب، ففي الباب السابع مثلا يضع كل غزوة على حدة ويعتبر الكلام عنها فصلا، مثلا: واقعة راشد وواقعة فنقر وواقعة الشلالي ثم المسير الى الابيض.

وقد اعتبر الكردفاني عمله جمعا، فهو في اعتباره ليس تأليفا، يقول باتمام ما يسره سبحانه وتعالى على يد العبد الحقير المعترف بالعجز والتقصير من جمع هذه السيرة»[5] أي أنه يجعل فرقا بين العمل الوجداني كالشعر مثلا وبين

---

(١) السيرة ص ٢٢١ - ٢٢٢.
(٢) السيرة ص ١١٠.
(٣) السيرة ص ١٣٢.
(٤) السيرة ص ١٣٩.
(٥) السيرة ص ٣٩٩.

الاعمال التي تصف الوقائع التاريخية التي هي ليست من انشاء الكاتب. وربما كان تباعده عن الحوادث عند وصفها نابعا من هذا الموقف. ثم لاحظ تواضع المؤلف ازاء المهدي وإزاء سيرته حيث يقول: «هذا وليعلم المحب لجناب هذا السيد المكرم والوسيلة الى نيل السعد الأفخم أنه لا سبيل لنا الى استقصاء جميع ما يتعلق بسيرة المهدي عليه السلام في هذا الكتاب لأن ذلك ليس في الطاقة وانما تكلمنا على اليسير من سيرته عليه السلام حسبما اطلعنا عليه ورويناه من الثقات من أصحاب المهدي عليه السلام على قدر الطاقة والإمكان وما فتح به علينا المنان»[1].

وعلينا ان نلاحظ ايضا ان ثقافة المؤلف، وهي أزهرية، قد انعكست في تأليفه. انظر كلامه عن ختم المهدي[2] وعن المسجد وعن قبة المهدي وعن الراتب وطبعاته واهتمامه بنظم الكتابة (فيما يذكره عن رسائل المهدي) وبالجيوش وترتيب الواقعات وخططها وسائر ما يتصل بالنظم السلطانية والحربية.

ويقتضي المقام ان نذكر شيئا عن أسلوبه في الكتابة وان كنا قد قلنا في ذلك ما يكفي في مقدمة الطراز. فالكردفاني يكتب كتابة رجل متمكن من اللغة العربية وآدابها. وهو يلجأ الى الاسلوب الخطابي عند الكلام عن المعارك والمواضع الحساسة المثيرة كوفاة المهدي مثلا، فاسلوبه هنا بليغ ومجلجل. أما في الحوادث العادية فيتقيد بالسرد كثيرا. وهو ان أعوزه الدليل لجأ الى الخلق والى الخرافة والى الكلام المطول الذي يعطينا القليل. وهو يلجأ في حالات كثيرة الى السجع والى اللعب بالألفاظ. كما يحاول ان يصف اعداد الجيوش بما يفيد التناهي. واننا نكتفي بأن نورد بعض فقرات تقوم شاهدا على ما ذكرنا:

---

(١) السيرة ص ٣٧٦.

(٢) السيرة ص ١٠٧.

ـ وفي الشفا في ذلك ما فيه لأمراض القلوب شفا[١].
ـ اذ ذلك أوفق بالغرض واجدر بإصابة سهم المقصود للغرض[٢].
ـ وفي منشوراته عليه السلام من هذا ما يغني اللبيب عن الايضاح ويكفي المسترشد بأنوار صحبه عن الاستصباح بالمصباح[٣].
ـ هاجرت الى قدير لاظهار قدرة الله[٤].
ـ ما يكلّ عنه الوصف ويقف دون غايته الطرف[٥].
ـ تقفوه الصفاح وطريدا تتلوه الرياح[٦].
ـ وعلم دموع العين كيف تصوب[٧].

---

(١) السيرة ص ١٠٧.
(٢) السيرة ص ١٠٦.
(٣) السيرة ص ١٠٧.
(٤) السيرة ص ١٤٠.
(٥) السيرة ص ١٥٨.
(٦) السيرة ص ١٧٥.
(٧) السيرة ص ٣٨٧.

خاتمة

لقد كان كتاب المستهدي أول كتاب يؤلف في تاريخ المهدية وكان بذلك فتحا في هذا الباب. فكتاب ونجت عن المهدية في السودان المصري صدر عام ١٨٩٩ وتاريخ نعوم صدر في سنة ١٩٠٣م وكتاب نيوفيلد: سجين الخليفة، قد صدر في ١٨٩٩، والسيف والنار لسلاطين صدر في ١٨٩٦م وكتاب أهرولد الذي ترجمه ونجت وأصدره باسمه ظهر ١٨٩٢. أما كتاب السيرة فقد فرغ مؤلفه من تأليفه في ١٨٨٩.

ويكتسب الكتاب أهميته لتناوله المهدية من الداخل. وبغض النظر عن موقف المؤلف ودرجة ايمانه بحركة المهدي وبالتالي موقفه من الخليفة ورأيه فيه فالاسلوب الذي اتبعه المؤلف عند تناوله للمهدية من الداخل عكس نظرة الأنصار الى حركتهم وايمانهم الراسخ بها وبقيادتها.

ان المستهدي من هذه الناحية يحمل الروح الذي انتظم المهدية وبمبالغة شديدة لإرضاء الخليفة بينما نوع المؤرخون بعده وعلى رأسهم نعوم روح الحركة وألقوا جسدها وعرضوا القضية على الوجه الذي كان يتصوره الطرف الآخر.

والغرض من التأليف يوضحه المؤلف في خطبة الكتاب عندما يقول: «...ان صاحب الزمان المنتظر هو خليفة رسول الله ﷺ، كما ورد بذلك الأثر. فوجب على الكافة من أهل الاسلام بيان سيرته عليه السلام واذاعتها

للخاص والعام، اذ هي من أوكد الأمور الدينية وبها يحصل الفوز برضاء رب البرية، وبذلك تحفظ عن التحريف في غابر الأزمان ولا يعتريها خلل بتعاقب الملوان»[1].

ويقارن المؤلف عمله هذا باعتناء (فضلاء الأنام) بالسيرة النبوية وحفظَهم لها عن الضياع (على توالي الأعصار).

ان سمة التأليف كما نرى عربية اسلامية والمؤلف عند الكلام عن المهدي يتوخى صورة المهدي المنتظر وصورة الرسول. ومع تعاقب الفصول وفي أكثر من موضع في الكتاب تتحدد ملامح الكردفاني كمؤلف، ومؤرخ وجامع، وسياسي.

ومن السهل التعرف على طبيعة المصادر التي اعتمد عليها المؤلف، فهو يفرط في السرد عند اعتماده على المصادر المسموعة، أما عند اعتماده على المصادر المكتوبة فهو يعمد الى الايجاز في السرد والى الدقة والتركيز في اثبات البيانات.

ولقد توفر للمؤلف عند وضعه للكتاب عدد من المصادر الا انه لم يهتم بعرض السيرة بقدر ما اهتم بتمجيد المهدية، ومع ذلك فقد استطاع أن يحافظ على خلفية الأحداث، ووزع الأجزاء بتقدير سليم مع المبالغة في الوعظ والكلام عن الخليفة، والتحذير من الغلول، ذلك لأن من أغراض التأليف ايضا التربية والإرشاد.

ان المستهدي مصدر هام من مصادر كتابة تاريخ المهدية، وتاريخ علم التاريخ في السودان. وقيمة أي مصدر تاريخي يقررها قدمه وقربه من الحوادث التي يتناولها أو استخدامه لكتب مفقودة او قديمة. ولقد كان للكتاب السبق في تسجيل بعض الاخبار المعاصرة لها. ولا ينقص من قيمته

(١) السيرة ص٦٣.

أخذ الكثير عنه وتحريفه بينما ظل هو ضائعا منسيا لفترة من الزمن.

وقد قمنا بتحقيق الكتاب ونشره في طبعات متلاحقة.

لقد اتبعنا في تحقيق نص السيرة نفس الاسلوب الذي اتبعناه في ادبيات المهدية عامة وليس لدينا ما نضيفه الا ان نعتذر عن ا لقصور في تحقيق نصوص الاحاديث النبوية. والواقع ان ذلك لم يكن متاحا لكثرة الاحاديث التي اوردها عن المهدي وكثرة الاختلاف بينها في الرواية. واننا ازاءها نكتفي بأن نحيل القارئ الى مقدمة ابن خلدون والى الآيات البينات والأنوار السنية للعبادي وزهرا.

وكنا قد رتبنا في مبدأ الأمر على أن نورد تراجم الاعلام كاملة ولكنا وجدنا أن بعضها لا يستحق الترجمة وأن أغلب من يستحق قد ترجم لهم - وان كان باختصار في كتب التراجم مثل قاموس هل وموسوعة محمد عبد الرحيم. واننا ننصح القارئ بالعودة اليها حيث يقصر جهدنا.

ولما كان الكردفاني يتبع التقويم الهجري حسبما كان متبعا في مجتمعه، وكان القارئ المعاصر قد تعود على التقويم الميلادي، فاننا بينا ما يقابل تواريخه بالتاريخ الميلادي. على أننا قد تغاضينا عما يذكره نعوم، ويقره عليه هولت، عن أن تقويم الأنصار يختلف بيوم عن التقويم الهجري العام.

الطراز المنقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش

تمهيد للوضع:

شهدت القارة الافريقية في القرن التاسع عشر تحولات اجتماعية وسياسية عنيفة نتيجة للتأثيرات الأوربية التي تمثلت في سياسات الدول الأوربية من أجل السيطرة وفي رد الفعل الناجم عنها من داخل القارة وفي بعض الادوات الجديدة كالسفن البخارية والقاطرة التي يسرت الاتصال ونقلت الجيوش والبضائع على حد سواء وكالبندقية التي يسرت سيطرة العدد القليل من الرجال على اضعافهم ممن يحملون السيوف والحراب.

ان هذه التأثيرات قد حركت أمواجا هائلة وتيارات جد عنيفة في بحر عميق الغور، وأضحت الشعوب الافريقية من جرائها تواجه في وقت واحد التغول الأوربي للسيطرة على البلدان واخضاع شعوبها، وصراع الدول الافريقية ذاتها فيما بينها، والانقسامات الداخلية في داخل هذه الدول من أجل السلطة، ومشاكل هذه الدول المزمنة في الادارة واخضاع الطبيعة.

وكانت الشعوب تتفاعل مع هذه الظروف وتواجه تأثيراتها العميقة في الحقل وفي السياسة وفي التجارة وفي ساحة القتال وتعيش هذا التحول الحضاري. وقد ادى هذا التفاعل في حالات كثيرة الى تخلخلات اجتماعية واقتصادية عنيفة، وهذه أدت بدورها الى ثورات، كالثورة المهدية في السودان وثورة عرابي في مصر وثورة محمد عبدالله بالصومال.

وكانت منطقة شمال شرق افريقيا والتي تشمل مصر والسودان والحبشة تعيش هذه التجربة بثقلها منذ ان حلت جيوش نابليون في مصر في سنة ١٧٩٨ ودخلت جيوش نابيير في الحبشة في مطلع عام ١٨٦٨.

لقد شهدت مصر منذ مغيب القرن الثامن عشر أحداثا هامة لعل أهمها حملة نابليون وتحطيم الجهاز الاقطاعي العسكري المدمر الذي اقامه المماليك. وتبع فشل الحملة الفرنسية في البقاء في مصر وجلائها عنها تحول سياسي آخر تمثل في صعود محمد علي الى الحكم على اكتاف فئات اجتماعية كانت تقاوم الحكم المملوكي وتنشد حكما عادلا. وقد توافق ذلك مع طموح محمد علي الشخصي، فاندفعت جيوشه الى الحجاز والى الشام والى السودان وسواحل البحر الأحمر.

وكان السودان يعاني من نظامه السياسي المتخلف والذي لم يقو على كبح جماح الاضطرابات الداخلية والمطامح المحلية ذات النزعة الاستقلالية عن فلك سلطنتي سنار ودارفور. وعلى الأثر تدهورت الحركة التجارية وتهددت طرق القوافل.

وفي هذا الجو المضطرب سهل على جيوش محمد علي اقتناص فريسة متعبة.

على ان الفتح التركي المصري قد نقل تأثيرات حضارة البحر الأبيض وتأثيرات الحضارة الأوربية الى هذه البلاد وانتقل بها نقلة بعيدة وشاهد النيل السفن البخارية والمراكب التجارية التي لم تعرفها البلاد من قبل تصعد النيل الى أعاليه وواجه الناس البندقية ذات التأثير الحاسم في أي صراع وانتعشت التجارة وبلغ تأثيرها اصقاعا بعيدة.

وقد توحد القطر ووضعت نواة السودان الحديث.

وفي نفس الوقت كان هناك رد فعل ومقاومة هذا النمط الجديد من النظام والذي انتهى بالثورة المهدية التي أطاحت بالإدارة المصرية وأقامت نظاما دينيا ودولة.

ويمكن ان يقال ان مهمة هذا النظام كانت تتلخص في تطبيق أحكام الاسلام في السودان بالوجه الذي تصوره المهدي ونشر هذا التطبيق على نطاق العالم بحد السيف ان لم ينفع الاقناع. ولذلك كانت المواجهة المسلحة مع الدول المجاورة، مصر والحبشة وغيرهما.

وفي الحبشة توافق بزوغ الاتجاه نحو تقوية الامبراطورية وتوحيدها مع الغزو الانجليزي بقيادة نابيير. وبالتالي اخذت الحبشة تستجمع جهودها لخلق السلطة المركزية القوية ولمواجهة الضغط الخارجي. وقد نجحت الحبشة بفضل جهودات ثيودور ويوحنا الرابع ومنليك الثاني.

وفي سبيل المواجهة الخارجية واسترداد بعض ما كانت مصر قد أخذته، وربما من أجل التوسع نحو السودان بعد انهيار الادارة المصرية، دخلت الحبشة في الصراع مع المهديين.ولكنها بالرغم من الهزائم التي منيت بها على يد هؤلاء وعلى يد الاوربيين وبالرغم من الأعاصير الداخلية والمنازعات ظلت محتفظة بكيانها المستقل.

في داخل هذا الاطار التاريخي كانت الحوادث المتشابكة بين مصر والسودان والحبشة تتوالى وتأخذ مجراها.

ولقد بدأت جيوش محمد علي غزوها للسودان من الشمال واستمرت في زحفها حتى سقطت سنار عاصمة الفونج. وفي نفس الوقت سارت قوة أخرى لتضم كردفان. وبعد تعديلات متعاقبة في الترتيبات الادارية وحدت ادارة هذه البلاد وصارت العاصمة مدينة الخرطوم التي انشئت حديثا. ومن هذا الموقع بدأت سلسلة أخرى من التوسعات في اتجاه النيل الأعلى وبحر الغزال ودارفور ونحو التاكة والقلابات، وقد أمكن ضم هذه الاقاليم الشاسعة في فترة تعد قصيرة. وكان هناك توسع آخر في اتجاه الحبشة من جهتي الشمال والشرق. لقد كان فتح السودان امتدادا طبيعيا مع النيل ورغبة في السيطرة على منابعه. اما النشاط في السواحل الشرقية فقد كان هدفه السيطرة على البحر الأحمر

وعلى تجارته ثم تقوية مركز المصريين في الحجاز وقفل الطريق أمام أي غزو للسودان من اتجاه الشرق.

لقد حاز محمد علي بعد فتح سنار على مينائي سواكن ومصوع بالإيجار من تركيا، وكان هذا مشروطا بمدى حياته. ثم تمكن حفيده اسماعيل باشا من شراء ساحل البحر الأحمر. وبعد عمليات متعاقبة حصن مدينة زيلع بأرض الدناكل ومصوع وحاز على اقليم هـرر وبـوقـوص. وقـد حـاول اسماعيـل الاستمرار في التوسع الى داخل الحبشة الا انه مني بهزائم على يد الامبراطور يوحنا الرابع في قندر في سنة ١٨٧٥م وفي غورة في سنـة ١٨٧٦. وبذلك اكتفى المصريون بسنهيت ومصوع.

ولما جاءت المهدية تعاون الامبراطور يوحنا مع المصريين في عملية سحب القوات المصرية من القلابات وكسلا وحصل مقابل ذلك على كرن وبوقوص. وقد نجح سحب حامية القلابات بعد صعوبات شديدة. أما كسلا فقد توجه الرأس الولا لمعاونة حاميتها وسجل انتصارا على الانصار في كوفيت. ولكن ذلك لم يؤد الى نتيجة ازاء الموقف في مدينة كسلا فاستسلمت للمهدية.

وبذلك يكون نفوذ المصريين قد انتهى في هذه المنطقة. ولكن هذه التسوية، بالاضافة الى التوسع المهدوي تحت راية الجهاد المقدس، قد جعلت الحبشة في مواجهة المهدية. وفي نفس الوقت كان الايطاليون يضغطون للتقدم في منطقة اريتريا بعد ان خلا لهم الجو بزوال النفوذ المصري.

العلاقات بين الحبشة والمهدية

لقد سارت العلاقات بين الحبشة والمهدية على مدارين. كان المدار الأول هو الصراع المسلح في منطقة القلابات والذي جاء عقب مشاركة الحبشة في سحب الحاميات وتعيين محمد أرباب عاملا عليها من قبل المهدي. ثم توالت

الحوادث على الوجه الذي يأتي الكلام عنه في مكان آخر.

وكان المدار الثاني هو المدار الدبلوماسي الذي اخذ شكل المراسلات وتبادل السفراء والرسل بين الحكومتين.

بعد أن انتشر أمر المهدية وحققت انتصاراتها الساحقة على الادارةالمصرية في السودان والتي بلغت قمتها بسقوط الخرطوم في مطلع عام ١٨٨٥ كان لا بد لحكومة الحبشة أن تقف على أمر هذه الحركة ومراميها وان تحاول خلق علاقات معها. ولذلك بادر يوحنا الرابع امبراطور الحبشة فأرسل خطابا الى المهدي، وهو الذي رد عليه المهدي بخطابه المؤرخ في رمضان سنة ١٣٠٢هـ، ١٦ يونيو سنة ١٨٨٥م[1]. ومن المؤسف اننا لم نعثر على نص خطاب يوحنا لأن أصله لم يحفظ ولأن احدا لم يحفل بنقله. ولكن إشارة المهدي إليه تعطينا فكرة عن مضمونه. فالمهدي يشير الى الخطاب ويثني على يوحنا لمحاولته الوقوف على حقيقة المهدي والمهدية. أما تاريخه فيبدو من تاريخ الرد عليه أنه كان بعد فتح الخرطوم وقريبا من تاريخ وفاة المهدي.

وقد جاء رد المهدي مبينا ان الاسلام قد نسخ كل الديانات ومن ضمنها المسيحية ومشيرا إلى اضمحلال الاسلام على يد الترك لفسادهم وانشغالهم بالدنيا. ثم يذكر انه ظهر موكلا من قبل العناية الالهية لهداية الخلق وتقويم الدين وانه قد فرغ من السيطرة على السودان. ثم يثني على يوحنا لمحاولته الوقوف على حقيقة المهدي ويطلب إليه الدخول في الاسلام وان يكون كالكنجاشي الذي ناصر الاسلام وان يصير في كنف المهدية «والا فإنما عليك إثمك وإثم من تبعك ولا بد من وقوعك تحت يدي».

لقد كان ذلك الخطاب صورة حقيقية لروح المهدية في سنواتها الاولى عندما كانت تضع حدا فاصلا بين المؤمن بها وغير المؤمن ولا تقبل بين هذا وذلك وضعا.

(١) المرشد الى وثائق المهدي رقم ٧٩١.

ثم جاء رد يوحنا بعد وفاة المهدي بفترة طويلة مؤرخا في ٢٤ سبتمبر ١٨٨٥، وكان خطابا حانقا فيه الكثير من التحدي. وقد جارى يوحنا المهدي في دعوته فعرض عليه الدخول في المسيحية، وبذلك اصبح هناك حاجز ديني بين الحبشة والمهدية، وقد أضحى هذا الحاجز من العوامل الاساسية التي أثرت في مسيرة العلاقات بين البلدين وتطورها.

وبعد وفاة المهدي سار الخليفة على نهجه رافعا راية الجهاد المقدس وعـاملا لاعلاء كلمة الله. والجهاد سواء كان في النطاق المحلي أو الخارجي من الافكار الأساسية في دعوة المهدية، ولذلك من الطبيعي ان يتمسك به الخليفة. ولكن ذلك كان في أول عهده، لأن الجهاد المقدس والتوسع الى داخل الحبشة بعد الحروب الطاحنة وخسائرها الفادحة والصعوبات العملية إزاء الاحتفاظ بالبلاد المفتوحة قد أصبح دعوة مظهرية تقال دون أن تعنى بجدية وأضحت للخليفة دوافع اخرى محلية.

لقد كان الخليفة يهدف الى أن تظل جيوشه مشغولة بالغزوات لأنه لا يريد ان تبقى تلك الجيوش في حالة هدوء مما قد يدفع بها للتعدي على الأهالي او هبوط الروح العسكرية وقدرتها نتيجة انصرافها عن الحرب، او قد يدفع القادة الى محاولة الانفراد بالسلطة. وكانت الغنائم التي تأتي بها الحروب تكون مصدرا عظيما من مصادر الصرف على الجيش. وكانت منطقة القلابات لها أهمية خاصة، فهي من أهم المراكز التجارية في السودان وهي باب التجارة مع الحبشة. ولذلك كانت المحافظة عليها تعود على دولة المهدية بفوائد تجارية هائلة كما يضمن لها السيطرة على سير التجارة نفسها. وبالإضافة إلى ذلك لها أهمية استراتيجية. فالقلابات «ثغر حصين على حدود الحبشة وحفظ السودان يقضي بحفظه مسدودا»[1].

---

(١) نعوم ص ١٠٦٠.

لقد كانت هذه الظروف المحلية داخل اطار الاختلاف الديني وبتأثيرات الوجود الاستعماري هي التي كيفت العلاقات.

استمر التحرش بين المهدية والحبشة في عهد الخليفة بل لعله كان يتصاعد يوما بعد يوم. وقد استهل الخليفة عهده بخطابين من يوحنا جاءا في مطلع السنة التالية. ولسنا ندري لماذا أرسل يوحنا خطابين. وعلى اي حال لم يقبل الخليفة روح الجوابين ولا الاسلوب الذي اتبعه يوحنا. وقد بدا ذلك واضحا من تعليقه الذي جاء في خطابه الى محمد أرباب[1] وتعليقه الآخر في خطابه الى عبدالله الطريفي[2]. ففي الأول يقول: ورد الجوابين من الكافر النقس... ويقول الله اكبر على كل ما كفر وتمرد وفجر والله ولي الذين آمنوا... والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت. وفي الثاني يقول: اما من خصوص عدو الله ريس الحبشة فان خطابه وصل وعلم ما هو منطويا عليه خذله الله وأذله ولا تخشوا من جهته فانه مطرود مخذول».

ما كان لمثل هذه الاتجاهات من قبل الطرفين ان تؤدي الا الى الحرب. ولذلك ظلت الغزوات والمناوشات والأعمال العدائية تغطي منطقة القلابات والاقليم المجاور لها بأرض الحبشة.

وفي البداية سجل الحبش نصرا على الانصار بهجومهم الكاسح على القلابات في يناير سنة ١٨٨٧ وابادتهم حامية الانصار بها. وكان من ضمن القتلى الأمير محمد أرباب نفسه.

ولقد وصلت انباء هذه الهزيمة أم درمان مصحوبة بانسحاب الجيش الحبشي بعد ان سجل انتصاره فأثارت الخواطر ولذلك بادر الخليفة بارسال الأمير يونس الدكيم الذي كان يعمل بمنطقة الجزيرة ليتولى القيادة بالقلابات ويواجه الحبشة.

---

(١) الخليفة الى محمد أرباب، ١٢ محرم سنة ١٣٠٣ هـ، مهدية صادر ٩ ص١٧.

(٢) الخليفة الى عبد الله الطريفي، ١٢ محرم سنة ١٣٠٣ هـ، مهدية صادر ٩ ص١٨.

وفي نفس الوقت أرسل خطابا الى يوحنا يطلب فيه الخضوع للمهدية والانخراط في سلكها ومتهما اياه بالتعدي على حدود الاسلام وايواء المعتدين على الحدود كصالح ادريس شنقة. وقد أنذره الخليفة بأنه سيشن عليه حربا اذا لم يسلم إليه المأسورين من المسلمين واللاجئين الراغبين في العودة مع ذكر أسماء الرافضين للعودة بأختامهم ويتوقف كلية عن التعدي على الحدود، ولكن يوحنا لم يكلف نفسه بالرد على الخطاب وانما وجه الراس عدال لكي يستعد لمعركة فاصلة مع الانصار.

ولما وصل يونس الى القلابات باشر الأمر بمناوشات يقودها بعض الأمراء، وقد ذكرها المؤلف في هذا الكتاب ببعض التفصيل. ولسنا بحاجة الى مزيد.

ثم جاء حمدان فقاد جحافل الأنصار الى داخل الحبشة ودخل قندر في يناير ١٨٨٨، وسجل بذلك انتصارا عظيما. ولعله كان اقصى اتساع للمهدية في داخل الحبشة، بل خارج حدود السودان على الاطلاق. وبعد أن نال حمدان هذا الظفر عاد الى قاعدته في القلابات.

ولكن ما هو الهدف من هذه الغزوة التي كبدت الأنصار الخسائر الفادحة؟ يقول حمدان في ذلك: «فقد رأى الكفار سطوة المهدية وراعت قلوب جميع أهل دارهم مع ما وقفنا عليه من قياس أرضهم ومعرفة الأغلب من جهاتها، وفي شقة حزب الله الغالب لدار الحبشة عبرة لأولي الألباب، اذ انها من أعجب العجائب[1].

ولكن هذا لا يفسر لنا السبب في عودة الحملة المنتصرة، ويبقى السؤال: لماذا لم يواصل حمدان زحفه أو على الأقل لماذا لم يواصل الإقامة في قندر؟ لقد أعطى حمدان تبريرا لذلك في خطاب منه الى الخليفة فقال: «لقد كانت

---

(١) حمدان الى الخليفة، ١٥ جمادى أول سنة ١٣٠٥، مهدية ٦٧/١/٢٩/١.

أوبتنا للمركز كوعدنا للمراحم وعدم التصريح الكافي من قبل هذا في اقامتنا بدار الحبشة والتوجه لما يلزم من الجهات ولأن الأخبار قد انقطعت من جهتنا على السيادة من مدة فلذلك حضرنا بالسلامة»[1]. ففي هذه الرسالة يذكر أبو عنجة عدة أسباب للعودة الى القلابات ولكنها لا تكفي للاقناع. فإذا كان السبب الرئيسي هو عدم تصريح الخليفة للجيش بالبقاء في الحبشة فان السؤال التالي يكون: لماذا لم يصرح الخليفة بذلك؟

لا شك ان العامل الجغرافي كان من أهم الاسباب الجوهرية. فطبيعة الأرض الجبلية وغزارة الامطار وبرودة الجو لا تناسب الأنصار الذين لم يألفوا تلك الظروف. واذا علمنا ان فصل الخريف كان وشيكا، وهو عنيف خصوصا في المناطق المرتفعة وانه يؤدي الى قطع المواصلات لادركنا ان العودة كانت لها مسبباتها الموضوعية.

ولم تكن حروبات المهدية مع الحبشة حروبات توسعية في واقعها بقدر ما هي غزوات إما من اجل الغنيمة وتحريك الجيش وشغله، وإما لمجرد رد الاعتبار اثر بعض الهزائم. وكان جل ما تبغيه هو المحافظة على اقليم القضائف والقلابات.

ومن الناحية البشرية لم يجد الانصار اقبالا صادقا من الجبرتة كما ان بقية السكان كانوا معادين بحكم الدين. ولذلك لم تجد المهدية الأرضية البشرية المرجوة لبناء الدعوة الدينية ونشرها.

ولم يكن في قندر وما جاورها من البلاد ما يكفي لمؤونة هذا الجيش الضخم.

ويمكن أن يضاف الى ذلك ان الخليفة كان عزوفا عن اي توسع في اتجاه الحبشة لدواعي عسكرية وسياسية، اذ ان الاسبقية في الاهتمام والاعداد كانت

(١) حمدان الى الخليفة، ١٩ جماد أول سنة ١٣٠٥، مهدية ١/٢٩/١/٧٢.

لمنطقة سواكن ولحملة مصر والجهود المبذولة في دارفور.

ماذا كان رد الفعل عند يوحنا؟ لقد قام يوحنا بجمع جيش ضخم وزحف به نحو القلابات حتى التقى بالأنصار بقيادة الزاكي طمل، اذ كان حمدان قد توفي، وكانت معركة القلابات التاريخية التي قتل فيها يوحنا واندحر فيها جيشه وسجل بذلك الزاكي طمل انتصارا عظيما.

لقد كان من عواقب انتصار الزاكي على الحبشة في هذه الواقعة الحاسمة ان تعرضت الحبشة لعدة سنوات الى الفوضى والاضطراب. وقد أدرك الزاكي ذلك فذكر في خطاب له انهم «في أشد الهرج والمرج والزلزلة والهول». «ولقد صاروا يقتلون بعضهم بعضا» ثم استنتج «ان جميع الدار بعد هذا تؤمن بالمهدية»[1]. ولذلك اقترح على الخليفة ان يكتب الى بعض قادة الحبشة المهمين مثل الرأس عدال ومنليك وغيرهما لانهم اذا اكرموا حسب رأي الزاكي «بمذاكره من لدى جنابكم يحضروا بالطاعة مهرولين لا سيما ان تلوح لهم بان لهم الملك في الجهة على حكم المهدية»[2]. وقد استجاب الخليفة لطلب الزاكي وكتب الى قواد الحبشة يعرض عليهم الدخول في «ملة الاسلام والانتظام في سلك اتباع المهدي عليه السلام»[3].

ويبدو ان الخليفة ورجاله كانوا يبالغون في أهمية انتصارهم الحربي على يوحنا، لأنهم كانوا يجهلون حقيقة الصراعات الداخلية التي كان يدور رحاها ويجهلون طموح قواد الحبشة من اجل السلطة. ولذلك فان مصير خطابات الخليفة لهؤلاء القواد كان الاهمال لأنها كانت بعيدة عن واقع الحبشة وظروف قوادها وتنطق عن واقع المهدية واتجاهها الحازم في الولاء لها. وعلى ذلك فان انتصار الخليفة على الحبشة لم يؤد إلى تقويض تلك الامبراطورية أو تحويلها عن

---

(١) الزاكي الى الخليفة في ٢٤ شوال سنة ١٣٠٦، مهدية ٦٥/١/٤/١.

(٢) الزاكي الى الخليفة في ١٥ رجب سنة ١٣٠٦، مهدية ٢٦/١/٤/١.

(٣) الزاكي الى الخليفة في ١٣٠٦، مهدية ٢٨٢/٦/٣١/٢.

مجراها وانما نجح في انهاء الصراع الدموي بين الدولتين واودى بطموح الحبشة في غزو السودان.

لقد كانت حرب القلابات في جوهرها حربا محلية. ولكن آثارها كانت وخيمة على الدولتين، ذلك لأن جهدا كبيرا قد بذل من الطرفين من أجلها وقد عاق ذلك الجهد المبذول من قبل الحبشة لصد الغزو الإيطالي، فتقدم الايطاليون مستغلين انشغال الحبشة بالصراع الداخلي وكسبت المهدية عدوا جديدا يواجهها مواجهة مباشرة، وبدرجة اكثر خطورة من الحبشة. لقد هزم الايطاليون جيوش الخليفة في واقعة اقوردات في ١٨٩٣ ثم احتلوا كسلا في يوليو ١٨٩٤.

ولكن يبدو ان الطرفين السوداني والحبشي قد وعيا الدرس بعد حصول القلابات. فقد انكمش النشاط العسكري بعد الزاكي ثم انتقل المركز الحربي من القلابات الى القضارف.

اما النشاط التجاري فقد أصبح يمثل عنصرا هاما في علاقات الدولتين، ويسير دائما بينهما دون أن يتأثر بالظروف الحربية. وكان النقادية «واردين بحالة اطمئنان وهم لا لهم تعلق بالحرابة ومن عوايدهم السابقة أن الحرابة تكون دايرة مابين الانصار والمكادة وهم يحضروا ليبيعوا ويشتروا»[1].

وفي العقد الأخير من عمر المهدية أصبح النشاط التجاري يمثل التحرك الاساسي في تلك المنطقة. فانتعشت التجارة وارتفعت الايرادات في القلابات من العشور التي كان يدفعها النقادية. ففي فبراير ١٨٩٨م بلغت ١٠٠٠ ريال وفي الشهر التالي ١٥٠٠ ريال وفي نهاية نفس الشهر كانت ١٠٠٠ ريال أخرى. وكانت تلك الأموال الطائلة هي السبب الذي جعل الخليفة يفكر في الدخول في التجارة بنفسه باستثمار رأس مال في التجارة لجلب البضائع من

---

(١) احمد فضيل الى الخليفة، ١٩ شوال ١٣١٣، مهدية ٢/٢٦/١٠/١٣٨.

الحبشة. وفعلا سارت الاجراءات لتنفيذ تلك الخطوة في سرية تامة. وكان مندوبو الخليفة يتصلون بالنقادية سرا ولكن انشغال الخليفة بالزحف المصري الانجليزي الذي بدأ في ذلك الوقت قد أدى إلى توقف تلك المساعي.

اما العلاقة الدبلوماسية فقد تطورت بين البلدين في تلك الفترة تطورا ملحوظا. واننا نحيل من يود الاستفاضة الى مقال الاستاذ ساندرسن في مجلة السودان في مدونات ومذكرات عن العلاقات السودانية الحبشية والى كتابه عن العلاقات الدولية إزاء أعالي النيل والى كتاب الاستاذ هولت عن دولة المهدية، وقد أوردنا هذه الكتب في ثبت مصادر هذا البحث. على انه من حق القارئ ان نعطيه هذا التلخيص المقتضب لما آل إليه الأمر: لقد أرسل منليك عدة وفود من جانبه الى الخليفة، وفعل الخليفة نفس الشيء، وكادت تلك الوفود ان تصل الى عقد صلح بين البلدين لولا أن الغزو المصري الانجليزي على السودان قد وصل أبواب أم درمان[1]. ولا شك ان تحرك الحبشة كان بإيعاز من فرنسا. وقد وصل التفاهم بين البلدين حدا طلب فيه الخليفة من منليك ان يعاونه على اخضاع ولد نور الغوري حاكم بني شنقول الذي تمرد على سلطة الخليفة، فوجدها منليك فرصة وزحف بجيشه على النيل الأزرق وأرسل حملة اخرى الى النيل الأبيض بحجة وقف الزحف الاوربي[2].

كتاب الطراز:

ان كتاب الطراز، الذي نقدمه الى القارئ العربي بهذه الدراسة ليعد وثيقة هامة في موضوع هذا الصراع وفي موضوع صراعات المهدية عموما.

وقد كان كتاب الطراز أول كتاب يؤلف في هذا الموضوع، بل كان

(١) أقوال محمد عثمان حاج خالد التي أدلى بها بعد واقعة كردى، مهدية ١/٣٤/٢٥/١٤٣ - ١٥٠.

(٢) مهدية ١/٣٤/١٦/٢٥٩.

صاحبه أول من وضع كتابا في تاريخ المهدية، اذ لم يسبق كتابه «سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي» أي كتاب آخر.

واذا كانت وجهة نظر الاوربيين قد وضحت في مجلدات كثيرة صدرت عن التنافس الدولي في افريقيا فان وجهة نظر الانصار كانت في ضباب حتى تم العثور على كتاب الطراز وبعثت وثائق المهدية المتصلة بهذه القضية في السنوات الاخيرة واضحت ميسورة للباحثين.

واننا لنرجو ان تجد وثائق الجانب الحبشي نفس الحظ وان تيسر للباحثين - هذا اذا كانت هذه الوثائق موجودة بالفعل.

لقد وضع اسماعيل عبد القادر كتابه «الطراز المنقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش» بعد كتابة «سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي» وقد فرغ المؤلف من تأليف سعادة المستهدي، كما جاء في ذيل الكتاب في يوم الاربعاء ثاني ربيع الأول ١٣٠٦هـ/ ٦ نوفمبر ١٨٨٨ ثم فرغ من كتاب الطراز كما جاء في ذيله ايضا في السادس من شوال من نفس السنة وهو يوافق ٦ يونيو ١٨٨٩. وعلى ذلك فان تأليفه قد وقع بعد انتصار الخليفة على الحبش في القلابات وانتصاره على ابي جميزة في دارفور وقبل ان يـذوق الانصـار مرارة الهزيمة في توشكي على الحدود المصرية.

وقد سبق صدوره فترة حرجة من تاريخ المهدية تمت فيها تصفيات داخلية ذات ابعاد عميقة. فبعد صدور الكتاب نقم الخليفة على قائده المنتصر في القلابات الزاكي طمل وسجنه حتى مات جوعا، ثم جاء الدور على الحسين ابراهيم زهرا، ذلك العالم الجليل الذي طالما دافع بقلمه عن المهدية وأزكى الروح بشعره. ثم جاءت نكبة الاشراف. ولا ننسى بعد كل ذلك ان النقمة قد حلت بالمؤلف نفسه.

وقد وضع المؤلف كتابه بتكليف من الخليفة. وهو يصرح بذلك في خطبة الكتاب فيقول «دعاني داعي الفلاح ولمعت لبصيرتي بوارق أهل العناية الذين

استبان لهم طريق بيان الحق ولامع ما استشار به الفؤاد من الإشارة المقرونة باليمن والسعادة الموصلة الى رضوان الله من أمر منهج أهل التسليم واردة لجمع رسالة تتعلق بحرب الحبشة متكلفة ببيان وقعة النقس يوحنا التي افضت به الى الهلاك والدمار».

ومن الواضح ان هذا التكليف قد جاء بعد أن حاز كتابه الأول اعجاب الخليفة وتقديره.

غير ان للمؤلف دافعا ذاتيا من التأليف وهو ان انتصار الانصار على قوات الحبشة في القلابات يعد عنده «من الفتوحات الاسلامية الفخيمة التي يجب نشرها ليعم الخافقين نشرها وتكون موعظة بليغة لجميع ملوك الدول وعبرة لأهل الترف الرافلين في أثواب العظمة واللابسين من الترفع والخيلاء تلك الحلل لعل الله يهديهم للدخول في الدين المستقيم ويأخذ بنواصيهم الى ما فيه صلاحهم وهدايتهم».

فالمؤلف يعتبر هذا النصر نصرا اسلاميا عظيما لم يحصل للإسلام ان سجل مثله في أرض الحبة ولذلك يحق له ان يتغنى به وان ينشر خبره في العالمين.

ولقد أغفلت مصادر المهدية اغفالا تاما كتاب الطراز ولم تشر الى خبره، ولولا انه وجد مع المستهدي في مكتبة درهام لما عرف العالم عن وجوده ولاختفى خبره كلية.

ان نعوم شقير لا يذكره في تاريخه ولا في تقريره مع انه وقف على النسخة الوحيدة منه ومن كتاب سعادة المستهدي واشتراهما. ولعله اعتبره طرفا من كتاب سعادة المستهدي او ملحقا له. أما سلاطين فلم يذكره كلية مع انه ذكر خبر المؤلف وخبر سعادة المستهدي. ومن المحتمل انه لم يرَ الكتاب بعينه ولا رأى سعادة المستهدي وان كان خبر المؤلف قد بلغه فيما كان يبلغه من أخبار المجتمع. والشيخ محمد عبد الرحيم لا يذكر خبر الكتاب عندما يتكلم عن حياة المؤلف ومؤلفه الآخر.

وككتاب المستهدي ظل الطراز مخطوطا ولم يقدر له الطبع بمطبعة المهدية ولا بالمطابع الحديثة. وكان عدد ما استنتسخ منه ـ فيما يبدو ـ قليلا، والا لعرف الكتاب واشتهر كالكتاب الآخر، او لعله كان يضاف الى كتاب المستهدي فيعد منه. ولما حلت النكبة بالمؤلف تم بالمستهدي فاحرق كان للطراز نفس الحظ فاختفى حتى اشترى نعوم شقير المجلد الذي يتضمن الطراز مع المستهدي، هو نسخة فريدة تحتفظ به مكتبة جامعة درهام.

وهذه النسخة مكتوبة بخط محمد احمد هاشم. وقد جاء في الذيل ان نقله قد تم في يوم عاشوراء ضحوة ١٣٠٨ أي في العاشر من محرم، وهو يوافق في التاريخ الميلادي ٢٦ أغسطس ١٨٩٠.

وقد تأكد لنا من مضاهاة خط المخطوط بخط محمد أحمد هاشم الذي توجد نماذج معروفة من خطه بدار الوثائق القومية. ان خط المخطوط هو خطه، وعلى ذلك يمكن القول بان هده النسخة هي نسخة محمد احمد هاشم التي كتبها بنفسه، وليست نسخة منقولة عنها.

وليس يعرف مما يذكره الناسخ او من دراسة نصوص الكتاب فيما اذا كانت نسخته مأخوذة عن أصل الكتاب او عن نسخة منسوخة منه أو نسخة من النسخ المتفرعة منه. وبحكم ان هذه النسخة هي النسخة الوحيدة فلا مجال لمضاهاة نصوصه لتحري الصواب من سقط وزيادة أو تعديل في الكلام. ولكن يبدو من تتبع السياق في هذا الكتاب وفي سعادة المستهدي ان الناسخ قد نقل عن مصدر لا يشوبه شيء وان نقله كان مطابقا لذلك المصدر. وبمعنى آخر فإننا نعتقد ـ الى الحد الذي يمكن ان يطلق فيه مثل هذا التقرير ـ ان النص الذي نملكه نص مطابق لأصل الكتاب.

ويبلغ عدد الصفحات في المخطوط ١٨٢ صفحة، وهناك صفحة أخرى كتب فيها الناسخ دعاء لنفسه ثم سجل واقعة النسخ وتاريخه. وصفحات المخطوط مرقمة ومعقبة معا. وتبلغ مسطرتها على اضطراد ١٤ سطرا. والكتابة

فيها بغير شكل، ولكن بنفس واحد وبقلم واحد وبخط واحد، ما عدا التعقيب وكلمتين في آخر صفحة ٩٤ وصفحة ٩٥ كاملة والسطور الثلاثة الأولى في صفحة ٩٦، فهذا الجانب مكتوب بخط يد آخر وهو ما يقع بين قوله « ثم شرع في الاستعداد لحرب الحبشة وامر بوضع زريبة في غاية المتانة » وقوله: « فكل من عمل بهذا الصالح اعني محبة الله ورسوله محبة صادقة » في الفصل الثاني من الباب الثاني.

وقد قسم المؤلف كتابه الى خطبة ومقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة، ثم جعل لكل باب مقدمة. اما في الخطبة فإنه يذكر الحمدلة والصلولة ثم دواعي تأليف الكتاب والهدف الذي يرمي إليه، ثم يبين أجزاء الكتاب وموضوعاتها.

وفي المقدمة يعالج وضع الخليفة عبدالله. وسبيله في ذلك أولا ان ينقل طرفا مما كتبه المهدي عنه وعن مكانته. وهو في ذلك يختار فقرات من رسالة المهدي عن مكانة الخليفة والتي تبدأ بقوله: ان الخليفة عبدالله خليفة الصديق » ومن رسالته الى آدم عمر عامل المهدي بجبال تقلى ومن رسالتيه الى فخر الدين حسن المعلاوي ومن رسالته الى محمود عبد القادر عامل المهدي في كردفان. وثانيا ان يروي طرفا من أخباره وجملة من فضائله، ولكن المؤلف يبالغ في هذا الجانب ويذهب مذهبا بعيدا.

على ان الصورة التي يرسمها المؤلف للخليفة عبدالله وان ابتعدت عن واقع الشخص المقصود أو واقع أي شخص آخر هي الصورة التي كان ينشدها مجتمع المؤلف في الرجل الرشيد.

اما الباب الأول ففي ولاية يونس الدكيم على القلابات، وهو مقسم الى خمسة فصول. وقد تكلم المؤلف في الفصل الأول عن مشروعية الحرب التي شنها الخليفة عبدالله على الحبشة من وجهة نظر الاسلام إزاء الحديث المشهور: « اتركوا الحبشة ما تركوكم »، وهو يذهب الى ان محاربتها جائزة اذا وقع التعدي من قبلها عل ارض الاسلام ثم يذهب ليثبت من واقع الوثائق ان

هناك تعديا من قبلها على الاسلام وحدوده في السودان.

ثم يروي طرفا من الحوادث التي وقعت في القلابات ابتداء من تولية محمد أرباب حتى قدوم يونس الدكيم.

وفي الفصل الثاني يذكر سرية علي جبير الى جبل غورة. وفي الفصل الثالث يذكر سرية عربي دفع الله إلى دبر سينه. وفي الفصل الرابع يذكر قدبى والقبض على يحيى ولد الوكيل. وفي الفصل الخامس يذكر أمر السرية التي ارسلت الى غبتة للقبض على عجيل عوض الحمراني.

ولكن هذه الوقائع لم تقع بهذا الترتيب، كما ان بعضها لم تكن بقيادة من يذكرهم المؤلف. فسرية قدبى، وقد وقعت في أول مايو ١٨٨٧، كانت بقيادة الياس علي كنونة. وسرية جبل غورة كانت في ١٥ مايو ١٨٨٧ وكانت بقيادة علي جبير. وسرية غبتة كانت في ٢١ مايو ١٨٨٧ وقد خرجت بقيادة هنون النيل. وقد تفادى المؤلف ذكر اسمه. وسرية دبر سينه، وقد وقعت في ١٣ يونيه ١٨٨٧، كانت بقيادة هنون النيل وليست بقيادة عربي دفع الله كما يذكر المؤلف.

ويبدو لنا ان المؤلف قد اغفل ذكر هنون النيل عند الكلام عن سرية غبتة واستبدله بعربي دفع الله عند الكلام عن سرية دبر سينه، لأن هنون كان ممن آمن بدعوة محمد آدم الذي ادعى نبوة عيسى وخلق بلبلة عظيمة في رباط القلابات مما استدعى اعدامه واعدام جملة من المؤمنين به، وكان من ضمن هؤلاء هنون النيل. (أنظر في ذلك منشورات المهدية للدكتور محمد ابراهيم أبو سليم صفحة ١٠٢ والحركة الفكرية في المهدية لنفس المؤلف صفحة ٢٣).

ولم تكن هذه الحملات حملات حربية بالدرجة التي تسمى سرايا بل كانت مجرد غارات عبر الحدود ولم يكن لها أثر كبير على الوضع. ولكن المؤلف يصورها بطريقة مبالغة حتى يخلق منها انتصارات حقيقية، أو هو في الواقع ينقل صورة لما كان يروى عن هذه الوقائع في مجتمعات أم درمان.

ثم أننا نلاحظ في موضوع هذا الفصل انه لم يشر الى دعوة محمد آدم الذي ادعى انه نبي الله عيسى وما كان من قصته وقصة أتباعه حتى كان مقدم حمدان وضبطهم واعدامهم. وقد أخذ يونس في شأنه وعوتب. وكان لحركته تأثير بالغ في أم درمان لارتباط ظهور النبي عيسى بظهور المهدي. ولذلك انصرف الخليفة الى كتابة المنشورات ليبطل دعوى محمد آدم.

وفي نظرنا ان المؤلف تفادى الإشارة الى هذا الموضوع لحساسيته المفرطة.

ثم انه لا يشير الى الخلاف بين حمدان وبين يونس واحتكامهما الى الخليفة وما كان لهذا الخلاف من اثر في رباط القلابات بل انه سلك ازاءهما مسلكا واحدا هو المدح المفرط والغلو في وصف شجاعة القائدين ومقدرة كل منهما.

وفي الباب الثاني يعالج ولاية حمدان. وقد بدأت بمقدمة طويلة ذكر فيها خبر ارسال حمدان وتوقفه في الطريق ريثما يستجمع بعض القوات التي كانت تعمل في قمع ثورة ابي روف ثم مسيره حتى بلغ القلابات وأقام لقواته معسكرا بمعزل عن معسكر قوات يونس.

ويأتي بعد ذلك الكلام عن حروبات حمدان في فصلين.

وفي الباب الثالث يذكر ولاية الزاكي طمل، ويأتي في هذا الباب وصف معركة القلابات التاريخية. وقد ذكرنا في هامش هذا الباب تعليقنا في روايته، فلا نعيد ذكرها هنا.

ثم تأتي بعد ذلك الخاتمة، وهي تتعرض الى الوقائع التي وقعت في عهد الخليفة عبدالله في المناطق الأخرى: تعرض أولا الى ولاية عثمان آدم على دارفور وانتصاره على يوسف ابراهيم ثم ذكر خبر ابي جميزة واخيه ساغة من بعده. ثم جاء بعد ذلك الكلام عن سرية الرجاف ثم عن وقائع عثمان دقنة في الشرق ثم عن حملة النجومي على مصر.

تقويم

يتضح من الوصف السابق ان الكتاب يتكون من ثلاثة عناصر واضحة: أولها المقدمة وهي عن الخليفة عبدالله ومرتبته وعظمته وصفاته، أي عن الشخص الذي تمت على يديه الانتصارات التي يتكلم عنها الكتاب. وقد اقتصر الكلام عليه الى الحد الذي لا يذكر فيه المهدي وحروباته كلية، وان كان للمؤلف ان يحتج عن ذلك بكتابه الآخر الذي خصصه لسيرة المهدي.

وثانيها وقائع القلابات، وقد جعل لكل عامل وعهده بابا ثم قسم كل عهد الى أقسام وجعل لكل منها فصلا. ورغم ان اسم الكتاب قد يوحي بأن موضوعه هو واقعة القلابات الأخيرة والتي قتل فيها الامبراطور يوحنا، بحيث يكون فيها صلب الكلام ويكون ما عداها مقدمة او تكميلا للصورة، فان هذه الواقعة لا تأخذ حيزا متميزا، بل ان كل الوقائع والحوادث المتصلة بالصراع بين الحبشة والمهدية في منطقة القلابات تأخذ نفس الأهمية وتأتي بمقدار المادة المتوفرة عنها ومقدار ما بذل فيها. وعلى ذلك فان هذه الوقائع تعتبر عند المؤلف موضوعا واحدا وهو انتصار جيش الخليفة عبدالله بقياداته المتعاقبة على قوات الامبراطور.

وثالثها الكلام عن الوقائع التي وقعت في عهد الخليفة عبدالله في المناطق الأخرى حتى اعداد الكتاب.

ولو نظر المرء الى هذا التكوين للكتاب والاسلوب الذي اتبعه المؤلف في معالجة الحوادث والموضوعات لوضح له ان هدفه من الكتابة ليس سرد الوقائع التاريخية، وهذا هو الفيصل الكبير بين هذا الكتاب وكتاب السيرة الذي سبقه. لذلك فهـو لا يسترسل في سرد الحوادث وانما يحاول استخراج النقط الباهرة والتفاصيل التي تبين سطوة المهدية وما تلقاه من عون إلهي يجعل القلة تنتصر على الكثرة ويجعل الطبيعة، كالجبال والمياه والنار التي تحرق الأجساد

وما إلى ذلك مما يضمنه المؤلف في الروايات والمشاهد التي يرويها في وصف انصار الدعوة. بل ان المؤلف يعزف عن اسلوب السرد صراحة، ويحيل القارئ الى كتابه الآخر: «سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي» ليقف فيه على سرد الحوادث. وليس غرض المؤلف واقعة القلابات بعينها، وانما هو اظهار سطوة المهدية على اعدائها واثبات انها منتصرة ابدا وان راياتها تتقدم منتصرة على الدوام «لأن الله جلت قدرته وعظمت على العباد منته لما تعلقت ارادته بانجاز ما وعد به على لسان رسوله ﷺ من قوله ﷺ ان الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها، جعل احراز ذلك والاستيلاء على جميع ما هنالك بالواقعات المهدية. ومن أعظم ذلك ما يسره الله تعالى على يد سيدنا خليفة المهدي عليه السلام الخليفة عبدالله بن محمد خليفة الصديق ادام الله ايامه مشرقة بأنوار النصر المبين والفتح للبلاد والتمكين»[1]، فالإطار العام للكتاب هو هذا النصر الذي يتم على يد الخليفة في مختلف الجبهات وان كان التخصيص على واقعة القلابات باعتبار انها فتح جديد للإسلام في أرض الحبشة المسيحية. ولذلك يجيء الكلام عن حروبات دارفور والرجاف وشرق السودان وحملة النجومي على مصر على ما بينها وبين القلابات من بعد.

وقد اتبع المؤلف إزاء المواقف والمواضع الحساسة مسلكا حذرا حتى لا يوقع نفسه في مواقع الخطر وحتى لا يثير الخواطر بالكلام فيما لا ينبغي الكلام فيه. فهو لا يشير الى حادث النبي عيسى في القلابات لأن موضوع النبي عيسى يتصل بموضوع المهدي حيث الاعتقاد ان النبي عيسى يظهر بعد المهدي، وعلى ذلك يحتمل ان يكون ظهوره في عصر الخليفة، أو يحتمل ان يعتقد بعض الناس في دعوى هذا المدعي ويؤخذ الخليفة على أنه قاتل هذا النبي.

وهو لا يكاد يذكر اسم المهدي ولا يشير الى انتصاراته بل هو يجعل كل

---

(١) ص ١.

كلامه قاصرا على الخليفة عبدالله وانتصاراته. ان مثل هذا التصرف لا يمكن دفعه بالقول بأن للمؤلف كتابا آخر في سيرة المهدي لأن المؤلف يتكلم في هذه السيرة نفسها عن الخليفة عبدالله وفضائله وأفعاله مع ان بعض ما يرويه ليس طرفا من سيرة المهدي أو الوقائع التي وقعت في حياته. وكان من الممكن ان يشير المؤلف الى وقائع المهدي وانتصاراته ولو بصورة مقتضبة في مقدمة الطراز خاصة وموضوعه كما أشرنا من قبل هو سطوة المهدية وانتصاراتها، ولكنه بدلا عن ذلك انتقل مباشرة من الحديث الذي يرويه عن الرسول ليدلل به على الاستيلاء على جميع البلدان بالواقعات المهدية[1] الى الكلام عن انتصارات الخليفة.

ثم انه يضيف الى ذلك كلاما طويلا عن خلافة الخليفة عبدالله ومساندها ويؤيدها بالنصوص التي ينقلها من منشورات المهدي وبالمزايا والفضائل التي يرويها هو من مشاهداته الخاصة ومما ينقله عن الآخرين. فإذا اضفنا الى ذلك انه يتعرض الى الأشراف وحركتهم الأولى بطرف خفي عند كلامه عن صفوف الصلاة والوقوف عند إشارة الخليفة لاتضح لنا الامر الذي نحن وراءه. ذلك لأن موقف المؤلف هذا نابع من النزاع الذي كان قائما بين الخليفة عبدالله وبين الاشراف ومحاولته ابعاد نفسه من شره.

ان هذا الموقف السياسي الذي يقفه المؤلف يدفعه الى بيان فضائل الخليفة عبدالله ومزاياه الشخصية ومساند خلافته وتأكيد شرعية هذه الخلافة وأحقية الخليفة بها، ولذلك كان تعظيمه للخليفة والتغالي في مدحه وتفاديه الكلام عن المهدي وعن انتصاراته، حيث ان انتصارات المهدي قد تم أغلبها على يد قادة الاشراف أو من يكونون في صفهم، ولأن الكلام عن المهدي والتركيز عليه قد يقوي مركز الاشراف أو قد يفسر بأنه موقف يقفه المؤلف إزاء الخليفة.

وعندما يتكلم عن الوقائع التي وقعت في ولاية يونس الدكيم يتفادى ذكر

(١) انظر صفحة ١.

هنون النيل بالكيفية التي رويناها مع انه قاد حملتين، والسبب في ذلك انه اتبع دعوة عيسى القلابات. ثم انظر كيف يعالج كيفية اختيار الزاكي بعد وفاة حمدان وكيف يشير إليه دون ان يثير احدا. وهو يتكلم عن حروبات أبي جيزة ويظهر من خلالها قوة جيش الأنصار ويشيد بنصره، ومرد ذلك ان حركة أبي جيزة كانت قد أثارت خواطر الناس وملأت الإشاعات عن انتصارها وبات المشفقون في خوف منها.

ثم انه لا يتكلم عن حركة الاشراف ولا يروي ما حصل منهم وما اتخذه الخليفة عبدالله إزاءهم لأن موضوعهم حساس ويثير الخواطر ويخشى على المرء ان خاض فيه. ولكيلا يعد سكوته مناصرة للأشراف وحتى لا يتهم في عواطفه، اشار المؤلف اليهم بطريق خفي متخذا صفوف الصلاة والالتزام بها للدلالة على الالتزام بالولاء للخليفة عبدالله.

وهو يركز الكلام على القادة الذين تولوا الحرب في الجهة ويغالي في مدحهم لأنهم رجال الخليفة وقادته وعضده. وقد تفادى ان يذكر شيئا عن نزاع حمدان ويونس وما اخذ على يونس فيه حتى لا يمس قائدا يرضى عنه الخليفة وحتى لا يمس عصبية التعايشة ومن هم في قرابة الخليفة. ولما كان لقاضي الاسلام احمد علي مركز مرموق في هذه العصبية وفي بطانة الخليفة وكان رئيس المؤلف في سلك القضاء وهيئة العلماء فانه يذكر اسمه في عدة مواضع ويسند إليه بعض الأخبار. وهو الوحيد الذي يذكره باسمه من أعيان المهدية اذا استثنينا الخليفة وقادة الوقائع في الجبهات. وعندما يتعرض إلى الوقائع يتفادى المواضع التي ينهزم فيها الانصار.

فالكتاب على هذا الوجه ليس كتابا يهدف الى التاريخ لهذه الواقعة أو تلك أو لحروبات المهدية، وانما هو كتاب يتناول انتصارات المهدية في عهد الخليفة، وهو على ذلك أقرب الى مقالات السياسة او الكتب التي تصدرها

الدوائر المختصة عن موقف سياسي أو واقعة سياسية او عسكرية بغرض التمجيد والمساندة.

ولذلك كان وصف المؤلف مهمته في خطبة الكتاب بأنها «جمع رسالة تتعلق بحرب الحبشة متكلفة ببيان وقعة النقس»، وصفا قريبا الى الواقع من حيث ان كتابه ليس تأريخا وانما رسالة تتعلق بتلك الحرب، أي لبيانها وبيان ابعادها وما يدور حولها من قضايا وما وقع فيها من أمجاد.

ومن هنا فان الدور الذي يؤديه هذا الكتاب مربوط بمحاولات الخليفة عبدالله في السنوات الأولى من حكمه لتدعيم موقفه عن طريق طبع منشورات المهدي وجمع آثاره[1] والدفاع عن مقامه ومكانته واحقيته بالخلافة إزاء منازعة الاشراف وإزاء الثوار والمناهضين في أقاليم السودان بكونه الرجل الحق الذي يواصل رسالة المهدي.

وقد كتب المؤلف كتابه بأسلوب عربي رصين يخلو من الألفاظ الدارجة خلوا تاما. بل هو يحاول ان يضع حتى الاسماء الأعجمية في لسان عربي وان يلتزم برفع الاسماء ونصبها وجرها حسب أوضاعها النحوية فيقول مثلا: «الى حمدان ابي عنجة». و«جاء حمدان ابو عنجة». وليس هذا بمستغرب من رجل تعلم في الأزهر وعرف بين أترابه بالتفوق وشارك في المسابقات الأدبية ونال الجوائز عن شعره.

وهو يهتم باللغة اهتماما بالغا وبالتأنق اللفظي والسجع واستعمال المترادفات واللعب بالألفاظ، ومن ذلك قوله:

- فيا له من فتح فتحت به أبواب السما وحاز الزاكي به جميل الذكر وجزيل الأجر وسما.

وابتسم لها ثغر الثغور وتقلد بعقود جواهر أخبارها عاطل جيد الأيام.

---

(١) الحركة الفكرية ص١٤٨ - ١٥٢.

- الفتوحات الاسلامية الفخيمة التي يجب نشرها ليعم الخافقين نشرها.

- اعلم يا من أشرقت شموس التسليم في سماء بصيرته واينعت أزهار التصديق في رياض سريرته.

- أضاعوا الثغور للانهماك في لثم الشفاه والثغور.

والبناء الفني للكتاب متكامل، ذلك لأننا عهد انتصار الاسلام على المسيحية في أرض الحبشة وسطوة المهدية على كل خارج عليها في كل سطر من سطور الكتاب، يبدأ ذلك بالافتتاح: «الحمد لله معلي الحق ومعلنه وموهي الكفر وموهنه، فاتح الفتوحات ورافع الدرجات» ويمضي المؤلف يتغنى بالنصر ويهلل حتى يختم الكتاب بقوله: «وبالجملة فلوائح النصر وحصول الظفر والفتح بادية كفلق الصبح، وعن قريب تحيط جيوش المهدية بمصر إحاطة القلائد بالجيد ويذلون عزيزها بعزة ذي العرش المجيد فتتوالى البشائر بالفتح تترى، فالحمد لله على ذلك سرا وجهرا».

ثم انظر كيف يصور حملة حمدان: بلغ من أرض الحبشة محلا لم تبلغه في الجيوش الاسلامية راية ولم تتل به قط سورة ولا آية، منتقما لله تعالى ممن جحد توحيده ويضع لعبادة الانداد من دونه تعالى خده وريده».

وانظر: «وفرحوا بذلك النصر الذي يكون طرازا على اعلام الجيوش الاسلامية على ممر الاعصار» ثم «هنيئا للمسلمين بالنصر وما أولى هذا اليوم بأن يتخذ عيدا وان يسطر في جبين الدهر تاريخا جديدا اذ لم يبلغنا على كثرة التواريخ وكتب سير الأقدمين والذين دونوا في الملاحم جاهلية واسلاما في أمر الحبشة انه حصل لهم ما يقارب هذا فضلا عما يماثله».

وسبيله في التفخيم طريق. فهو يمجد العدو ويعلو به، بمثل ما فعل بالرأس الولا حيث روى وقائعه مع المصريين والايطاليين ورفع من شأنه الى درجة بعيدة، ثم يعود ليظهر كيف انهزم أمام الانصار. وهو يضخم قوة العدو ويرفع عددهم بطريقة غير محدودة ويصف المعارك بالفاظ قوية ويصورها

تصويرا ادبيا رائعا ثم ينتهي الى الانتصار، وهو عادة يأتي بسرعة لأن الانصار يتلقون العون الالهي!.

ولكن يؤخذ عليه الاغراق في المبالغة وتسليمه للخرافة بغرض الهوى. انظر: مبالغته في وصف تواضع الخليفة عبدالله حتى انه «يخدم الاخوان بنفسه ويقوم في قضاء حوائجهم سفرا وحضرا حتى انهم يرسلونه لجلب الحشيش لعلف دوابهم والحطب لوقودهم فيذهب لذلك بنفسه ويحمله ويحضره لهم ويرسلونه لتحصيل الماء لهم للشرب والوضوء وغير ذلك.. ويلزم المريض والمريض على البادة وخليفة المهدي ماش برجليه ويد المريض على كتفه رضي الله عنه مستمسكا به مخافة السقوط على الارض لانحلال قواه بالمرض».

وانظر كيف يقحم معنى بيت شعر اقحاما (١٢٨) ثم يستشهد بنفس البيت. ثم انه يؤلف مشهدا حيث يقول: «وقد اخبرني من اثق به ان الزاكي طمل لما نظر الى الخيمة المذكورة وهم في حالة الحرب اقسم بالله انه لا بد من وصوله للخيمة المذكورة او يقتل دونها وقد اصطلى بنار الحرب الى ان وصل الى تلك الخيمة وأخذها». وأنظر «وقد عاد الأنصار الى رباط القلابات ومعهم من الغنائم ما تعجز عن احصائه انامل الكتاب وتكل عن تعداده أفهام الحساب». ثم ارجع الى ما يقوله حيث يسوق رواية عن نصيحة الراس عدال لكي يكف يوحنا عن الانصار «فلا تعجبك كثرة جيشك فانهم لن يثبتوا لحرب الأنصار».

وإليك رواية أخرى: «ولما أرهق الأعداء الفارين الطلب وخافوا من الدمار بأيدي الانصار والعطب صاروا يلوذون من القتل بالاستتار بالاحجار ورضوا لحب السلامة من القتل ان يلتحقوا بعالم الغار فتراهم وهم في حالة الفرار اذ لاح لهم جحر ولو جحر ضب جنحوا للاستتار به. وهيهات. فان الانصار في اثرهم يخرجونهم من الاجحار ويقتلونهم فردا بعد فرد وصار بعضهم يختفي في مكان من الشجر فمن ظفروا به منهم قتلوه ومن لم يظفروا به منهم سلم وهو قليل ما هم حتى ان بعضهم لما لم يجد سبيلا الى الخلاص

وخشي ان يقع في حباله الاقتناص تحول قردا وبعضهم ذئبا وبعضهم تحول في صورة الأرانب والغزلان وغير ذلك من اطوار الحيوانات ليتخلص بذلك من القتل. وهيهات».

ونختم مبالغات المؤلف بما يذكره عن جامع الخليفة بأم درمان: «ومن كراماته رضي الله عنه الباهرة ومعالمه الزاهرة الادمان والملازمة الكلية على صلاة الجماعة في المسجد الذي تشد إليه الرحال وتضرب به الامثال، فانه لم يعهد مثلها في سائر الاقطار ولم ينقل إلينا ما يماثلها في سائر الامصار. وقد أطبق الناس على انه لم يعهد ما يماثل ذلك على تنائي البلدان ومرور الأزمان. وما وصل احد من سائر الاقطار النائية الى مدينة المهدي عليه السلام ورأى المسجد المذكور وما عليه من الرونق والأنوار وملازمة العبادات المتنوعة من صلاة وتهليل وتسبيح وتقديس وتلاوة قرآن وغير ذلك آناء الليل وأطراف النهار الا وكلهم قطع بأنه لم ير لذلك شبها ولا مثلا. والأخبار عما ذكرناه متسعة جدا والادلة عليه لا يحيط بها القول حدا. وقد بسطنا القول في المسجد المذكور مع بيان مقدار مساحته بالذراع في كتابنا سعادة المستهدي».

مصادر المؤلف:

أن أول مصدر اعتمد عليه المؤلف هو كتابه الآخر: سعادة المستهدي، والذي فرغ من تأليفه قبيل هذا بشهور. وقد أشار الى هذا الكتاب مرارا وأحال القارئ إليه.

ثم انه اعتمد على بعض مجلدات من المنشورات المطبوعة بمطبعة الحجر. فهو ينقل منشور المهدي عن مقام الخليفة عبدالله والذي يجيء نصه في الجزء الأول من المنشورات المطبوعة وعدد من الكتيبات. وهو ينقل ايضا طرفا من كلام المهدي عن الخليفة عبدالله في رسالته الى فخر الدين حسن وآدم عمر وعامله على كردفان. وقد طبعت هذه الرسائل مجتمعة في كتيب صغير، ولا

شك عندنا انه وقف على هذا الكتيب ونقل عنه[1].

كذلك ينقل المؤلف بعض المحررات الأخرى التي طبعت بمطبعة الحجر، ولا شك عندنا انه وقف على هذه المطبوعات.

وقد استعار المؤلف وصف الصلاة ليدل به على الوحدة والالتزام بقيادة الخليفة عبدالله بمثل ما يلتزم به المأموم خلف الإمام، وهو نفس الاستعارة الواردة في منشور الخليفة عبدالله حيث يقول: «ثم قال لي الخضر عليه السلام ان المهدي أخبرني بأن أخبرك أن تبشر الأصحاب بأن الذين لازموا الصفوف الثمانية من ابتداهن الى الآن ومحبين في الله ورسوله والمهدي وفيكم انهم مضمونين وانك كلما تأمر بمقر صف ويلازموا عليه الاخوان يلحق بهؤلاء الصفوف». وهو منشور مشهور، وهذا القول يمس موضوعا كان يهز مجتمع الأنصار هزا وهو النزاع بين الاشراف والخليفة والذي كان يعايشه المؤلف بصفته قاضيا وعالما.

يمكننا اذا أن نعتبر هذا المنشور أحد مصادر الكتاب. وقد اعتمد المؤلف - وهذا هو مصدره الرئيسي - على ما رواه الرواة الذين حضروا الوقائع وبعض كبار الأنصار. ودائما يشير المؤلف الى هؤلاء بقوله الثقات، وقد ذكر منهم بالخصوص قاضي الاسلام أحمد علي.

ومع ان المصادر الأصلية لهذه الوقائع وهي المحررات المتبادلة بين الخليفة عبدالله وبين قادته العاملين في القلابات كانت بالقرب منه فان المؤلف لم يعتمد عليها بالقدر اللازم، بل لعل الأخذ عن الرواة الذين شاهدوا الوقائع كان السبيل الأمثل في نظر المؤلف وأترابه.

ولاعتماده على الرواية نجد تجاوزا في بعض المواضع بحيث يطول أو يقصر

(١) أنظر هذه الكتيبات في القسم الثامن من مجموعة المهدية بدار الوثائق القومية.

حسبما يتوفر عنده من معلومات، نجد احيانا تفاصيل دقيقة عن موضع بينما نجد شحا في موضوع أهم منه. ومرجع ذلك أنه يروى بمقدار ما جمع وبالكيفية التي وقف عليها. ومثل هذا معهود في كل مؤلف يعتمد على السماع وما يرويه المشاهدون مما حفظته الذاكرة، وهو بخلاف ما تصوره الوثائق والمصادر المكتوبة، اذا انها تعين المؤلف على الموازنة بين المواقف والحقائق وتجعل الصورة قريبة الى حقيقتها.

نعوم شقير مؤرخا

١ - مقدمة:

يحتل كتاب نعوم شقير «تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته» أهمية خاصة بين المؤلفات التي تتناول تاريخ السودان. وقد ظل هذا المؤلف رغم توالي الأعوام وتبدل الحال وتقدم الدراسات السودانية مرجعا لا يستغنى عنه. وهو يضع بين يدي القارئ الحقائق الاساسية عن السودان وأهله ويجمع له بين دفتين، وذلك لأول مرة، تاريخا شاملا وموصولا من اقدم عصور التاريخ الى الوقت الذي انتهى طبعه فيه وهو نهاية السنة الثالثة من هذا القرن. ويعتبر الكتاب بحق خزانة كبرى للحقائق والبيانات الجغرافية والتاريخية والبشرية والثقافية. وقد جاء وضعه بعد أن صدرت بوحي المخابرات المصرية بقيادة الجنرال ونجت وبعونها المباشر عدة كتب وصفت احوال المهدية وأخبارها بعداء ظاهر بحيث يمكن أن تعد دعوة صريحة لغزو السودان واسقاط المهدية. فلما جاء كتاب نعوم كان الوقت قد تغير وحل المؤرخ محل الداعي وأضحى الهدف من التأليف هو التاريخ، فتعدلت صورة المهدية على يدي نعوم عما كانت عند ونجت واهرولدر وسلاطين بدرجة محسوسة. وقد لون هذا الكتاب أفكار الناس وآراءهم حول المهدية وجرت آراء نعوم وتقريراته بين سطور المؤرخين، ولم يتسن لقارئ التاريخ أن يقف على ما يجانبه الا بعد أن ظهر التيار الجديد من المؤلفات بدءا بالسودان في قرن للمرحوم

مكي شبيكة[1].

بيد أن هذا السفر رغم الخطورة البعيدة لم يحظ بدراسة ما، وكذلك الحال بمؤلفه الذي لم يكتب عنه الا ذلك التعريف المقتضب الذي يورده ريتشارد هل (Richard Hill) في قاموسه للشخصيات.

وقد رأينا أن نضع هذه الدراسة ادراكا لهذا النقص المعيب ونظرا لاعتماد الكثير من الباحثين وعامة القراء عليه. وإنا بذلك نواصل جهدا بدأناه منذ سنوات للتعريف بمصادر تاريخ السودان ومؤرخيه.

(٢) مصادر البحث ومراجعه:

ومن المؤسف اننا لم نقف في ملفات المخابرات الحربية المصرية التي عمل بها نعوم على شيء عن نعوم خلا معلومات مقتضبة عن سنوات خدمته تم رصدها لتعاون في تقدير معاشه. كذلك لم نجد في هذه الملفات مذكرات لغيره تبين شيئا عن حياته وأعماله ما عدا ما يرد في ملف معاشه[2]. وقد عدنا الى الملفات المتصلة بشئون الحدود الجنوبية لمصر وحملة إنقاذ غردون وتنظيم ادارة المخابرات[3]، ولكننا لم نظفر عن نعوم إلا بنتف قليلة.

والملف المتعلق بمعاش نعوم مفيد للغاية، وهو ملف ضخم، وقد رمم فنيّو

(١) راجع تقديرنا لهذا الكتاب في كتابنا: مكي الطيب شبيكة.

(٢) ملف موظفين بدار الوثائق المركزية برقم ١٩/٣/٢، وسوف نشير فيما يلي الى هذا الملف بقولنا: ملف المعاش.

(٣) ملفات المخابرات الحربية المصرية بدار الوثائق المركزية:
الحملة النيلية لانقاذ غردون برقم ١/٦/٣٣-٣٤ السياسة الانجليزية في شرق السودان برقم ١/٨/٣٩.
مكتب مخابرات الجبهة النوبية برقم ١/١٣/٧٩.
تنظيم المخابرات الحربية برقم ١/١٨/١٠١.
انشاء مديرية الحدود برقم ١/٢٤/٢٤٠.
تنظيم مكتب المخابرات بالقاهرة برقم ١/٣٠/١٦١

دار الوثائق أوراقه وأصبح حجمه أضخم من حقيقته. وترد في هذا الملف بيانات جمعت عن سنوات خدمته بغرض تحديد معاشه كما وردت فيه بيانات عن أسرته. وقد حددت سنوات الخدمة غير المعاشية وسنوات الخدمة المعاشية، وتبدأ الاخيرة من ٢٧ ابريل ١٨٩١. ولما كان ما يستحقه الموظف عن خدمته في السودان بغير ما يستحق عن الخدمة في مصر فقد اورد هذا الملف رصدا منضبطا عن عمله في السودان وعمله في مصر. كذلك يورد الملف تفصيلات عن ميلاده ووفاته وميلاد أولاده، وهي أمور أيضا تتصل بتقدير المعاش وصرفه.

أما ملف خدمته الاصلي فلم نقف عليه، ولعله ان يكون محفوظا في دار المحفوظات المصرية. ولو اسعدنا الحظ بالوقوف على هذا الملف لادركنا بيانات أوفى عن تعيينه وترقياته ولوقفنا على علاقته برؤسائه وتقاريرهم عن أدائه وكل ما يتصل بخدمته.

وقد أورد له هلْ كتابا واحدا في قاموس المؤلفات[1] وهو تاريخ السودان وترك ما عداه مع أنه يشير الى غير هذا الكتاب في الترجمة. وربما كان العذر في ذلك ان مؤلفاته الاخرى تعالج أمورا بغير أمور السودان في حين ان القاموس مخصص للمؤلفات التي تختص بالسودان. وفي قاموس الشخصيات[2] يورد هلّ خلاصة طيبة عن حياة نعوم وأعماله. ويبلغ ذلك نحو ٢٥ سطرا، وهو مقدار عظيم نظرا الى تـوخـي الاختصـار في الموسـوعـات والقـواميس وبالقياس الى ما يورده عن الآخرين. فهو مثلا يورد ٤٢ سطرا عن الخليفة عبدالله و٢٢ سطرا عن حمدان ابي عنجة و١٤ سطرا عن عبد الرحمن النجومي. ومن الملفت للنظر، وان كان ذلك لا يتعلق بما نحن فيه، ان هلّ لا يورد ترجمة لونجت باشا مع أنه ترجم لقريبه ونجت الذي خدم في السودان ايضا. ولعل ترجمة الأول قد سقطت من جراء تلاحق الاسمين. وقد أشار

---

(١) Hill, Richard, Biographical Dictionnary of the Sudan.

(٢) Billiographical Dictionnary of the Sudan.

هلّ في ترجمة نعوم الى مؤلفاته فذكر تاريخ السودان وتاريخ سيناء وكتاب الامثال ثم قال: وبعضا من المؤلفات القصيرة - هكذا بغير تخصيص.

ويذكر نعوم في كتبه بعض جوانب نشاطه كلما جاءت مناسبة، فهو يذكر في تاريخ السودان مؤلفه في تاريخ الحبشة[١] ومؤلفه الآخر عن الأمثال[٢]. وهو يذكر ايضا اشتراكه في سنة ١٨٨٤ في حملة انقاذ غردون وانه صعد من أجلها جنوبا حتى آبار الجكدول[٣] ثم اشتراكه في ١٨٩١ في الحملة على طوكر[٤]، واشتراكه في حملة الفتح في ١٨٩٦م و١٨٩٨[٥]. وقد روى مشاهداته الخاصة عن هذه الحوادث. ثم أنه يذكر اولئك الذين التقى بهم وأخذ عنهم البيانات من أمثال الزبير باشا رحمة وعبد القادر حلمي باشا وعثمان دقنة. واذا واتته المناسبة فانه كثيرا ما يذكر معارفه واصدقاءه سواء كانوا من الموظفين والضباط او من غير العاملين في دولاب الحكومة.

وفي تاريخ سيناء يذكر علاقته بسيناء وزياراته لها واشتراكه في لجنة الحدود المصرية لتحديد الحدود الشرقية لسيناء[٦] وعلاقته بالثورة العربية[٧] وبرجال الطريقة السنوسية[٨]. وهو لا يذكر زيارته لليمن وتأليفه لكتاب في تاريخ اليمن، ويبدو ان ذلك كان بعد تأليف تاريخ سيناء. وقد ذكر في التاريخين، أي تاريخ السودان وتاريخ سيناء، المراجع التي رجع إليها والرواة الذين أخذ

(١) تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، طبعة مصر ١٩٠٣، المقدمة ص٢، جغرافية وتاريخ السودان طبعة بيروت ١٩٧٢، ص١١٥٩ وسوف نشير فيما يلي الى طبعة مصر بقولنا التاريخ (ط.م) والى الطبعة الاخرى بقولنا: التاريخ.

(٢) التاريخ صفحة ٨٣٥.

(٣) التاريخ ص٨٣٥.

(٤) التاريخ ص١١٤٦- ١١٥٠.

(٥) انظر إشاراته مثلا في التاريخ ص١٢٠٦، ١٢٢٣- ١٢١٥، ١٢١٩.

(٦) تاريخ سيناء ص٣.

(٧) نفس المصدر، ورد ذلك بطريق غير مباشر في عدة مواضع.

(٨) نفس المصدر ص٧٥١.

عنهم وظروف التأليف ومنهجه في الكتابة وتعامله مع الروايات ورواة الاخبار[1].

هذه مواضع تفيدنا عند دراسة شخصية نعوم، واذا ما اضفناها الى ما تقدم فاننا نكون قد وقفنا على قدر طيب من المعلومات يتيح لنا، وان كنا نفتقد بيانات عن بعض جوانب من حياته واسرته، ان نقوم بهذا البحث.

(٣) حياته:

ولد نعوم بشارة شقير بالشويفات بلبنان، حسب تقدير التقرير الطبي الصادر بالقاهرة في ٢٣ مايو ١٩٠٦[2]، حوالى مايو ١٨٦٤. وقد لجأ المسئولون الى تقدير سنه طبيا لأن ميلاده لم يكن مسجلا في القيود الرسمية، وهو في ذلك مثل معاصريه من أبناء السودان سواء بسواء، فلا تبخسن حسابنا دون أن تنظر في حال غيرنا، اذ الظن عندنا دائما اننا كنا دون ما عليه غيرنا في كل أمر. وحتى نكون دقيقين فينبغي أن نذكر ان الشهادة الطبية المذكورة تقدر سنه في ذلك التاريخ باثنين واربعين عاما، وحسب تقديرنا فان ذلك يجعل ميلاده حوالى مايو ١٨٦٤. الا ان ريتشارد هلّ يذكر في قاموسه للشخصيات انه ولد في سنة ١٨٦٣، ولسنا ندري ان كان هذا التاريخ هو ما توصل إليه بتقديره اعتمادا على الشهادة الطبية السابقة او جاء اعتمادا على مصدر آخر. وجاء في تقرير مكتبي[3] ان عمره في اواسط سنة ١٩١٦ كان قد تجاوز الخمسين، وهو تقدير يجعل مولده في الحدود المذكورة ولكن دون تحديد سنة بعينها.

وقد رجعنا الى ابن اخيه الطبيب وديع شقير، وهو يعمل بتجارة العقاقير في الخرطوم، فأفادنا بقدر.

(١) التاريخ (ط.م.) المقدمة ص٢-٣.
(٢) التقرير الطبي بملف المعاش.
(٣) ملف المعاش.

ومن الملاحظ ان المصادر تسكت كلية عن ابويه واجداده ونشأته. وقد سكت هو كليا عن الكلام عن اسرته ونشأته.

وأسرة شقير في الأصل من اليمن، وقد استوطنت الشويفات، وما زال بهذا البلد بقية من الاسرة بعد ان هاجر منها من هاجر. وتقع الشويفات جنوب شرق بيروت على بعد ١٨ كيلومترا. وارض مطار بيروت الدولي جزء من الشويفات، ومن الطريف انه كان في اول عهده يسمى مطار الشويفات. وبين الشويفات وبيروت تقع عاريا، وكان لاسبر افندي شقير، عم نعوم، منزل بها. وفي هذا المنزل ولدت زوجته ابنته اولغا، فيما تبين شهادة من الكنيسة، كل اولاد نعوم. وكان اسبر هذا مترجما في قنصلية بريطانيا ببيروت قبل الحرب العالمية الاولى. وقد فاز بلقب افندي من السلطان العثماني. وكانت زوجته بيروتية وليست من عائلة شقير. اما والدا نعوم فيبدو انهما كانا من عامة الناس. وكان نعوم ابنهما الوحيد الذي درس في الكلية.

تخرج نعوم في الكلية الانجيلية السورية في ١٨٨٣[1]. وهذه الكلية هي التي صارت فيما بعد الجامعة الاميركية ببيروت، وقد تخرج عنها - ويا للمصادفة - مؤرخ السودان المشهور مكي شبيكة، واسماعيل الأزهري الذي قاد السودان الى الاستقلال، وعبيد عبد النور ونصر الحاج علي وآخرون غيرهم. ومن نفس الكلية ايضا تخرج قريبه سعيد شقير في ١٨٨٥، وهو الذي صار وكيل اسرته بعد وفاته. وقد التحق سعيد ايضا بخدمة الجيش الانجليزي بمصر ثم صار فيما بعد رئيسا لحسابات حكومة السودان. وقد فاز بلقب باشا المصري ولقب سير الانجليزي، وهو أمر لا يناله الا القليلون ممن يتخذون دربه. درس نعوم في هذه الكلية الآداب وحاز على درجة بكالريوس العلوم في ١٨٨٣[2]. وقد هاجر نعوم بعد تخرجه الى مصر مثل جماعات اخرى من الشوام هاجروا إليها

---

(١) التاريخ (ط.م) المقدمة ص١.

(٢) ملف المعاش.

واستقروا بها. ويقول نعوم في تاريخ سيناء انه عند هجرته الى مصر كان غير متجاوز العشرين من العمر[١].

وقد ذكر وديع ان نعوما كان مشتركا في جمعية تعارض تركيا وأنه لم يعد يذهب الى لبنان خوفا على نفسه حتى سقط الحكم العثماني عن الشام، وهو امر يدل على وجود حركات مناهضة للترك في اوساط الطلبة وعلى ان نعوما كان ممن استهوتهم هذه الحركات وهو في شبابه.

ومن الطريف انه يشير الى جنسيته في بطاقة الخدمة بأنه عثماني[٢]، نسبة الى الدولة العثمانية التي كانت تتبع لها بلاد الشام، وهي الهوية التي كان عليها الشوام في مصر وغيرها عموما. وقد ذكر نعوم صراحة ان الكثيرين من الشوام في مصر كانوا على هذه الهوية[٣]. وبالطبع فان ذلك كان مفيدا للشوام في مصر عندما كانت تتبع لدولة آل عثمان، اذ لا فرق اذن بينهم وبين المصريين في الحقوق. فلما كانت الحرب العالمية الاولى وانفصلت سوريا عن تركيا وسقطت دولة آل عثمان التي انضوت تحتها شعوب وامم اسلامية وغير اسلامية كثيرة تعدلت الهويات حسب الانشطار الخطير الذي وقع في جسم العالم الاسلامي وعاد الناس الى الهويات القومية والاقليمية. وهذا ما نشاهده في هوية نعوم التي يذكرها في البطاقات المتأخرة، اذ صار روميا سوريا، وهذا يعني انه سوري موطنا، بالمعنى الشامل لسوريا والذي يشمل لبنان، وأنه رومي بالهوية العرقية. ثم يضيف الى هويتي الموطن والعرق الهوية الطائفية فيسجل انه ارثوذكسي، ولكن من الحق ان نقول ان الهوية الطائفية كان معمولا بها تحت المظلة العثمانية ايضا. وهكذا ترى ان سقوط الدولةالعثمانية قد خلق تمزقا في هوية اولئك الذين عاشوا في ظل هذه الدولة وحلوا هويتها الواحدة الجامعة. فهذا الارمني المسيحي لم ير غضاضة او حرجا

---

(١) اريخ سيناء ص٧٢٢.

(٢) بطاقة الخدمة بملف المعاش.

(٣) تاريخ سيناء ٧٥٥.

في اول الأمر، بالرغم من الفارق العرقي والديني بينه وبين غالبية رعايا هذه الدولة، في ان يذكر انه عثماني طالما انه مستظل بظل الدولة العثمانية الاسلامية وقد رأى هذا الوصف كافيا لبيان هويته. فلما ذهبت تلك الدولة وانزاح ظلها عن الرعايا صارت الهوية هوية ممزقة قطريا وعرقيا، لأن كل قومية وكل عرقية صارت تطلب هويتها الخاصة. وبالطبع فان هذا أدى الى تعميق الهوية الطائفية وتركزها. وهذا هو الذي أدى إلى روح التشرذم الذي نراه الآن.

وفي مصر التحق نعوم اولا بخدمة الجيش الانجليزي ثم تحول الى خدمة الجيش المصري ثم الى خدمة حكومة السودان، وقد ظل في هذه الخدمة حتى توفي سنة ١٩٢٢. بيد انه من الصعب في غياب ملف خدمته ان نرصد بيانات تفصيلية متوالية عن تنقلاته الوظيفية. وليس في مقدورنا ان نفعل ذلك اعتمادا على مؤلفيه عن تاريخ السودان وسيناء لأنه لم يتعرض فيهما إلى مواقف من حياته الا اذا كانت لهذه المواقف صلة بالحوداث التي يؤرخ لها. وليس في ذلك ما يعين على تبين تقلبات حياته في الوظيفة بشكل منتظم. وما جاء في ملف معاشه كان لتقدير خدمته المعاشية وغير المعاشية وتحديد ما كان منها بالسودان وما كان منها بمصر ولم يكن بغرض رصد خدمته بما يبين مواقعه الوظيفية وتقلباتها.

وبعد وصوله الى مصر بقليل التحق نعوم بخدمة الجيش الانجليزي. كان ذلك في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨٤. وقد الحق على التو بحملة انقاذ غردون فرافقها حتى آبار الجكدول في صحراء البيوضة. وقد انتهت هذه الحملة باخفاق نتيجة لسقوط الخرطوم قبل ان تبلغ الحملة غايتها. وعلى الاثر ارتدت الحملة شمالا حتى وصلت منطقة الشلال الثاني - حلفا وجنوبها - في يونيو ١٨٨٥. وبعد ذلك مباشرة انحلت الحملة واستعيض عنها بجيش الحدود والذي اتخذ أسوان مركزا له. وقد كلف هذا الجيش، وهو جزء من جيش الاحتلال الانجليزي مثلما كانت حملة الانقاذ ايضا، بالمحافظة على حدود مصر

الجنوبية واعطيت قيادته للجنرال قرفنل.

كانت شئون السودان من مدنية وعسكرية تدار بإدارة خاصة بمجلس النظار تسمى ادارة السودان. وقد فصلت هذه الادارة من المجلس وضمت الى الحربية في ١٨٨٤. بيد ان مهامها قد تقلصت في السنوات التالية تبعا لتطور الحوادث. وفي ١٨٨٦ اقترح ونجت من موقعه بجيش الحدود دمج ما تبقى من مهامها الى الادارة الحربية كليا. وفي سنة ١٨٨٧ انشئت إدارة عسكرية بالسودان وادمجت فيها ادارة شئون السودان[1].

وليس من الواضح كيف كانت تدار شئون المخابرات أول الأمر ولكن يبدو ان ضباط الجيش المكلفين بمهات المخابرات كانوا يرفعون تقاريرهم الى اداراتهم من غير ان تكون هناك إدارة مختصة بجمع المعلومات وتقييمها وتصنيفها في شكل يستفاد منها على وجه منظم.

ويبدو أن مولد مكتب مخابرات الجيش المصري كان من داخل جيش الحدود. فقد كان كتشنر موفدا من قبل ادارة الجيش الى دنقلا لجمع المعلومات وخلق الاتصال بغردون، وقد استقر بالدبة لفترة. وهكذا اختبر كتشنر بنفسه عمل المخابرات وعرف ضرورتها. وقد اهتم جيش الحدود بجمع اخبار الجبهة وتحركات الأنصار في المناطق المتاخمة. ويذكر ونجت في تقرير له بصدد إعادة تنظيم المخابرات انه أنشأ في ١٨٨٦ قلما للمخابرات تابعة لإدارة السودان. وكان ونجت في مبدأ الأمر مساعدا للقومندان العمومي للجيش لشئون التجنيد. فلما الغيت إدارة السودان وانشئت ادارة عسكرية للسودان اصبح قلم المخابرات احد اقسامها. وفي سنة ١٨٨٨ تقرر إحالة أعمال قلم المخابرات الى ونجت إضافة الى عمله في شئون التجنيد. وكان يعاونه في هذا

---

(١) ملف المخابرات الحربية المصرية برقم ١/٣٠/١٦١. وقد اعتمدنا في بناء ما اوردناه عن تاريخ مصلحة المخابرات الحربية المصرية على الملفات الواردة اعلاه تحت رقم (٢).

القلم ملحم بك شكور السوري الاصل مثل نعوم. وفي اوائل ١٨٨٩ كتب كتشنر، ربما تحت تأثير ونجت، مؤكدا على أهمية المخابرات بالنسبة للجيش ومحددا الأهداف منها في السودان وفي الحدود وفي داخل مصر نفسها. وهكذا اعيد النظر في جهاز المخابرات للإحساس بأهمية المعلومات وربما تحت ضغط ما كان يرد عن استعدادات حملة النجومي على مصر. وقد أدى ذلك الى انشاء ادارة متخصصة للمخابرات تحت ادارة ونجت والذي تولى بالإضافة الى ذلك بعض الشئون الإدارية لمنطقة الحدود. وقد اعفى ونجت عندئذ عن مهمة التجنيد.

ظل الحال على هذا الوجه حتى صدر تنظيم جديد للمخابرات في ١٨٩٢. وبمقتضى ذلك صارت للمخابرات رئاسة في القاهرة وفرعان احدهما في اسوان والثاني في سواكن. وقد حددت مهام المخابرات في اربعة مجالات:

١ - توفير المعلومات عن جيش المهدية وتحركاته.

٢ - جمع المعلومات الخاصة بالوضع السياسي والاقتصادي بمصر والسودان.

٣ - علاقة السودان بغيره من البلدان.

٤ - مصير الاوربيين المحتجزين في ام درمان.

أما نعوم فقد عاد مع اللورد ولسلي الى القاهرة بعد حل حملة الانقاذ في ١٨٨٥[١]. ثم دعى الى مكتب قمندانية جيش الحدود في أسوان فعمل بها مترجما لعامين[٢]. وفي ٣١ مارس ١٨٨٧ عاد مع جيش الحدود الى القاهرة[٣]. وقد ظل في خدمة هذا الجيش حتى التحق بمكتب المخابرات نهائيا في ١٨٨٩ حسبما يروي نعوم[٤] او بعدها فيما توحي بعض الأخبار.

---

(١) ملف المخابرات الحربية المصرية برقم ١/٣٠/١٦١. وملف المعاش.

(٢) ملف المعاش.

(٣) ملف المعاش.

(٤) تاريخ سيناء ص٣.

وفي اغسطس ١٨٨٩ وقعت معركة حاسمة بين قوات جيش الخليفة بقيادة عبد الرحمن النجومي وبين قوات الجيش المصري في قرية توشكي على الحدود الجنوبية لمصر. بيد أن التقارير لا تشير الى اشتراك نعوم في هذه الواقعة بأي قدر كما انه هو شخصيا لا يذكر لنفسه اي دور فيها، ولو كان حاضرا في هذه الواقعة لما سكت عن الإشارة الى هذا الحضور، وهو الذي يشير كما سبق ان ذكرنا، الى حضوره في كل واقعة حضرها ويروي ما كان له من المشاهدات. ونحن نستنتج من سكوته وسكوت التقارير عن ذكره إزاء هذه الواقعة انه كان اثناءها بالقاهرة بعيدا عن موقع الصراع.

وقد ذكر نعوم في تاريخ سيناء وتاريخ السودان انه التحق بالمخابرات في ١٨٨٩، ولكن دون ان ينص على شهر معين. فهل كان التحاقه بالمخابرات قبل تنظيم المخابرات في اوائل ١٨٨٩ ام كان بعد هذا التنظيم؟ وهل كان ذلك قبل واقعة توشكي في اغسطس ١٨٨٩ ام بعدها؟ ليس هناك من سبيل الى قدر من التحديد. ثم ان هناك ما يشكك في ان تعيينه في المخابرات كان في ١٨٨٩.

ومن المؤكد انه لم يكن بالمخابرات في ١٨٨٨ لأن قائمة موظفيها لهذا العام لا تبين اسمه. ولم نقف على قوائم السنوات التالية لموظفي المخابرات حتى ١٨٩٣. ويفيدنا ملف معاشه بأنه عمل مترجم ظهورات[1] في خدمة غير معاشية بإدارة المخابرات اعتبارا من اول فبراير ١٨٩٠ وحتى ٢٦ ابريل ١٨٩١. ويذكر ريتشارد هل في قاموسه انه بدأ الخدمة في المخابرات من ١٨٩٠. ولعله استوحى هذا التحديد من التاريخ الذي حدد لبداية خدمته غير المعاشية كمترجم ظهورات. وجاء في سجل اقسام إدارة المخابرات

---

(١) كاتب الظهورات هو الذي يسجل الاحداث وبعد المسودات، وبالدارجة يقولون بظهر الجواب يعني يكتب مسودته.

والموظفين العاملين بها ان نعوما كان الرجل الثاني في قسم المعلومات[١]، وهو الذي كان منوطا به تسجيل اقوال الرواة واعداد يوميات المخابرات وجمع قصاصات الصحف، في حين كان ملحم شكور الرجل الثاني بعد ونجت في مصلحة المخابرات كلها. وقد جاء في هذا السجل ان نعوما عيّن في قسم المعلومات في اول فبراير ١٨٩٠. وعلى ذلك فاننا نميل الى القول بأنه عين في المخابرات في هذا التاريخ وليس في ١٨٨٩ كما جاء في اقوال نعوم، فبراير ١٨٩٠، وهو امر مستبعد[٢].

ويبدو ان مكانة نعوم في المخابرات قد توطدت بسرعة وان نجمه بدأ يصعد الى مراقيه. ففي ١٨٩٠ يصحب نعوم السردار في رحلته التفقدية لمنطقة الحدود الجنوبية، ثم يصحبه في زيارتيه لمدينة سواكن في عامي ١٨٩١ و١٨٩٢، ثم في زيارته الثانية لمنطقة الحدود الجنوبية في ١٨٩٣[٣]. وعندما تولى ونجت قيادة الحملة على طوكر في فبراير ١٨٩١ أخذ معه نعوما[٤]. وقد اهتم ونجت بالوثائق التي غنمت بعد الواقعة في مركز الانصار بقرية عفافيت فجمعها وترجم بعضا منها ووضع القوائم لبعض الوثائق والمصنفات. واعتمادا على هذه الوثائق اعد المذكرة التي كتبها عن شرق السودان تحت ادارة المهدية. وبعض ما غنم هنا محفوظ بدار الوثائق القومية بالخرطوم، وبعضه محفوظ ضمن وثائق ونجت بمكتبة الدراسات الشرقية بجامعة درهام بالمملكة المتحدة، ومصنف واحد وجد طريقه بكيفية غير مدروكة عندنا الى المكتبة

---

(١) يسمى هذا القسم Intellegence section وهو من اقسام مصلحة المخابرات Intellegence Department ومن الممكن ترجمة ذلك الى قسم التحقيقات او قسم المخابرات ولكننا نفضل قسم المعلومات منعا للخلط.

(٢) يلاحظ ان نعوم لا يلتزم الدقة كثيرا عندما يذكر التواريخ المتصلة بحياته.

(٣) هلّ: موسوعة الشخصيات.

(٤) هلّ: موسوعة الشخصيات، التاريخ ١١٤٦ ـ ١١٥٠.

الوطنية الفرنسية بباريس[1]. ومع ان نعوما يذكر في تاريخ هذه الواقعة مشاهداته وذكرياته[2] فانه لم يشر الى اي دور له في جمع الوثائق واستخلاص الحقائق منها. وكل ما يذكره هو «وجدت بين دفاتر بيت المال واوراقه تاريخ وقائع عثمان دقنة كما قدمه للخليفة فاطلعت منه على حقائق شتى»[3].

وقد اشترك نعوم في الإعداد لحرب سلاطين من ام درمان والذي شكل انتصارا باهرا لإدارة المخابرات. وعلى الأثر انعم عليه بلقب البكوية[4] الذي لا يحوز عليه الموظف الا اذا انجز انجازا كبيرا. ثم اشترك في الحملة على دنقلا عند بدء الاسترداد، وكان حاضرا واقعتي فركة والحفير وروى عنهما مشاهداته[5]. وفيما يذكر ملف المعاش فان هذه المهمة كانت ما بين ٢٩ مايو و١٨ اكتوبر ١٨٩٦. ويبدو انه صار على قدر من المسئولية، وذلك ما يوحيه إلينا اعداده لتقرير عن استرداد ابي حمد وتقرير آخر عن أحوال مديرية بربر في ١٨٩٧[6]. ثم جاء الى السودان في ١١ اغسطس ١٨٩٨ واشترك في الحملة على ام درمان وحضر واقعة كرري، وهو يورد في تاريخه بعض مشاهداته الخاصة عنها[7]. وقد كر راجعا الى مصر في الثاني من اكتوبر ١٨٩٨. ثم عاد الى السودان وقضى به ما بين ١٢ نوفمبر و١٥ ديسمبر ١٩٠١[8]. وكان في ١٩٠٠ قد اصبح رئيسا لقسم التاريخ بإدارة المخابرات[9] وقد توافق ذلك مع

---

(١) أبو سليم، محمد ابراهيم: الحركة الفكرية في المهدية ص١٧٦

Wingate. F.R. Report on the Dervish nule in nule in Eatern Sudan, Cairint 3.

(٢) التاريخ ص١١٤٦ – ١١٥٠.

(٣) انظر الملخص الذي يورده ونجت في هذا التقرير عن دفتر الوقائع.

(٤) هلّ: موسوعة الشخصيات.

(٥) التاريخ ص١٢٠٦، ١٢١٢ وما بعدها.

(٦) المخابرات الحربية المصرية رقم ١٤٧/١٤٦/٨/٣.

(٧) التاريخ ص١٢٨٨.

(٨) هلّ: موسوعة الشخصيات.

(٩) ملف المعاش.

نقل ادارة المخابرات ذاتها من الحكومة المصرية الى حكومة السودان[١] مع بقاء رئاستها في القاهرة حيث كان يقيم ايضا السردار والحاكم العام للسودان. ثم جاء الى السودان في ١٩٠٦ لحضور الاحتفال بفتح سكة حديد البحر الأحمر، وفي ١٩٠٩ لحضور الاحتفال بفتح ميناء بورتسودان[٢].

وبعد سقوط ام درمان تصدى ونجت ونعوم لجمع الوثائق على نحو ما فعلت المخابرات من قبل بعد الوقائع السابقة. وحسبما يروي نعوم في تقرير جيد عن هذه الوثائق وجمعها[٣] فان ونجت اعطى اعتبارا خاصا بعد الواقعة للوثائق. وتدل بعض الروايات انه تنبه لذلك بعد ان ابلغه كاتب الخليفة الاول بسرقة ختم المهدي من محفوظاته[٤]. وقد خرج ونجت ومعه نعوم ووقفا على ما كان من الوثائق بمنازل المدثر ابراهيم الحجاز وابو القاسم هاشم والامير يعقوب ثم بيت الامانة ووضعاها تحت الحراسة. وفي اليوم التالي تولى نعوم المهمة بمفرده فوضع الحراسة على ما كان ببيت المال ومنازل نحو مائة من الامراء. ثم جمع نعوم كل ذلك وحفظها بمنزل الامير يعقوب والذي كان قد تحول الى قومندانية. وقد وضع الوثائق فيما بعد في زكائب ووضع الزكائب في اخراج الصمغ ونقلها الى ادارة الحربية بالقاهرة.

ان هذا الذي جمعه ونجت ونعوم غداة سقوط ام درمان يكون المجموعة الرئيسية من وثائق المهدية، وهي محفوظة في دار الوثائق القومية وفيما سبق كانت المخابرات قد جمعت جملة من الوثائق بعد الوقائع الحربية، منها مخطوط وحيد بعد واقعة توشكي، ومجموعة مخطوطات ووثائق في عفافيت، وجملة من الأخيرة محفوظة بدار الوثائق القومية وجملة اخرى بمكتبة جامعة درهام، وقد تسرب مصنف الى دار الوثائق الفرنسية. ثم جمعت جملة اخرى من الوثائق بعد

---

(١) نفس المصدر.

(٢) هل موسوعة الشخصيات.

(٣) Memo on Khalifa Correspondence, Cairint 8/12/1898.

(٤) الحركة الفكرية في المهدية ص١٢٢ ـ الختم المعروض الان بمتحف الخليفة هو الختم الثالث الذي بطل استعماله في اواسط ١٣٠١. اما الختم الرابع والاخير فلم نقف عليه بعد.

وقائع حملة الفتح[1].

وكان لنعوم اتصال بسيناء واموره بحكم عمله في ادارة المخابرات لان سيناء كانت تابعة للحربية المصرية التي تتبع لها المخابرات، وكان يتولى ادارة سيناء قومندان يقيم بنحل ويرجع بإحكامه الى مدير المخابرات فيرفعها هذا الى سردار الجيش المصري. ومجموعة المخابرات الحربية المصرية بدار الوثائق القومية بعض تقارير عن سيناء، وهي من قبيل ما كانت تعده المخابرات عن شؤون سيناء[2]. وقد تسنى لنعوم ان يزور كثيرا من معالم سيناء، وان يقف عن كثب على مجريات احوالها[3]. ولما كانت سنة ١٩٠٦ نشب نزاع بين مصر وتركيا حول حدودها الشرقية، وعلى الاثر تكونت لجنة مصرية للتفاوض مع لجنة تركية. وقد عين نعوم سكرتيرا للجنة المصرية وكلف بمدها بالمعلومات. وقد اخذت منه هذه المهمة خمسة اشهر وتسعة ايام وكانت عودته الى القاهرة في اكتوبر ١٩٠٦. وفي السنة التالية زار مدينة الطور[4]. ولما جاءت الحرب العالمية الاولى واعلن الشريف حسين بن علي الثورة على تركيا كلفت بريطانيا ونجت، والذي كان قد اصبح قنصل بريطانيا العام في مصر، بتقديم المساعدات له من عسكرية وسياسية. وهنا جاء دور نعوم بحكم عمله في المخابرات وصلاته بونجت فقدم بعض خدمات وخلق صلات شخصية ببعض القادة العرب كان لها أثرها. ولكن الوثائق لا تبين دوره بكيفية واضحة، وفي ظننا ان الدور الذي لعبه لم يكن مهما الا بقدر. وترد في وثائق ونجت بجامعة درهام معلومات عن هذا النشاط كما يورد نعوم بعض اخباره في تاريخ سيناء. وفي ملف معاشه بعض إشارات الى علاقته بالزعماء العرب.

وقد كلف نعوم بجمع الحقائق عن الحدود بين دارفور ووادي ـ الحدود

---

(١) نفس المصدر ص١٢٥.

(٢) انظر مثلا المخابرات الحربية المصرية برقم ١٦٩/٩/١ عن ادارة سيناء في ١٩٠٤.

(٣) تاريخ سيناء راجع المقدمة.

(٤) تاريخ سيناء ص٥.

الحالية بين السودان وتشاد ـ لما ان خلافا قد نشأ بين الانجليز والفرنسيين حول هذه الحدود، وهو نفس الدور الذي أداه بالنسبة لحدود سيناء الشرقية، فانكب نعوم في السنوات ١٩١٠ الى ١٩١٣ وجمع معلومات ونصوصا من وثائق المهدية والادارة المصرية والمؤلفات التي تعرضت الى دارفور ووادي وترجم الى الانجليزية ما كان منها بغير هذه اللغة. وهذا الذي جمعه نعوم محفوظ الآن بدار الوثائق القومية بقسم المخابرات المصرية. وبعض ما يورده هنا لا يوجد الآن في غيره.

وقد زار اليمن، فيما روى قريبه وديع، وكتب كتابا في تاريخه، وجاءت وفاة نعوم بحي السيدة زينب بالقاهرة في ٢٥ مارس ١٩٢٢. وقد رثاه بعض الشعراء، وقيل ان المراثي جمعت في كتاب. وحسبما يبدو من الوثائق المتوفرة لدينا فانه خلف لاسرته منزلا متواضعا بالخرطوم والمعاش الذي يستحقه عن خدمته. وهكذا لازم نعوما الفقر الذي يلازم أهل القلم عادة. وقد خلف ايضا مجموعة من الكتب والأوراق لا نعرف أين انتهت. وقد حاولنا ان نصل الى ما تركه نعوم من أوراق ولكن بحثنا لم يصل الا الى ابنته فيوليت والتي لم تكن مهتمة بما نرجو وما افادتنا بشيء.

(٤) أسرته:

تزوج نعوم من زوجته أولغا بنت عمه أسبر في تاريخ غير معروف. وقد أنجبت له بنتين وثلاثة من البنين. وقد جاء في سجل مواليدهم عن الكنيسة أنهم ولدوا جميعا ببلدة عاريا. أما البنتان فقد أبكر نعوم وزوجته بهما وهما فيوليت المولودة في ٢٥ سبتمبر ١٨٩٨ وايفون المولودة في ٤ يونيو ١٩٠٠. وأما الاولاد فأولهم ادوارد، وقد ولد في ٢٥ نوفمبر ١٩٠١ ودرس الطب في بيروت وعمل من بعد طبيبا. ثم شارل، وقد ولد في ١١ اكتوبر ١٩٠٣. ولم يكن هذا الابن متقدما في دراسته مثل أخويه الاول والثالث، وقد انتهى بأن التحق بائعا في شركة تجارية. أما الابن الثالث فهو روبرت المولود في ١٦

ديسمبر ١٩١٧. وقد درس القانون في القاهرة في مدرسة للحقوق تابعة لجامعة باريس. ولم يتوفر لكاتب هذه السطور معلومات عنهم من بعد الا نتف استقيناها من قريبهم وديع. وعلى ما ذكر فان ابناء نعوم استقروا في مصر. وقد مات الطبيب وماتت فيوليت وايفون، وانتقل روبرت الى لبنان وعمل مدرسا. أما شارل فلا يعرف خبره.

(٥) المؤلفات:

ألف نعوم جملة من المؤلفات، منها كتابه «مرآة الأيام في مصر والسودان والشام» وقد اشار إليه في كتابه «أمثال العوام في مصر والسودان والشام» وقال انه تحت الطبع. ونحن نحسب أنه لم يوفق في طبعه، ولو طبعه لأشار إليه كعادته في كتبه التالية. ويقول نعوم في مقدمة الامثال إن العمل في كتاب المرآة اخذ منه بضع سنوات وأنه كان يهدف منه الى «الإحاطة بكل ما تجب معرفته عن هذه البلدان الثلاثة - يقصد مصر والسودان والشام - في التاريخ والجغرافيا والاخلاق والعادات والخرافات واللغة والآداب ونحو ذلك مما هو شبيه بانسكلوبيدية عصرية» وهو اتجاه يأخذه في كل ما يؤلف. وكتابه تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، وهو أشهر مؤلفاته، ولعله أهمها. وقد طبع مرة واحدة في حياة المؤلف، وكان ذلك في القاهرة في ١٩٠٣، ثم اصدرت دار الثقافة البيروتية طبعة جديدة في ١٩٦٧ ثم طبعة مصورة عن هذه في ١٩٧٣م. ثم اصدرت دار الجيل البيروتية طبعة محققة في ١٩٨١، وقد عاون كاتب هذه السطور في اعداد هذه الطبعة. وكتابه الآخر في تاريخ سيناء وجغرافيتها، وقد طبع مرة واحدة في القاهرة، وكان ذلك في ١٩١٦. وله كتاب «أمثال العوام في مصر والسودان والشام» وتوجد منه نسخة بمكتبة التيجاني الماحي بمكتبة جامعة الخرطوم. وقد أشار إليه نعوم في تاريخ السودان[1] وذكره ريتشارد هلّ في قاموسه للشخصيات، وكان طبعه بمصر في

---

(١) التاريخ ص١٣٨.

١٨٩٤، ويكون بذلك أول ما طبع من كتبه. وقد جاء في عنوانه انه مأخوذ من كتاب مرآة الأيام. وهو يقدم له بمقدمة جيدة يتعرض في اولها الى موضع الأمثال من معارف الإنسان. ومن ذلك قوله: «الأمثال غرس الحكمة ونبت الخبرة ومقياس الادب، وهي تنبت في كل ارض وتظهر في كل عصر، ولا تكاد تجنح أمة الى العمران او تتألف لها لغة الا تنطق بالامثال». ثم يعرف بالأمثال ويبين انماطها، وفي ذلك يقول «ويكاد يكون للامثال صبغة خاصة وصبغة عامة تفرق بها فترى المثل الغالب مركبا من فقرتين الواحدة منها متممة للاخرى وكثيرا ما تتساويان في الوزن والفاصلة كقولهم اليوم خمر وغدا أمر أو تتساويان في الوزن والفاصلة. أو تتساويان في الفاصلة وتختلفان في الوزن...» ثم يتكلم في تاريخ الامثال وموقعها من ادب العرب وتاريخ التأليف فيها، ومن هنا يتبين لك أنه على علم بالامثال وخبرة بأمرها. وقد جعل الأمثال التي اوردها في ثلاثة ابواب: الباب الأول في أمثال الشام، وقد اورد فيه ١٤٣٥ مثلا، الباب الثاني في أمثال مصر، وقد بلغ ما اورد فيه ١٥٢٦، والباب الثالث في أمثال السودان، وقد بلغ ما اورد فيه ٥٣٣ مثلا. وقد بلغت جملة الامثال ٣٤٩٤ مثلا. وقد أفادنا في المقدمة انه جمع في الاصل اكثر من عشرة الاف مثل ثم انتقى منها هذا العدد. وعلى ذلك يتبين ان ما جاء في كتاب المرآة طرف مما جمعه اصلا وان ما ورد في كتاب الامثال منقول من كتاب المرآة، وان ما ورد في تاريخ السودان من الامثال مأخوذ من كتاب الأمثال هذا. أما ما جاء من الأمثال في كتاب سيناء فكان مما جمع فيما بعد.

ويشير نعوم في تاريخ السودان الى كتاب له بعنوان تاريخ الحبشة[1] ولكننا لم نقف عليه. وأخشى ان اقول ان تاريخ الحبشة لم يطبع. وفيما روى وديع ان له كتابا مخطوطا عن تاريخ اليمن، الا ان نعوما لا يشير إليه، وربما كان اعداده بعد تاريخ السودان وتاريخ سيناء، والا لأشار إليه في هذين الكتابين. ويذكر ريتشارد هلّ في تعريفه الذي أشرنا إليه ان له بعض كتيبات صغيرة،

(١) التاريخ ص١١٥٩، التاريخ (ط.م.) المقدمة ص٢.

ولكنه لم يفصلها بعناوينها. وكتب نعوم قدرا من الشعر، وكان فيه على النهج التقليدي. ويرد في تاريخه قطعة تعبر عن ولائه لمصر ولبنان. وعلى ما روى وديع فان صحيفة سودانية نشرت قصيدة له قبل اعوام. وإليك الابيات التالية من شعره نسوقها على عهدة وديع:

مـا همنـا ان غسـان نسبتنـا	لكنما افعـالنـا في النـاس تعلينـا
اذا صحبنـا فـالاخلاص صحبتنـا	وان جفـونـا في حـق تجـافينـا
لا يقرب الذل يوما مـن منـازلنـا	ولـو رأينـا المنـايـا في مـآقينـا
أقلامنـا بلسـان الحـق نـاطقـة	وسيف أجدادنا يـزهـو بـأيـدينـا
لا نقبل الذل ولكن إن أهاب بنـا	كنا السيـوف المواضي في اعـادينـا

وفيما يلي نعرف بتاريخ سيناء وتاريخ السودان.

تاريخ سيناء وجغرافيتها:

طرأت فكرة وضع كتاب في تاريخ سيناء وجغرافيتها في ذهن نعوم وهو في مهمته المتعلقة بحدود سيناء. وكان نعوم على خبرة ما بامور سيناء بحكم عمله في ادارة المخابرات المشرفة على أمور سيناء. وقد تعددت زياراته لها. ولما كانت مهمة الحدود في ١٩٠٦ كلف بجمع البيانات عن تاريخ عرب الحدود الشرقية وملكيتهم للأراضي والمياه وعلاقاتهم بمصر وسوريا، وذلك للمعاونة في تحديد الحدود بحكم معايشة أهل سيناء وعلاقتهم بالطرفين. وقد أغراه الى التأليف إحساسه بجهل الناس بسيناء وتاريخها واحوالها وشجعه على المضي قدما نجاح كتابه في تاريخ السودان وجغرافيته. وقد تسنى له رغم المصاعب التي أوفى شرحها في المقدمة ان يجمع قدرا عظيما من المعلومات والبيانات عن سيناء وسكانها وعوائدهم وأحوالهم. وقد عاد بعد ذلك الى القاهرة في اكتوبر ١٩٠٦ وشرع في الدراسة. وفي السنة التالية زار مدينة الطور ووقف على جملة من الوثائق والمخطوطات في دير سنت كاترين، وقد أشار فيها على الخصوص الى كتاب الام، وهو كتاب فيما يقول يتضمن اخبار

سيناء في القرون الاولى للهجرة[1].

وقد اشتهرت مقتنيات مكتبة سنت كاترين في السنوات الاخيرة بفضل البعثات العلمية المصرية التي قامت بفهرسة هذه المقتنيات والتعريف بها، ويكفي ان نشير منها الى بحوث الدكتور عبد اللطيف ابراهيم والتي تناولت جلة من هذه المقتنيات على منحى علم الوثائق. غير انك تعلم مما تقدم ان نعوما قد سبق هؤلاء العلماء في الوصول الى الدير والاستفادة بما تحفظ. ثم ان نعوما طلب ما كتب العرب عن سيناء فقرأ المقريزي والمسعودي واليعقوبي والهمذاني وأبو الفدا وغيرهم. ثم طلب ما كتب في عهده فقرأ كتب الرحالة والمؤلفات الأثرية والجغرافية والتاريخية[2].

وهكذا وقف نعوم عن طريق القراءة والاطلاع والوقوف على ما يرويه الرواة على قدر عظيم من المعلومات والبيانات عن سيناء وأهلها فضلا عن أنه اكتسب بحكم عمله في المخابرات وزياراته المتعددة لها خبرة شخصية واسعة بأمورها.

وفي ١٩٠٧ أكمل تأليف تاريخ سيناء وجغرافيتها، الا انه لسبب غير معروف قد ارجأ الطبع. ولما قامت الحرب العالمية الاولى تجددت أهمية سيناء نظرا لأهميتها الاستراتيجية بحكم وقوعها بين مصر الخاضعة لبريطانيا وسوريا التابعة لتركيا ونتيجة للخلاف حول حدودها الشرقية. وهكذا عاد نعوم شقير ينشغل بها. ومن وحي هذه العودة كتب «خلاصة تاريخ مصر والشام والعراق وجزيرة العرب وما كان بينها من العلائق التجارية والحربية وغيرها عن طريق سيناء من أول عهد التاريخ الى وقت التأليف»، ثم كتب بحثه الآخر في «وصف جزيرة العرب وتاريخ العرب قبل الاسلام وبعده في بلادهم وخارج بلادهم وحركة السنوسي في ليبيا اليوم وتاريخ السوريين في مصر» وغير ذلك

(١) راجع مقدمة تاريخ سيناء.

(٢) تاريخ سيناء ص٧.

مما اوحت به الحرب. وقد جمع البحثين معا واضافهما الى ما كتب عن تاريخ سيناء وجغرافيتها، وهكذا اكتمل الكتاب بأطرافه المختلفة في ٣١ ديسمبر ١٩١٥ ودفع الى المطبعة وتم طبعه في ٢٧ مارس ١٩١٦ وصدر ليوافق شغفا لدى القراء لمعرفة سيناء وما يجري فيها.

ويقع الكتاب بطرفيه في ٧٧٧ صفحة. وقد وضع له نعوم مقدمة في غاية الأهمية، اذ انه يورد فيها ظروف اتصاله بسيناء وبالخصوص ما كان من أمر مهمته الحدودية في ١٩٠٦ ثم ظروف التأليف وكيفية الوصول الى المعلومات التي جمعها من أهل سيناء والمصادر والمراجع التي رجع إليها. ثم يصف بقدر واف منهجه في التأليف وكيف يأخذ رواة الأخبار وما يروونه وكيف يقارن بين الروايات ويمحص فيها حتى يصل الى ما يرضيه. وهكذا يسهل نعوم مهمة البحث في ظروف التأليف وفي منهجه.

ثم يأتي طرفا الكتاب. والطرف الأول مختص بتاريخ سيناء وجغرافيتها، وهو يمضي في تأليفه على منوال تاريخ السودان، فيقسمه الى أجزاء، والجزء الى ابواب والباب الى فصول، والفصل الى بنود. وقد اورد فيه ثلاثا من الخرط و١٣٧ من الصور للقلاع والمناظر والآثار والرجال وما الى ذلك. وهو يذهب الى انه يعتبر الصور طرفا في التأليف. ولعل الخلاف الوحيد بين الكتابين من حيث اطرافهما انه لم يضع لكتاب سيناء فهرس الموضوعات والاعلام كما فعل في تاريخ السودان، وقد اعتذر لذلك بضيق وقته وندرة الورق تحت ظروف الحرب.

وقد سمى هذا الطرف: تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، وهو يطابق عنوان تاريخ السودان. ويتناول الجزء الأول منه جغرافية سيناء الطبيعية والادارية بينما يتناول الجزء الثاني ما يسميه بداوة سيناء، وهو يقصد بذلك الأمور المتصلة بالحضارة كالدين واللغة والمعارف والعادات والمهن. وهذان الجزءان معا يماثلان الجزء الأول من تاريخ السودان وجغرافيته. ففي البابين

الأول والثاني من هذا الكتاب يعالج نعوم الجغرافية الطبيعية والادارية، وهي موضوع الجزء الأول في كتاب سيناء. وفي البابين الثالث والرابع يتكلم عن الأديان واللغات والمعارف والعادات والمهن وهي نفس ما يتكلم عنها في الجزء الثاني من كتاب سيناء. وفي الجزء الثالث يورد تاريخ سيناء القديم والحديث. وها هنا اختلاف، لأنه في تاريخ السودان عالج تاريخه القديم في جزء وعالج تاريخه الحديث في جزء آخر. ولعل سبب هذا الاختلاف في تجزئة الكتابين هو ان ما اورده حول سيناء عن الجغرافية الطبيعية والادارية وعن النشاط البشري كان كثيرا ودسما بحيث استحق جزئين مقابل جزء واحد للموضوع نفسه في تاريخ السودان في حين أن ما اورده عن تاريخ السودان كان طويلا ومليئا بالوقائع بحيث أخذ جزئين مقابل جزء واحد عن تاريخ سيناء. وباختصار فان اكثر ما استهوى نعوما في السودان هو تاريخه الطويل الحافل في حين ان اكثر ما استهواه في سيناء هو جغرافيتها ومشارب أهلها.

أما الطرف الثاني من كتاب سيناء فقد اعتبره المؤلف خاتمة. وهو يتكون من موضوعات ثلاثة: أولها خلاصة تاريخ مصر والشام والعراق وجزيرة العرب بما يتصل بسيناء، وثانيها وصف جزيرة العرب وتاريخ العرب في جزيرتهم وخارجها مع التعرض الى بعض الحركات الحديثة كالحركة السنوسية، وثالثها أمر الجاليات الاجنبية في مصر، وقد اورد بالخصوص بيانات وافية عن الجاليات السورية.

وكما ترى فان الموضوعين الاول والثاني يدوران حول قضيتين: اولاهما وضع سيناء في التاريخ العربي وعلاقتها بمصر وبما وراءها من البلدان مما يجعل سيناء معبرا للتجارة والحضارة بين مصر والمشرق، وأخراهما وصف بلاد العرب وبيان تاريخهم. وكما ترى فان القضية الاولى من صلب موضوع الطرف الاول من الكتاب، أي تاريخ سيناء، وكان من الممكن اضافتها إلى ما يقابلها منه والغاء ما يشذ منها. اما القضية الثانية فتصلح لتكون بحثا مستقلا عن تاريخ العرب، ولو كنت مكان نعوم لوضعت هذا البحث مع التركيز

على العلائق المصرية العربية، وهو امر احسبه مستحقا للبحث الى الآن. اما وضع الجاليات وخبر السنوسية فلا أجد لها موضعا في بحث عن سيناء، ولا شك ان رغباته واهتماماته الخاصة دفعت به الى ان ينحرف جانبا وان يقحم امرها اقحاما. على ان الباحث في أمر السوريين في مصر وما كان لهم من يد في تقدمها لا بد ان يغفر له هذا الانحراف عن منهج التأليف بل وان يرحب به، اذ لولاه لما ادرك هذه البيانات القيمة عن السوريين في مصر وعن نشاطهم فيها.

تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته:

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة في آخر ديسمبر ١٩٠٣ وقد صار في أيدي القراء مع مطلع العام التالي. وكان القراء، والمصريون منهم على الأخص، متشوقين الى مثله بعد ان شغلتهم أخبار السودان وحوادثه لعدد من السنين طوال، وكان البعض يتوق الى معرفة أحوال السودان للرغبة في السياحة والتجارة والهجرة[1]. وهو أول كتاب شامل في تاريخ السودان يوضع باللغة العربية، وقد وجد اقبالا عظيما من القراء ووجد مؤلفه شهرة بعيدة. وهذا النجاح هو الذي شجعه على اعداد تاريخ سيناء وزين له ان يكون تأليفه على منوال تأليف تاريخ السودان. ولما كانت الاربعينات كان هذا السفر قد اصبح من الكتب النادرة، لا بالنسبة لأولئك الذين يطلبون تملكه واقتناءه، وإنما حتى لأولئك الذين يسعون لمجرد القراءة. وقد حرصت عليه المكتبات حرصا شديدا خوفا من أن يفقد. واذكر ان مكتبة جامعة الخرطوم كانت حريصة أشد الحرص على نسخها القليلة منه.

ثم أعادت دار الثقافة البيروتية طبعه كما بينا. وهنا نجد ان العنوان قد تعدل. فالعنوان الذي اصدر به المؤلف كتابه هو: تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته، وهو مطابق لموضوع الكتاب واجزائه، فتاريخ السودان

(١) التاريخ (ط.م.) المقدمة ص٢.

القديم يأخذ جزءا، وتاريخ السودان الحديث يأخذ جزءا، وجغرافية السودان تأخذ جزءا. ولكن العنوان يجعل الجغرافية في الآخر بينما هي موضوع الجزء الأول. وقد اضحى العنوان في الطبعة البيروتية جغرافية وتاريخ السودان، وكما ترى فان هذا يجعل الجغرافية قبل التاريخ مثلما هي في الكتاب نفسه. وقد الغي تفصيل التاريخ الى قديم وحديث وربما كان ذلك باعتبار ان لفظ التاريخ يشمل القديم والحديث، وهو اعتبار صائب من غير شك، غير ان تعديل العنوان كان خروجا عن مشيئة المؤلف، وقد لا يقبل بعض الناس مثل هذا التعديل.

ثم ان الطبعة الجديدة الغت ديباجة الكتاب، مع ان هذه الديباجة مهمة للغاية لمن يريد ان يعرف ظروف مولد الكتاب والمراجع التي رجع إليها المؤلف والمنهج الذي يتبعه في التأليف. كذلك الغت صفحة التصويبات، وقد ظننا أنها فعلت ذلك بعد أن صححت الأخطاء من أماكنها، ولكن بالرجوع إليها اتضح ان الأخطاء ما زالت كما هي.

ولعل من المناسب هنا ان نذكر ان بعض الأخطاء المطبعية التي وردت في طبعة بيروت هذه ترجع الى الطبعة القاهرية. وقد فات على المؤلف ان يستدركها. ولعله كان يحس بأنه لم يدرك كل الأخطاء. وهذا الذي دعاه الى ان يطلب من القراء تنبيهه الى الاخطاء ليصححها في الطبعة التالية والتي لم يقدر له ان يصدرها. وقد بلغ ما رصدناه من الاخطاء المطبعية في الطبعة الجديدة اكثر من ١٦٠ خطأ. ولعلنا لم نضبط كل خطأ. الا ان ذلك، وان كان يبدو كثيرا، ليس بالأمر الخطير بالقياس لما نعهد من الأخطاء في الكتب التي تصدر هذه الايام. كذلك اسقطت الطبعة عددا من الصور وفهرس الأبواب والفصول وخريطة السودان الشاملة، وفي ذلك عيب كبير. وبينما جرى ترقيم صفحات كل جزء بمعزل عن غيره في طبعة القاهرة فان الترقيم في طبعة بيروت جاء جملة واحدة.

اما طبعة دار الجيل فقد اتخذت طبعة دار الثقافة اساسا وبذلك تطابقت معها فيما اسقطت وغيرت. الا انها اسقطت الجزء الأول كلية باعتبار ان معلوماتها اصبحت عتيقة. وقد صححت اغلب الأخطاء المطبعية ونبه القارئ الى بعض المواضع باستدراكات وتعليقات. وقد قدم بمقدمة. ويبلغ الكتاب في طبعة القاهرة ١١٤٤ صفحة، وفي طبعة بيروت ١٣٩٥. وقد جاءت الاخيرة اكبر حجما، بالرغم مما اسقط من اطراف الكتاب، بسبب ضخامة حروف الطبع. وتأخذ الصور عدة صفحات. ويلاحظ هنا ان الصفحة التي خلف الصور تترك خالية عن الكتابة. كذلك تشغل عناوين الاجزاء والأبواب والفصول عدة صفحات. وهكذا فان حقيقة الكتاب أقل مما يوحيه عدد الصفحات.

وبما ان طبعة بيروت الأولى اسقطت بعض أطراف الكتاب فاننا نعتمد ابعاد الكتاب واجزاءه حسب صفحات الطبعة القاهرية. ثم نسوق صفحات طبعة بيروت في عام ١٩٧٢ للمقارنة. وفيما عدا هذا الموضع فاننا نعتمد صفحات الطبعة البيروتية باعتبار انها الطبعة المنتشرة الآن بين الناس. واذا شئنا لغرض معين ان نرجع الى الطبعة القاهرية فاننا ننبه القارئ الى ذلك.

يأخذ فهرس الأجزاء والأبواب والفصول ٨ صفحات، وتأخذ ديباجة الكتاب ٨ صفحات ايضا. وقد سقط ذلك في طبعة بيروت كما قلنا. ويبلغ الجزء الاول ٢٤٤ صفحة، والثاني ١٤٨ صفحة، والثالث ٦٨٨ صفحة، والملحق ١٥ صفحة. ويأخذ تصويب الاخطاء صفحتين، ثم يأخذ فهرس الاعلام والموضوعات ٣٢ صفحة. ويقابل ذلك في طبعة بيروت ٢٩٢ صفحة للجزء الأول و١٩٤ للجزء الثاني و٨٦١ للجزء الثالث و١٩ للملحق و٢٩ للفهرس الشامل. وجملة صفحاتها ١٣٩٥ صفحة.

وكما ترى فان الجزء الثاني، وهو يتعلق بالتاريخ القديم، هو أصغر الاجزاء في حين ان الجزء الثالث، وهو المكرس لعهدي التركية والمهدية، هو أكبرها،

بل يكاد يكون هذا الجزء ضعف الجزأين الأول والثاني مجتمعين. وفي هذا الجزء يبلغ ما خصص للعهد التركي ١٠٨ صفحات، وهو أقل مما خصص للتاريخ القديم بأسره بنحو اربعين صفحة فقط. ومما خصص للفترة المهدية يبلغ ٤٦٤ صفحة، وعلى ذلك يكون نعوم قد خصص ما دون النصف من كتابه بقليل لعهد المهدية.

ان موضوع الجزء الاول هو جغرافية السودان الطبيعية والبشرية والادارية. وهو يتكون من اربعة ابواب مقسمة الى ٢٢ فصلا. ويتناول الباب الاول حدود السودان السياسية والمعالم الجغرافية والطبيعية كالنيل وروافده والاراضي والمعادن والطقس وحالاته والأمراض والنباتات والحيوانات. ثم يتناول سكان السودان، وهؤلاء في اعتباره خمسة أجناس: السود مثل الدينكا والنوير والشلك، وشبه السود مثل الداجو والفور، ثم البجة و النوبة والعرب. وقد بين أصولهم ومواطنهم. ثم هناك الأجانب، وهو يعد فيهم الحضور، مع ان البعض يعد هؤلاء في الجعليين، واولاد الريف والمكادة والجبرية والتكارنة والحلب والمولدين. ثم يتناول مديريات السودان ومحافظاته والمأموريات مبينا حدودها وعواصمها، وذلك حسبما كان عند التأليف. ثم بين مدن السودان وآثارها، ويعقب ذلك تناوله لحضارة السودان، فيذكر اللغات والأديان والمعارف والحرف. وعند كلامه عن الاديان يعطي بيانات طيبة عن الاسلام وقواعده واركانه ومذاهبه وطوائفه ونظمه السياسية. وهذه خلفية مهمة لا يجيء من بعد عن المهدية. كذلك يورد بعض الفاظ وتعابير من اللهجة السودانية مع ما يقابلها في اللغة الفصحى كما يورد نماذج من الامثال والاحاجي والالغاز ونماذج من الشعر. وقد فعل مثل ذلك في تاريخ سيناء. وهذا نابع من اهتمامه باللغة والأمثال وحبه لمثل هذا اللون من الثقافة، وقد سبق القول بأنه افرد كتابا في الامثال. ثم تناول انظمة الحكم في السودان منذ أقدم العصور حتى تأليف الكتاب، الا ان الطرف الأكبر من تناوله كان منصبا على التقسيم الاداري عند اعداد الكتاب وبعض اخبار الحكام وخطبهم. ثم وصف اخلاق

اهل السودان وعاداتهم ومعتقداتهم وخرافاتهم وبين انماط مساكنهم واسلحتهم وملابسهم واثاثهم وطعامهم وآلاتهم الموسيقية والرقص والطب والمأتم وما الى ذلك من الأمور التي يهتم بها علماء الاجتماع. وقد تحامل بشكل واضح على غير العرب.

وكان اعتماد نعوم عند اعداد هذا الجزء على معرفته الواسعة ببلدان السودان وأهله وطبائعهم وعلى ما جمعه من الرواة وعلى البيانات التي وفرتها له أضابير المخابرات الحربية ثم على جغرافية ركلى وجغرافية محمد امين فكري وعلى كتب الرحالة من قبيل كايو وبيكر.

وقد اضحى بعض ما يذكره نعوم في هذا الجزء، بفضل تقدم الوعي من قبيل المعلومات العامة، وبعض ما يذكره اصبح باليا فلا يبالي به قارئ اليوم، مثل وصفه للبلدان والتقسيمات الادارية لعهده، وبعضه قد درس وفصل بوجه اوفى في مؤلفات مشهورة مثل الامثال والشعر والاسلام والاجناس واللغات والجغرافية - وأيننا يرجع الآن لمثل هذا الى مؤلف نعوم. لذلك لم يعد لهذا الجزء ما كان له من أهمية عند صدور الكتاب.

وفي الجزء الثاني تناول تاريخ السودان القديم في خمسة أبواب مقسمة الى ١٤ فصلا وبعض تمهيدات وملحق واحد. وهو يمتد من أقدم عصور التاريخ حتى سقوط سلطنة الفونج في ١٨٢١ وسلطنة الفور في ١٨٧٤ وحلول الإدارة التركية على الأثر، أي أن سلطات السودان الاسلامية تدخل عنده في باب التاريخ القديم. وبينما صار سودان النيل في العهد الحديث منذ ١٨٢١ بفتح اسماعيل ظلت دارفور في العهد القديم حتى سنة ١٨٧٤، ذلك لانه جعل دخول الادارة التركية فاصلا بين التاريخ القديم والحديث. ولعلنا نفضل ان نجعل تاريخ السودان من دخول النصرانية حتى دخول الحكم التركي عصرا وسيطا.

ويتناول الباب الاول تاريخ اثيوبيا القديمة قبل ان ينتظم لها ملك مستقل ثم

يتناول تاريخ مملكتي نبتا ومروى المستقلتين ثم تكلم عن آثار اثيوبيا ولغاتها ودياناتها وشرائعها وعاداتها واخلاق اهلها وتمدنهم وأنظمتهم الحكومية. وغني عن القول ان ما نقب بعد نعوم من آثار وما نشر من بحوث يجعل هذا الذي رواه اقل أهمية الآن مما كان في عهده.

ان هذا الباب يعتمد على الموسوعة البريطانية وعلى التوراة وعلى تواريخ هيرودوتس وديودورس الصقلي واسترابو ويوسيفوس وتاريخ مصر لصمويل شارب والعقد الثمين لأحمد كمال وفجر العمران لمسبرو ودليل مصر لمرى والتاريخ العام الذي وضعته لجنة من العلماء في ١٧٤٩ وكتاب السائح الالماني ريتشارد لبسيوس. وهكذا ترى انه عاد الى مؤلفات كثيرة ليستخلص منها تاريخ اثيوبيا وحضارتها في شكل مجمل ومتسق.

وفي الباب الثاني تناول النوبة في العصر المسيحي. وقد بدأ ذلك بتمهيد جغرافي. ثم تكلم عن تاريخ مملكة النوبة السفلى من دخول النصرانية حتى زوالها نتيجة لغلبة الاسلام والمسلمين، ثم تعرض لتاريخ مملكة النوبة العليا حتى سقوط عاصمتها سوبا. وفي الباب الثالث تعرض الى البجة في تمهيد وفصلين مبينا تاريخهم ومدنهم. وغالب تاريخ البجة يتعلق بعلائقهم بالمسلمين.

وكان اعتماده في هذين البابين على المصادر العربية. وقد ذكر منها المسعودي وبديع الزمان الهمذاني وابن الاثير وابا الفدا وابن خلدون والمقريزي وابن اياس. ولعله لم يتسن له ان ينظر في غير هذه. وقد جمع الدكتور مصطفى محمد مسعد ما وقف عليه من النصوص والوثائق العربية عن هذه الفترة ووضعه في كتابه «المكتبة السودانية العربية» فبلغ ما رجع إليه أربعين مؤلفا وبلغت صفحات الكتاب ٤٠٧ صفحات. ولك ان تقدر من هذا مقدار ما وقف عليه نعوم من المصادر العربية.

وفي الباب الرابع يأتي دور سلطنة الفونج والحلف بينهم وبين العبدلاب والظروف التي ادت الى قيام سلطنة الفونج ومشيخة العبدلاب. ثم يتناول من

بعد تاريخ السلطنة بترتيب السلاطين. وبعده يتناول تاريخ المشيخة على تـرتيـب المشائخ. ثم يذكر المشيخات الخاضعة للفونج مباشرة والمشيخات والممالك الخاضعة للعبدلاب ثم كشاف شمال السودان.

وقد اعتمد هنا على مخطوطي ابراهيم عبد الدافع والزبير ود ضوه. وأصل هذين المخطوطين ما وضعه احمد بن الحاج ابو علي المشهور كاتب الشونة عن سلطنة الفونج وأول العهد التركي. وقد نظر فيه ابراهيم عبد الدافع والزبير وادخل فيه كل منهما ما رأى من إضافة وتعديل. كذلك نظر فيه الأمين الضرير فعدل فيه بما رأى. وقد نشر هذا التاريخ مجتمعا بأصله وتعديلاته بتحقيق الدكتور مكي شبيكة ثم نشر في مصر بتحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل، ورحم الله الاثنين بقدر ما قدما من جهد في خدمة تاريخ السودان. ويبدو مما ذكر ان نعوما لم يكن على وعي بأصل الكتاب وتعديلاته، لأنه لا يذكر كاتب الشونة اصلا. وقد ظن ان ود ضوه اختصر تاريخ عبد الدافع واضاف اليه بعض الحواشي[1]، وهو بغير ما ذكرنا. وقد اعتمد كذلك على رحلات بركهارت وكايو ومؤلفات صمويل بيكر وشيون فيرث وجونكر واستنالي بيكر. ومع انه لا يذكر كتاب طبقات ود ضيف الله ضمن مراجعه فاننا نعتقد انه استعان به ولو بقدر محدود، اذ هو يعرف بالطبقات ومؤلفه. وعندما يتحدث عن ادريس ود الارباب[2] يخطر على البـال انه ينقل ما يروي عن الطبقات. ومن المظنون عندنا انه أغفل عن ذكر الطبقات ضمن مراجعه لانه لم يستفد منه في بناء تاريخه الا استفادة محدودة.

وفي الباب الخامس تكلم عن سلطنة الفور مبينا اصل الفور ومنشأ سلطنتهم ثم مفصلا تاريخ هذه السلطنة من سلطان الى من يليه حتى سقوطها على يد الزبير باشا رحمة في ١٨٧٤.

---

(١) التاريخ ص٣٩٠، ٤١٠.

(٢) التاريخ ص٤١٣.

ثم تكلم عن حكومة الفور وتنظيمها. وعلى ما يذكر المؤلف فانه اعتمد في الكلام عن سلطنة الفور على رحلة التونسي في نصها الفرنسي، وعلى كتاب السيف والنار في السودان لسلاطين وعلى بعض رواة يذكرهم، ومن هؤلاء علي بك الخبير، وهو من أهل الشأن بدارفور[1]. ومنهم محمد الطيب التنبكتي الملاوي[2]. الا ان لنا رأيا في هذا الذي يذهب إليه. وقد تعرضنا إليه في طرف تال من البحث. ويكفي هنا ان نقول ان اعتماده على محمد الطيب لم يكن بقدر ما ذكر وان كتاب سلاطين لم يفده بشيء لأنه لا يتعرض الى سلطنة الفور اطلاقا.

وبالكلام عن سلطنة الفور ينتهي الجزء الثاني.

أما الجزء الثالث فموضوعه تاريخ السودان الحديث، وهو يبدأ بحلول الحكم التركي، مع اختلاف في ذلك بين المناطق النيلية التي خضعت اولا وبين دارفور التي خضعت بعد اكثر من نصف قرن، ويمتد الى تاريخ صدور الكتاب في نهاية السنة الثالثة من هذا القرن. وقد قسم هذا الجزء الى خمسة ابواب تقع في ٤٤ فصلا وخاتمة.

يتعرض المؤلف في الباب الاول الى الحكم التركي. وقد كرس ثلاثة فصول للكلام عن حملتي اسماعيل والدفتردار على سنار وكردفان ومقتل اسماعيل في شندى والحملة الدموية التي قام بها الدفتردار انتقاما لمقتله، على ان ذلك لم يستغرق أكثر من ٢١ صفحة. وفي الفصل الرابع والذي يمتد لنحو ١١٦ صفحة تكلم عن عهود الولاة الأتراك بدءا بولاية عثمان بك في ١٨٢٥ وحتى نهاية ولاية رؤوف باشا في ١٨٨٢. وقد دخلت الحوادث الاخيرة في عهد هذا الوالي وعهود عبد القادر حلمي وعلاء الدين وغردون في تاريخ الثورة المهدية.

---

(١) التاريخ ص١٣٠/٤٦٦.

(٢) التاريخ (ط.م.) ص٧، التاريخ ٤٦٩، ٤٨٣، ٥٩٩

ومن الملاحظ انه لا يبين في ثبت المستندات ما اعتمد عليه من المصادر عند الكلام عن العهد التركي. ولكن من الواضح ان بعض المراجع التي اشار إليها قبلا تعطي بيانات عن هذا العهد، مثل مخطوطي ابراهيم عبد الدافع والزبير ود ضوه ورحلة كايو ومؤلفات بيكر وسلاطين. وليس في ثبت المستندات او في ثنايا الكتاب ما يبين أنه وقف على الوثائق الرسمية المتصلة بإدارة السودان. كذلك اخذ المؤلف من الرواة من امثال الزبير باشا رحمة وزعماء النهاضة، وهم قناصة العبيد في جبال النوبا وبني شنقول، ورواة اخبار ثورة الجهادية بكسلا.

وفي الباب الثاني يتعرض الى المرحلة الاولى من تاريخ المهدية، وهو يبدأ بأسباب اندلاع الثورة واسباب نجاحها. ثم يتناول خبر اسرة المهدي ثم سيرة المهدي حتى اعلان المهدية ثم يأخذ وقائع الثورة متنقلا من جهة الى اخرى حتى يأتي الى وفاة المهدي. وعند ذلك يتوقف عن السرد ليرجع الى المهدي واحواله فيبين ظروف وفاته وينقل بعض ما قيل في رثائه ثم يبين اوصافه واخلاقه وما كان له من النساء والأولاد، ثم يتعرض الى تعاليمه وينقل ما الفه بعض علماء الخرطوم في دحض مهديته. وقد سكت هنا عن الكلام فيما الف بعض علماء المهدية المتحزبين لها ردا على العلماء المعارضين واثباتا لقضية المهدية. ولعله لم يقف عليها او لعله وقف عليها ولكنه تحرج منها.

وبعد الباب الثاني والذي استغرق ٢٣ فصلا وملأ نحو ٣٤٠ صفحة يأتي الباب الثالث، وهو مختص بعهد الخليفة عبدالله من أول عهده في ١٨٨٥ وحتى بداية حملة الاسترجاع. وقد دخلت السنوات الاخيرة من حكمه في باب استرجاع السودان. واذا كانت خطة التأليف في عهد المهدي قد جرت على الانتقال من جبهة الى اخرى حسب مواقع القتال فان خطة العرض لعهد الخليفة عبدالله قد جرت على معالجة الوضع في العاصمة ثم الانتقال الى الاقاليم ثم العودة الى العاصمة مرة اخرى. ولعله هنا يتبع خطة التقرير الشهري الذي كانت المخابرات تصدره والذي كان يشترك هو في إعداده. ففي هذا التقرير

تأتي أخبار ام درمان اولا ثم تأتي اخبار الاقاليم اقليما اقليما.

وفي الباب الرابع تعرض الى حملات الاسترجاع، وهذا لفظ كريه ابتدعته المخابرات لترير الغزو. وقد امتد ذلك حتى مقتل الخليفة في نوفمبر ١٨٩٩م.

ولقد اعتمد في تاريخه للمهدية على ثلاثة انواع من المصادر والمراجع، فهو قد رجع الى جملة المؤلفات التي تكلمت عن المهدية مثل كتاب المهدية والسودان المصري لونجت، واسر عشر سنوات في معسكر المهدي لاهرولدر، والسيف والنار في السودان لسلاطين، وتاريخ الحملة النيلية للكولونيل كولفل وتاريخ الحملة السودانية لجبرائيل حداد وتاريخ مصر الحديث لجورجي زيدان، والاخير ممن شهدوا بعض مواقع السودان. ولسنا ندري ان كان قد وقف على كتاب «السودان بين يدي غردون وكتشنر» لابراهيم باشا فوزي، والذي صدر قبل تاريخ نعوم بوقت قليل. ثم انه وقف على كتاب «سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي» وكتاب «الطراز المنقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش» لاسماعيل عبد القادر الكردفاني. وقد اشار نعوم في تاريخه[1] وفي تقرير تحتفظ به مكتبة جامعة درهام الى الكتاب الاول بتقدير عظيم. كذلك وقف على دفتر وقائع عثمان دقنة بعد واقعة طوكر، وهو يقول انه استقى منه بعض المعلومات. وبحكم عمله في المخابرات وقف على ما جمعه هذا الجهاز من معلومات وبيانات واطلع على كل ما كتب من التقارير، ولما سقطت ام درمان اتيح له ان يقف على وثائق المهدية، وقد اتيح له من قبل أن يطلع على ما غنم بعد الوقائع الحربية[2]، الا أن لنا رأيا في مدى استفادته من الوثائق. ثم انه اخذ الكثير من رواة الأخبار، وكان بعض هؤلاء ممن حضروا الحوادث وبعضهم ممن سمع عنها ووعى. وكان بعضهم من امراء المهدية واعيان السودان وبعضهم من الضباط والعساكر والاعيان المصريين. وهو يذكر من هؤلاء: عبد القادر حلمي باشا، محمد نصحي باشا، خشم الموس باشا، محمد بك السيد

(١) التاريخ ص١٧، ١١٧٧ وراجع مقدمة سعادة المستهدي.

(٢) انظر اشارته الى ذلك بعد وصفه لوثائق حملة دنقلا.

الشايقي، عثمان بك لطيف، البكباشي أحمد افندي سليمان محمود المحلاوي، محمد شريف نور الدائم، المضوي عبد الرحمن، محمد خدام شيخ الحمر، اسماعيل الأزهري نجل احمد الأزهري. ثم قال بعد ان ذكر هؤلاء «ومئات غيرهم». على انك تلحظ معي ان هؤلاء جميعا من المعارضين للمهدية، وهكذا يضعف صوت المهدية عند نعوم حتى فيمن يعطي الرواية. على ان بعضا من رواته لا يظهرون في قائمة اسانيده، وقد رصدنا بعض هؤلاء من واقع إشارات نعوم في تاريخه، ومن هؤلاء: الضباط المصريون الذين اخذ عنهم اخبار واقعة الجمعة بالابيض[1]، وقد اخذ عنها ايضا من اسكندر بك ويوسف منصور. وهو يأخذ عن تسليم الفاشر من السيد جمعة[2]، ومن الأمير عثمان دقنة عن حوادثه ومن حسن افندي عن مقتل استيوارت[3]، ومن غبريل بقطر عن واقعة القلابات[4].

وقد كان غالب اعتماده على الرواة. ولذلك كان هذا الجانب من مصادره مهما. ثم انه اعتمد الى قدر بعيد على معرفته الدقيقة بالسودان والتي جاءت حصيلة عمل متواصل امتد لنحو عشرين عاما في مجال المخابرات.

وبعد ذلك يأتي الباب الخامس، وعنوانه: خاتمة في السودان المصري والانكليزي. ويبدو من هذا العنوان ان نعوما لم يكن مخططا أصلا للكتابة عن عهد ما بعد المهدية، كيف وقد بدأت فكرة الكتاب والمهدية ما زالت باقية. فلما فرغ من اعداد الكتاب استحسن ان يجعل في نهايته فصلا عن الادارة الجديدة. ومما يؤكد هذا ان بعض ما يتصل بترتيبات هذا العهد يجيء في الجزء الأول، ولو ان نعوما كان يقصد ان يكتب عن العهد الثنائي من اول الأمر لجعل ما جاء عنه في الجزء الأول في الباب الخامس ليكون كل ما

---

(١) التاريخ ص٦٩٣.
(٢) التاريخ ٧٣٢.
(٣) التاريخ ص٨١٣.
(٤) التاريخ ص١٠٨٢.

يخص العهد الثنائي معا في موضعه بنهاية الكتاب. وعلى ذلك فان الباب الخامس ليس طرفا أصيلا من تاريخ نعوم وانما هو خاتمة يكمل بها المؤلف صورة الحوادث والتطورات. وقد تعرض المؤلف في هذا الباب الى ولاية كتشنر ثم الى ولاية ونجت الى وقت الكتابة، وليس فيما يروى عن الولايتين ما يرجو قارئ اليوم لكلف انشغاله بالخطب والتعظيم لقادة العهد. ثم يأتي بعد ذلك الملحق الذي اعده عند الطبع ليستدرك به ما وقع من الحوادث بين تأليف الكتاب وطبعه. وقد اضاف هنا امرا جديدا قصد به ان يغري المسافرين الى السودان وهو بيان ما يحتاج إليه المسافر الى السودان من معدات ومعلومات.

ب: التقييم

(١) الخلفية السورية:

عندما بلغ نعوم مصر وجد الطريق ممهدا امامه بفضل الجالية السورية العريقة في مصر والتي كانت لها صلات قوية مع السلطات الحاكمة - الخديويين والانجليز معا. ولقد وفد السوريون من كل بلاد الشام: من سوريا ولبنان وفلسطين والاردن، اذا شئنا ان نضعهم حسب التقسيمات الحالية. وكما يعلم القارئ فان السوريين هاجروا الى بلاد كثيرة وخصوصا الامريكتين وافريقيا واستراليا بسبب ظروف بلادهم الاقتصادية والضغوط السياسية وبالأخص اثر أزمة صناعة الحرير والاضطهادات الدينية على عهد السلطان عبد الحميد.

وقد وفدت جماعات منهم الى مصر قبل محمد علي باشا، وبعضها بعده، ثم جاءت المجموعة الكبرى بعد الثورة العرابية وخضوع مصر لسلطات الاحتلال البريطاني. وقد وجدوا ترحيبا من الخديويين نظرا للحاجة إليهم في دواوين الدولة كما وجدوا الظروف ممهدة لنشاطهم الاقتصادي والفكري. وكان حظهم لدى سلطات الاحتلال ارحب مما كان عند الخديويين. وقد تمثلت

فيهم طوائف سوريا المتعددة من يهود ومسلمين ومسيحيين.

اما اليهود فقد ازدادت هجرتهم بعد مجيء محمد علي باشا واقبال مصر على التوسع العمراني، وقد كونوا هم واليهود القادمون من اوربا جالية قوية ذات وضع مالي ممتاز. وكان اغلب نشاطهم في الصيرفة والتجارة. وقد حد من اندماجهم في المجتمع المصري الفاصل الديني والانعزال التقليدي لليهود. والسوريون المسلمون كانوا من أكثر العناصر السورية قابلية للاندماج في المجتمع المصري بحكم الرابطة الدينية واتفاق المشاعر. وقد عملوا في التجارة والمهن العصرية كالطب والمحاماة.

والنصارى من السوريين، وقد تمثل فيهم طوائفهم المتعددة كالموارنة والارثوذكس والروم الكاثوليك، كانوا اكثر عددا من طائفتي اليهود والمسلمين وأكبر خطرا، وقد عملوا في كل المجالات وبالأخص في مجالات التجارة والمال ودنيا الفكر والمهن العصرية الممتازة كالطب والصيدلة والمحاماة والهندسة. وقد تميزوا عن اليهود والمسلمين بما لهم من رصيد حضاري، اذ كان مسيحيو سوريا أسبق من غيرهم في الاتصال باوربا والأخذ بأساليبها. وكان أغلب الوافدين منهم الى مصر من المثقفين في حين كان أغلب الوافدين من اليهود والمسلمين غير مثقفين ويعملون للكسب المادي. وقد احتل عدد كبير من المسيحيين مناصب في دواوين الدولة كمترجمين وكتبة واداريين. وكان الخديويون يفضلونهم على المصريين لمعرفتهم باللغات الاجنبية وكفاءتهم الادارية وولائهم الشديد، فبات المثقفون المصريون على غبن شديد فوق غبنهم القديم من جراء احتلال الاتراك والجراكسة ومن اليهم للمناصب العسكرية والادارية العليا. ولما جاء الانجليز ازدادوا تميزا نظرا لقربهم إليهم حضاريا ودينيا ونفسيا. ومع ذلك فان العائد المادي من وظائف الدولة كان ضعيفا، وقد نصح نعوم في جملة نصائحه لبني جلدته في تاريخ سيناء بألا يعملوا في سلك الوظائف الحكومية وان يكرسوا جهودهم حيث ينتظر العائد الوفير كالتجارة والصيرفة.

على ان الأثر الأكبر للمسيحيين كان في المجالات الفكرية بما لهم من اسهام رائد في الفن والصحافة والطباعة. وقد اعطوا - في بلادهم وفي مصر وسائر بلاد المهجر - عناية فائقة للغة العربية والتراث العربي والذي ربما كان العامل النفسي الذي يقيهم من طوفان الاسلام في سوريا ومن الضياع في مجتمعاتهم الجديدة. وما قام به اليسوعيون في مجال اللغة مشهور، واثر شعراء المهجر في الأدب العربي بعامة وفي الشعر والنقد بصفة خاصة معروف. كذلك ما كتبوا في التاريخ الاسلامي والتراث العربي. وكان اتجاه السوريين المسيحيين الفكري ينحو نحو العلمانية بهدف تحييد القوة الاجتماعية والسياسية للاسلام، تلك القوة التي تجعلهم اقلية صغيرة بين أغلبية هائلة من المسلمين. وكما هو معروف فانهم كانوا الأنشط بين الدعاة الى القومية العربية، وهي حركة سياسية تقوم على العروبة وقوتها بمعزل عن الاسلام. ولو انك نظرت فيما كتب نعوم في تاريخ العرب وفي تاريخ السودان فانك واجد هذا اللون من الاتجاه والذي لا يعطي كبير عناية للدافع الديني.

وقد اعتبر المسيحيون انفسهم امتدادا للثقافة الغربية وحملة لمشاعلها. وربما كان هذا هو العامل النفسي الذي جعلهم يشعرون بالتفوق على الأغلبية المسلمة والسلاح الذي يدخلون به بلاد المهجر.

ونتيجة لما تقدم نجد في مسير المسيحيين السوريين في مصر ثلاثة اتجاهات رئيسية: فهم في الاتجاه الفكري يأخذون بالنهج العلماني ويخدمون الفكر العربي والتراث العربي على اساسه، وفي السياسة يتبعون فكرة القومية العربية ويعملون من أجلها، وفي الوجهة الحضارية يتجهون نحو أوربا. وقد نشأت في كنف أقباط مصر وربما بإيحاءات الأثر المسيحي السوري، مدرسة سلامه موسى التي تنظر الى التراث العربي باعتباره تراثا إنسانيا، لا دينيا فحسب، وتنادي بالعلمانية والتحديث، وهي ايضا كما ترى تهدف الى تحييد القوة الاسلامية التي تجعل الاقباط في مصر اقلية بين أغلبية مسلمة. وقريب من هذا ما نراه عند البعثيين الذين يجعلون كل الاديان على قدم المساواة. ويضعون مقاصد السياسة

على وجه علماني. وقد جر الغلو في ذلك الاتجاه الى كارثة لبنان الحالية لان مسيحيي لبنان كرسوا وجهتهم نحو العلمانية المفرطة حيال الاسلام - لا حيال المسيحية - من جراء الخوف من طغيان المسلمين والاسلام على كيانهم في حين اتجه المسلمون الى العرب المسلمين خارج لبنان لخوفهم من تغول المسيحيين والذين هم اكثر تقدما وثراء.

واجتماعيا كان المسيحيون السوريون يشعرون بالتميز على المصريين ويترفعون عنهم، وقد عدهم المصريون في عداد الأجانب وأطلقوا عليهم لقب الخواجة الذي يلقب به الاوربيون مقابل المسيو والمستر، بل كانوا ناقمين عليهم لمنافستهم لهم في المناصب ومواقفهم الاجتماعية المترفعة. وقد مالوا الى الطبقة الحاكمة المصرية. ولما جاء الاحتلال مالأوا الانجليز واخلصوا لهم. وهذا كان مما زاد من نقمة المصريين عليهم. وقد أخذ الأمر وقتا طويلا حتى نمت الحركة الوطنية ووضعت المصري والسوري - مسلما كان او مسيحيا - في وصف واحد.

وقد عرف السودان الاجانب في عهد السلطنات بحكم التعامل التجاري، ولكن ذلك كان بدرجة محدودة. وكان أغلب هؤلاء من المصريين. وهذا بخلاف الوافدين من غرب افريقيا والذين يخرجون عن نطاق هذه الدراسة. وفي العهد التركي ازداد عدد الاجانب وتنوعت جنسياتهم وتوسعت مصالحهم. غير ان المهدية وضعت حدا لذلك. ومع الحكم الثنائي تجددت الفرصة وعاد الاجانب للعمل في التجارة وغيرها من الأنشطة. وكان أكثرهم من المصريين. بيد ان هؤلاء كانوا على صلة وثيقة بالسودانيين، والبعض منهم قد انصهر كليا في المجتمع السوداني بينما تأقلم البعض الباقي. وقد عاونوا بعض السودانيين بأموالهم وادخلوهم في عالم التجارة الرحب. وكان من الاجانب الوافدين اليهود والارمن والسوريون. وقد اعتبروا جميعا خواجات. وكانوا مترفعين عن السودانيين ولم يكن لهم اتصال اجتماعي بهم خلا ما كان بينهم وبين علية القوم. وكانوا على علاقة وثيقة بالانجليز وممالئين لهم. وقد أطمأن

اليهم الانجليز في الشمال. أما في الجنوب فكانوا يفضلون عليهم اليونانيين نظرا لتعقيدات السياسة الخاصة بالجنوب. وقد عمل بعض السوريين - وهم نقطة بحثنا - في التجارة مثل مرهج ومعلوف وكافوري وقرنفلي وشاشاتي بينما عمل البعض في دولاب الحكومة مثل نعوم شقير وقريبه سعيد شقير رئيس حسابات الحكومة وفريد عطية الناظر الاداري لمصلحة المعارف وادوارد وصمويل عطية في المخابرت وسليم عطية.

٢ - الولاءات:

ان الذي يهمنا مما تقدم عن علاقة السوريين بمصر والسودان وموقفهم منهما ومن شعبيهما هو موقع هذه العلاقة من نفس نعوم بحيث يؤثر في سلوكه الاجتماعي نحوهم وفي منهجه في التفكير واتجاهه في التأليف.

كان نعوم وهو السوري المسيحي المثقف واعيا بمصالح الجالية السورية ومواليا لها. وقد تبين ذلك في مواضع كثيرة من مؤلفاته. فهو في تاريخ السودان يذكر الموظفين السوريين الذين اشتركوا في الوقائع الحربية واولئك الذين رافقوا حملة كتشنر بأسمائهم مميزا اياهم عن غيرهم. وفي تاريخ سيناء يتكلم عن الجاليات الاجنبية في مصر ويخصص قدرا كبيرا من الصفحات للكلام عن الجالية السورية. وقد عدد أنشطتهم في كل المجالات وذكر الكثيرين من مشاهير السوريين ونوه بالاسهام العمراني الذي كانوا يسهمون به في بناء مصر. ثم انه يقدم إليهم النصح بما يجعل اقامتهم في مصر مريحة ومفيدة - لهم وللمصريين. وهو واع برغبة بعض السوريين للهجرة الى السودان والاستفادة من تجارته. وربما كان كلامه عن الأوضاع التجارية في السودان ومتطلبات الرحلة تمهيدا لطموح هؤلاء وان كان هناك آخرون غيرهم تهمهم مثل هذه المعلومات.

نعوم اذن كان واعيا بوضع بني جلدته في مصر، وقد تحمس لهم كثيرا. ولكن كيف كان مسلكه نحو مصر وشعبها؟ اننا لا نملك معلومات كافية عن

حياته الخاصة حتى نحكم منها على مدى اتصاله بالمصريين ومعايشته معهم وان كان يكرر في مقدمات كتبه انه مازج أهل مصر والسودان وعرفهم. وكل ما يذكره في مؤلفاته عن حياته يتصل بعمله وتأليفه وليس فيه ما يعكس علاقته الخاصة بمن يعيش معهم. وكانت مؤلفاته عن السودان والحبشة وسيناء وتاريخ العرب واللهجات، وهي كما ترى موضوعات متباعدة عن صميم تاريخ مصر والهموم المصرية الخاصة. وبالتالي فان ما كتب لا يوضح علاقته الحقيقية بالشعب المصري وموقعه من قضاياه. ولكن لماذا كان هذا التباعد؟ أليس لذلك دلالة؟ وعندما تخلى نعوم عن الجنسية العثمانية أثر زوال المظلة العثمانية عن سوريا لم يتجنس بالجنسية المصرية مثل بعض السوريين وانما عاد الى طائفته العرقية في سوريا. ثم انه يذكر صراحة انه متنازع الهوى بين سوريا ومصر لأنه يحن الى وطنه الأول سوريا ويحب الخير لوطنه الثاني مصر، وفرق كبير بين الحنين الى وطن أصيل وحب الخير لوطن ثان. وقد انقسم قلبه بحبها الى شطرين حتى «ود الخلاص من هذه القسمة». وفيما كتب عن السودان لا يبدي حماسا لوجهة النظر المصرية ولا يؤيد قضيتها في السودان. وقد مضى يكتب عن العهد التركي وكأنه يكتب تقريرا يبين فيه وجهات النظر ويعطي كل ما يعرف من معلومات ويصور كل ما يراه أمامه. هل كان ذلك حياد المؤرخ فيما يؤرخ أم كان ذلك موقفا؟ ان كنت تميل الى أنه الحياد فعلينا ان نسأل: ما باله اذن يتخذ موقفا ضد المهدية؟

ان نعوما قد احب مصر وعرف لها فضلها فهي قد آوته وآوت الكثيرين من ابناء جلدته وأفاضت عليهم بالخير. ليس من شك في ذلك ولا في اخلاصه فيه. ولكنه كان يعيش بعيدا عن وجدان الشعب المصري واحساسه ومتباعدا عن همومه وقضاياه. لماذا؟ اولا لولائه لجاليته واتساقه مع مواقفها واتجاهاتها، وثانيا لولائه للانجليز وارتباطه بهم وثالثا لأنه لم ينزل لمصر الشعبية ولا تنفس بهوائها.

ثم كيف كانت نظرته الى السودان؟ لم يقم نعوم في السودان الا لأوقات

قصيرة، وهو لذلك لم يعرف السودانيين عن كثب ولا خبرهم بشكل مباشر وانما عرفهم بوحي ما قرأ وما سمع والقليل الذي رأى، وقد كانت نظرته عموما نظرة متعالية، نظرة متحضر في قوم غير متحضرين، وهي نظرة ورثها عن جاليته وعن المصريين، بل ومن المخابرات التي ظلت تعكس أحوال السودان بلون مغرض. وقد تسامح قليلا مع المجتمع الشمالي العربي بحكم رابطة اللغة والوشيجة العربية والتراث العربي ولكنه كان فظا مع غير العرب. انه يقول عن السود: «واما قواهم العقلية فقاصرة جدا وترقيهم محدود وهيئتهم تؤذن بالهمجية»[1]، «وأسوأ ما في اخلاقهم العناد وجفاء الطبع وقلة التدبير والحزم»[2]. وفي رقص الشلك يقول: «كانوا يقفزون كالقرود ويصيحون كالذئاب ويغنون أغاني لا تلحين فيها ويصوتون بالقرون اصواتا مزعجة تصم لها الآذان. وبالاجمال لم يكن في رقصهم شيء من الطرب بل دل على تمام الهمجية ومنتهى الخشونة»[3]. ليس فينا الآن من ينظر الى رقص الزنج وفنهم كان على ان مثل هذه النظرة السخيفة الى .

كل وافد ولم يكن في موقف نعوم شذوذ، غير ان جرمه انه ذهب هذا المذهب وهو يزعم انه يعرفنا بالبيئات السودانية ويصف تصرفاتها الاجتماعية. ألم يكن حريا به ان يتفهم منطق المجتمعات المختلفة من مجتمعه؟ كذلك حمل نعوم على النوبيين، والذين يسميهم برابرة[4] جريا مع اللسان المصري العام، وألحق بهم اسوأ الصفات. ولعله يجاري في ذلك نظرة المصريين والتي جلبها على النوبيين تمسكهم بلغتهم غير المفهومة لدى المصريين وتمسكهم بعاداتهم وشخصيتهم المتيمزة. ولو اختبر نعوم بنفسه او انصف في نظره لذكر ان هؤلاء كانوا يؤتمنون اكثر من غيرهم على الارواح والأموال وانهم ظلوا رغم

---

(١) التاريخ ص٢٢٣.

(٢) التاريخ ص٢٢٤.

(٣) التاريخ ص٢٢٨.

(٤) التاريخ ص٢٣٧.

كل الظروف على ولاء مقيم لشخصيتهم المتميزة ولوطنهم الام في ارض النخيل.

ثم ماذا؟ اعطى نعوم ولاءه للخديوي وللحكومة المصرية واحترم نظمها وسياستها. وقد نصح السوريين باحترام قوانين البلد وطاعة السلطان. ولكنه لم يخص احدا من الخديويين بذكر مودة او بما يذهب الى علاقة وجدان. الحب لمصر الوطن الثاني، والحب لخديوي صاحب السلطة. هما حبا مصلحة. اما الولاء الأقوى فللانجليز، وهو ولاء مقيم، لأنه قائم على المصلحة الذاتية ومصلحة الجالية وعلاقتها وعلى ما تخلقه علاقات العمل الناجحة. وهنا نلاحظ ان كتشنر لم يظفر بالتفاتة خاصة الا ما جاء بعد وصف سقوط ام درمان وهي التفاتة بغير ود. وبعض الجنرالات الانجليز من امثال ود هاوس ورندل وجاكسون وهنتر وكليخن يظفرون بإعجابه وتقريظه. وقد خص الأخير بتوقير. وكرومر رجل عظيم وحكيم.

اما ونجت فشخص أثير عنده وهو لا يكف عن ترديد مآثره وافضاله. وقد خصه بتقدير خاص واهدى إليه مؤلفيه وذكره بالإجلال والاعجاب كلما جاءت مناسبة يقول عند الكلام عن حملة ونجت على الخليفة: «فقادها بما اشتهر به من البسالة والدربة والاقتدار وفاز بالغرض المطلوب فقتل الخليفة عبدالله»[1]. وهو يهدي إليه كتابه في تاريخ السودان «إعجابا بمآثره الحسان في استرجاع السودان وقد كللت بنصرته على الخليفة عبدالله تلك النصرة الباهرة التي ضربت الضربة الاخيرة القاضية على المهدية ورجالها واعدت البلاد الراتعة الآن في حكمه السعيد لمستقبل سام مجيد واشعارا بجميل عنايته التي شمل بها مؤلف هذا الكتاب»[2]. وفي موضع هو رجل ذو همة وحاكم عادل وكريم. ثم هو يذكر في وضع آخر: «وكان لهذا النابغة المآثر الحسان في استرجاع السودان وله فيه الآراء السديدة والتآليف العديدة وقد شملني بعنايته

(١) التاريخ ص١٣٠٦.

(٢) التاريخ (صفحة الإهداء).

الشريفة»[1]. وفي معركة طوكر كان «الفضل كل الفضل في هذا السبق للحازم الباسل القائمقام ونجت كما ذكرنا»[2]. وقد أهدى إليه تاريخ سيناء «اشعارا بجميل عنايته التي شمله بها ولأنه المشرف على سيناء بصفته السردار ولأنه اشتهر بحب العرب، ولغة العرب وبلاد العرب وكان المروج الاكبر للاصلاح في سيناء والسودان»[3]. وهنا نذكر ان ونجت كان قائما ايامها بنشاط لإثارة العرب ضد تركيا وكان المشرف البريطاني على العون الذي يقدم للغرب، وكان نعوم عضداً له في ذلك. وهذا هو الذي يظهره عنده بمظهر محب العرب ولغة العرب وبلاد العرب.

٣ ـ تأليف تاريخ السودان

أشار نعوم في آخر تاريخ السودان الى ظروف تأليفه لهذا السفر، وقد فعل نفس الشيء في تاريخ سيناء وكتاب الامثال. تلك اذن كانت عادته، وهي عادة جارى فيها عادة قديمة عند كتاب العرب، اذ كان شرح ظروف التأليف ودواعيه من أهم ما تتضمنه خطبة الكتاب العربي.

وقد تقدم الكلام عن ظروف تأليف تاريخ سيناء، ونرجو فيما يلي ان ننظر في ظروف تأليف تاريخ السودان بقدر من التأني لما لهذه الظروف من أهمية خاصة كان لها تأثيرها في بناء الكتاب.

يقول نعوم: «وكان الفراغ من تأليف هذا الكتاب في يوم ٢٧ اكتوبر سنة ١٩٠٣ بعد اختبار نحو عشرين سنة في السودان واهله وقضاء جل ساعات الفراغ الثمينة منذ سبع سنين متوالية في جمع مواده وتمحيص حقائقه وسنة ونصف سنة في تبييضه وطبعه»[4]. واذ ان هذه السنوات تحسب من تاريخ

---

(١) التاريخ (ط.م.) المقدمة ص٤.
(٢) التاريخ ص١١٥١.
(٣) تاريخ سيناء، صفحة الاهداء.
(٤) التاريخ، ص١٣٤٦.

الفراغ من التأليف فإنه يكون قد بدأ التأليف في ابريل ١٩٠١، وبدأ جمع المادة في ١٨٩٦، ومما يؤكد هذا إشارته في المقدمة الى انه بيت النية على اصدار تاريخه قبل حملة دنقلا في ١٨٩٦. اما بدء علاقته بالسودان فقد كان عند بدء خدمته بمصر في ١٨٨٤.

ترى لماذا وضع نعوم هذا التاريخ؟ لقد اجاب نعوم طوعا على هذا السؤال فقال: «شوقني الاشتراك في الوقائع الى معرفة تاريخ السودان وجغرافيته فتصفحت كتب التاريخ والسياحات التي تبحث في السودان صريحا او عرضا من قديمه وحديثه افرنجية وعربية مطبوعة وغير مطبوعة ومازجت الاهلين على اختلاف طبقاتهم واجناسهم في مصر والسودان فاختبرت عاداتهم واخلاقهم واخذت عن ثقافتهم ما علموه من تاريخ بلادهم مما خبروه بأنفسهم او حفظوه عن آبائهم حتى انه لم يكد يبقى اثر عن السودان في ذاكرة أهله وفي الكتب الا اطلعت عليه واثبته في محفوظاتي الخاصة. فاجتمع عندي مطول ضخم جامع لكل ما ترام معرفته عن احوال السودان مما لا يوجد في كتاب واحد من الكتب العربية او الافرنجية، بل ليس منه في العربية الا رسائل متفرقة او نبذ خاصة من مباحث التاريخ او الجغرافية... لأدباء السودان ولع شديد في حفظ آثارهم والوقوف على تاريخ بلادهم ولم يتسن لأحد منهم ادراك هذه الأمنية. وكان الكثيرون من اهل مصر وغيرهم مهتمين للوقوف على حقيقة حال السودان»[١].

لقد دفعه اذن اشتراكه في الوقائع الى جمع البيانات عن السودان ليعرف عن هذا الشعب وتاريخه واجناسه وحضارته. وهو رأي وجيه من غير شك. ولكن لولا احساسه الشخصي بأهمية هذه الحوادث ووعيه بالتاريخ لما انصرف الى الجمع والدراسة. والا فما بالك بغيره ممن شارك ولم يكلف نفسه هم البحث والكتابة! ذلك فضل من غير شك لنعوم وفيه ما يدل على خلفيته الثقافية واهتمامه بالتاريخ، وهو امر قد نما مع الايام حتى الف في تاريخ سيناء

(١) التاريخ (ط.م.) المقدمة ص١.

وتاريخ الحبشة وفي الامثال الخ. ثم انه جمع حتى صارت له محفوظات خاصة في قول او اجتمع عنده مطول جامع ضخم في قول آخر. وقد اختصر عن هذا المطول تاريخه، او هو قد اعده من محفوظاته، ليسد به نقصا، لأنه لم يجد كتابا كرس لهذا الغرض، وليحقق امنية ادباء السودان في ان يكون لهم كتاب مختص بتاريخهم وليشبع رغبة الكثيرين من أهل مصر وغيرهم للوقوف على حقيقة حال السودان. هذا ما يقوله نعوم، ونحن لا ننكر عليه هذا القول. ولكن ألم يكن النجاح الذي ظفرت به كتب ونجت وسلاطين واهرولدر دافعا له بحيث يرجو لنفسه مثل هذا النجاح؟ ذلك امر لا نشك فيه. ثم ألم يكن واقعا تحت اغراء المعلومات التي تجمعت لديه؟ ولماذا كان جمع المعلومات والوصول الى مطول او محفوظات ان لم يكن راغبا في الكتابة يوما ما؟

أغلب ظننا ان في نفس نعوم شغفا بالحقائق، وقد نما هذا الشغف بحكم التعامل المستمر مع المعلومات في ادارة المخابرات، ثم اغرته المعلومات الى الكتابة وهو نفس ما ادى الى الكتابة في تاريخ الحبشة وتاريخ سيناء والامثال. فحيث تيسرت المعلومات تكون رغبته في الكتابة. ثم شجعه النجاح الذي صادفته المؤلفات التي ذكرناها.

واذا كانت النية على اصدار الكتاب ترجع الى ١٨٩٦ فيحق لنا ان نفترض ان الطرف الذي كتبه عن حملة الفتح وعن الحكم الثنائي لم يكن في خاطره عندئذٍ لأنها وقعت بعد ان بيت النية على التأليف.

ثم ان الفترة التي جمع عنها المعلومات هي الفترة التي شغلته حوادثها وهي الفترة المهدية. أي ان أساس هذا التاريخ الضخم الممتد من اول عصور التاريخ الى وقت الفراغ من طبعه هو التاريخ لحوادث المهدية. وكان من الممكن ان يقتصر تاريخه على هذه الفترة لولا انه رأى ان احدا لم يضع كتابا تضمن تاريخ السودان قديمه وحديثه وان ادباء السودان كانوا متشوقين الى مثل هذا السفر. وهذا ادى الى ان تتسع دائرة الرغبة الى التاريخ القديم. واما ما جاء

بعد المهدية فقد جاء تكملة.

لقد فرغ نعوم من التأليف في ٢٧ اكتوبر ١٩٠٣، وفي نهاية ديسمبر ١٩٠٣ تم الطبع، او هكذا كان تقدير نعوم عندما وضع هذه المعلومة في نهاية الكتاب. ثم اتى بعد ذلك بالملحق الذي يتضمن ما استجد من حوادث ومعلومات في الفترة الواقعة بين الفراغ من التأليف وبين اكتمال الطبع. وقد اخذ طبع هذا الكتاب الضخم شهرين فقط. ولا بد ان نعوما ومعاصريه كانوا محظوظين بالقياس الى ما يأخذه طبع الكتب هذه الايام، وذلك بالرغم من التقدم الهائل في تنقية الطباعة.

ولقد تم اعداد الكتاب وطبعه في وقت نحسب ان له تأثيرا بالغا في المنحى الذي سار عليه وجعله، بالإضافة الى امور اخرى، يختلف عما كتب ونجت وسلاطين وأهرولدر. فقد كان اتجاه هؤلاء هو تأليب الرأي العام في بريطانيا ومصر ضد المهدية ليساعد على اعداد الحملةعليها. ولما شرع نعوم في التأليف في اواسط ١٩٠١ كانت المهدية قد انتهت ولم يكن بالتالي ما يدعو الى مثل هذه الدعوة. وطالما ان الرواية قد انتهت وخلا المسرح من ابطاله فان المشاهد ينتقل من المشاهدة والتجاوب من التمثيل والممثلين الى تقييم الادوار. وهذا الذي فعل نعوم، إذ هو لا يدعو الى غزو ولا يصارع خصما، بل هو مغتبط لأن الخصم قد هزم نهائيا على يد صديقه ونجت. ومهمته هي ان يسجل ما وقع على المسرح بعد ان اسدل الستار. وكان المسئولون في السودان قد تخلصوا من شبح المهدي وخليفته وكابوس المهدية بعد ان دحر الخليفة واستتب الأمر لهم وبات نظرهم الى المهدية على اعتبار ما كان سابقا وليس باعتبار ما هو كائن او ما سيكون. ثم جاءت ثورة ود حبوبة في ١٩٠٨ وقلبت الأمور رأسا على عقب، اذ بينت ان تحت الرماد وميضا من النار وان المهدية التي ظنوا انها انتهت بهزيمة كرري وام ديبكرات باقية في النفوس وانها سوف تشتعل مرة اخرى اذا وجدت متنفسا. لذلك تجددت الحملة من جديد على المهدية، وتعاليمها وعاد المسئولون الى التشدد بعد حادث ود حبوبة وخلا

بذلك من تأثيرات الحملة التي اعقبتها. وهكذا نجا نعوم من مغبة روح الاستعداء عندما كانت المهدية قائمة، كما نجا من مغبة سياسة الضغط التي اعقبت حادث ود حبوبة، وجاء تاريخه بعيدا عن الضغوط المباشرة للأحوال السياسية القائمة.

ثم ما شأن هذا المطول؟ انه يقول في الفقرة التي نقلناها انه اثبت ما جمعه في محفوظاته الخاصة ثم يقول انه اجتمع عنده مطول ضخم جامع كل ما ترام معرفته عن احوال السودان. ثم هو يقول في مكان آخر انه اعتمد في معظم ما كتب في التاريخ الحديث والجغرافيا على محفوظاته الخاصة. وفي مكان آخر يقول: «لذلك كله رأيت ان الخص مما جمعته كتابا وافيا في تاريخ السودان». ان ما يوحيه هذا هو وجود محفوظات تجمعت لديه ثم وجود مؤلف مطول اختصر منه تاريخه. غير اننا لا نكاد نصدق انه اعد بالفعل كتابا مطولا في تاريخ السودان وجغرافيته، ولكن الأقرب في نظرنا هو انه جمع مادة كثيرة من الكتب واضابير المخابرات والروايات والوثائق والمشاهدات الخاصة. وقد احتفظ بها كلها في شكل محفوظات ثم استعان بها عند التأليف. اي اننا نستبعد وجود مطول في شكل كتاب.

٤ ـ المصدر:

عند كلامنا عن اجزاء تاريخ السودان واطرفه تكلمنا عن المصادر والمراجع التي رجع إليها نعوم، وكان غرضنا من ذلك بيان مصدر معلوماته والمدى الذي بلغه اجتهاده فيما جمع. اما هنا فاننا ننظر في كيفية استعمال المراجع والمصادر وكيف ينتهي منها نعوم الى العرض الذي نراه. وهاهنا المحك لكونه مؤرخا يؤرخ او غير مؤرخ، اذ نحن نتساءل: هل هو مدرك للتاريخ الذي يعرضه ومستوعب له ام هو مجرد جامع يجمع المعلومات كيفما جاءت ويعرض الأمر كيفما يتصور من خلال القراءة وحسب من غير ادراك ذاتي وتصور خاص؟

وهنا لا بد ان نعتذر للقارئ عن اغفالنا لهذا النظر فيما فعل نعوم في تاريخ سيناء، وعذرنا في ذلك اننا لا نعرف عن أحوال سيناء وتاريخها ومصادر هذا التاريخ اكثر مما يعرفه أي قارئ عادي، وبذلك لا يستند ما قد يصدر عنا من أحكام على معرفة وادراك. لنبعد اذن تاريخ سيناء عن نظرنا ولنكرس جهدنا على تاريخ السودان.

لقد اعتمد نعوم بالنسبة لتاريخ السودان القديم على المراجع التي اتيحت له من عربية وانجليزية، اما ما كان بغير هاتين اللغتين فانا لا ندري، اذ ان الأمر في ذلك محدود باللغات التي يعرفها. ولسنا نظن على اي حال انه قصر في السعي في مجال المراجع. اما عن كيفية معالجته للموضوع فقد بين انه «اقتطفه نبذة نبذة او جملة جملة من كتب المؤرخين القدماء والمحدثين الذين اعتمدوا فيما كتبوا على الآثار القديمة»[1] ولقد قام بعرض تاريخ اثيوبيا وما قبلها عرضا طيبا، الا انه العرض الذي لم تسبقه المعرفة، فقد جمع المعلومات ونسقها ثم روى.

وفيما يختص بالتاريخ الاوسط، ونعني بذلك تاريخ مملكتي النوبة والنصرانية واخبار البجة وما كان من أمر مقدم العرب والاسلام، فان نعوما قد عاد بشأنه الى المؤلفات العربية، وهي مصدر هذا التاريخ الى هذا اليوم. ولقد جمع والف عرضا موحدا على النحو الذي فعل إزاء التاريخ القديم.

وبالنسبة لتاريخ دارفور في عهد السلطنة فان نعوما يزعم في موضع[2] انه اخذه برمته عن بعض الثقات، وهو هنا يقصد محمد الطيب محمدين، وهو سليل بيت ديني، وقد هاجر الى مصر بعد فتح دارفور واستقر بها الى ان مات. وقد التقى به نعوم كثيرا واخذ عنه. وفي موضع آخر يقول عنه «وقد حفظ في ذاكرته تاريخ دارفور برمته فأخذت عنه معظم ما رويته هنا عن

(١) التاريخ (ط.م.) المقدمة ص٣.

(٢) التاريخ (ط.م.) المقدمة ص٣، ٧.

تاريخ سلاطين»[1]. «وهنا اختلف القول لأنه لا يأخذ عنه كل ما كتب وانما معظمه بينما هو في القول الاول يأخذ كله. ثم يقارن نعوم بين ما روى محمد الطيب وبين كتاب سلاطين فيقول ان ما سوقه محمد الطيب «أقرب للرواية منه للتاريخ ولكنه افضل ما روي عن سلطنة الفور حتى اليوم ما عدا الذي رواه سلاطين باشا في كتابه «السيف والنار في السودان». غير ان المفاضلة بين محمد الطيب وبين كتاب سلاطين فيما يتصل بتاريخ السلطنة مفاضلة غير مستقيمة لأن سلاطين لم يكتب تاريخا وانما روى سيرته في السودان مع بعض مشاهدات عامة ولأنه لم يذكر شيئا عن تاريخ دارفور القديم. الأمر هنا اطراء محض لسلاطين ممن يعمل تحته. وانما تكون المفاضلة بين رواية محمد الطيب وبين ما يرويه برون وغيره من الرحالة الذين رووا عن سلطنة الفور.

لقد زار محمد عمر التونسي دارفور في عهد السلطان محمد الفضل وعاد الى تونس في سنة ١٨١٣. وفي ١٨٥٠ صدر النص الفرنسي لكتاب تشحيذ الاذهان الذي اعده المسيو برون استنادا على ما استقاه من التونسي وما جمعه من رجال القوافل الذين كانوا يفدون من دارفور الى القاهرة. وقد نشر فيما بعد النص العربي لهذا الكتاب منسوبا الى التونسي بعنوان تشحيذ الاذهان في سيرة بلاد العرب والسودان. وايا كان خبر هذا الكتاب فانه مصدر اساسي لتاريخ دارفور في عهد السلطنة ونظمها الاجتماعية والسياسية. ولا يمكن للمرء ان يقبل القول بأن رواية الطيب او غيره تفضل على هذا الكتاب.

ولقد جاء وليام براون إلى دارفور في عهد السلطان عبد الرحمن الرشيد وامتدت رحلته من ١٧٩٣ الى ١٧٩٦. وفي ١٨٠٠ صدرت رحلته متضمنة معلومات مستفيضة عن دارفور. اما غوستاف ناختقال فقد بدأ رحلته الى بورنو في ١٨٦٩ ومنها واصل الرحلة الى دارفور ثم الى المشرق حتى بلغ الخرطوم في ١٨٧٤. وقد نشرت رحلته بالالمانية في ١٨٨٩ الا انها لم تترجم

(١) التاريخ ص٤٦٩.

الى الانجليزية الا قبل سنوات. وهي تتضمن معلومات ثرة عن دارفور واخبارها. وقياسا لما في هذه المصادر فان ما ترويه الرحلتان عن القبائل خير مما روى التشحيذ عنها في حين ان ما يرويه التشحيذ عن السلطنة خير مما تروي الرحلتان. ولعلنا نفضل ناختقال على براون. وحيث صدرت رحلة ناختقال في ١٨٨٩ بينما صدر تشحيذ براون في ١٨٥٠ فلا خلاف في ان براون لم ير هذه الرحلة. ولكن هل وقف برون على رحلة براون التي صدرت في ١٨٠٠ لسنا ندري! اما نعوم فانه يثبت في قائمة مصادره تشحيذ برون بينما لا يذكر رحلتي براون وناختقال، ونحن نفترض من هذا انه لم ير رحلتي براون وناختقال. وهكذا يبقى للنظر ما أخذ عن محمد الطيب وبرون. ان كتاب برون كان الاساس فيما رواه نعوم عن تاريخ السلطنة الى عهد السلطان محمد الفضل وعن نظم الفور الاجتماعية والسياسية. ولسنا ندري سببا لاغفاله لهذه الحقيقة. هل هو مجرد الغفلة عندما تكلم عن مراجعه ام هو تفضيل الرواية الشفوية ام هو الوقوع تحت طائلة العلاقات الشخصية؟ على اي حال فان مصدره الرئيسي هو كتاب برون. ثم اضاف اليه ما أخذه عن محمد الطيب. وهنا يذكر نعوم ان الاختلاف بين برون ومحمد الطيب كان طفيفا بحيث لم يتعد سلسلة السلاطين الاوائل وتفاصيل بعض اخبار السلاطين. واذا كان الاختلاف بينهما طفيفا فيم اذن كان التفضيل الى هذه الدرجة؟ وكان اعتماده على برون كاملا فيما روى عن حكومة الفور. لماذا يخصص نعوم كلاما عن حكومة دارفور مع انه لا يفعل ذلك إزاء حكومة الفونج؟ السبب واضح، وهو انه وجد في كتاب برون كلاما عن حكومة الفور فاورد عنه ما اورد. اما عن الفونج فان احدا ممن نقل عنهم لم يصف حكومتهم، ولذلك كان سكوته عن ذلك. ولو وجد من يتكلم لتكلم هو ايضا عنها. وفيما بعد محمد الفضل كان اعتماده على محمد الطيب وعلى الخبير وغيرهما من الرواة. وقد اعتمد على الزبير باشا فيما روى عن وقائعه، وهو يورد سيرته كاملة حسبما روى. وقد اتبع نعوم عند الكلام عن تاريخ سلطنة دارفور اسلوبه الذي

سلف. فهو يجمع من المصادر وينسق ثم يروي.

وفيما يختص بتاريخ السلطنة السنارية ومشيخة العبدلاب وما يتبع لهما من الولايات، اعتمد نعوم على مخطوطة ابراهيم عبد الدافع ومخطوطة الزبير ود ضوه. وهما مخطوطتان ترجعان الى مخطوطة احمد ابن الحاج ابو علي المشهور «بكاتب الشونة» في تاريخ السلطنة السنارية والادارة المصرية. وهذا يعرف احيانا بتاريخ ملوك سنار واحيانا بمخطوط كاتب الشونة. وقد ظن نعوم ان ود ضوه اختصر تاريخ عبد الدافع واضاف إليه بعض الحواشي[1] وهو بالتالي غير منتبه الى اصل هذا التاريخ وما تفرغ عنه على نحو ما بين مكي شبيكة. ثم هو يعتمد على كتب بعض الرحالة. وعلى النحو الذي سلف بيانه من قبل سار في هذا الطرف ايضا على الكتابة في حدود ما جمع.

ان خطة نعوم في كتابة تاريخ السودان القديم ـ وهو يمتد في نظره من أقدم العصور الى قيام النظام التركي المصري ـ تقوم على قراءة المراجع والوصول منها الى سرد يرضيه. وكانت مهمته هي: النقل والتلخيص وإعادة الصياغة. ولم يسبق ذلك ادراك مسبق ولا وعي يؤهل للكتابة التاريخية. ولذلك كانت أهمية هذا الطرف من تاريخه أهمية محدودة، وقد اخذ منه الزمن الآن ففقد الكثير من قيمته.

وماذا عن العهد التركي؟

بدءا نقول ان صاحبنا هنا أحسن وضعا مما كان في الأطراف السابقة. فهو ليس بناقل او ملخص وحسب.

انه قريب الى هذا العهد ويعرف الكثير عنه. ولا بد انه كون فكرة عنه بحكم ما سمع ووصل الى قدر من الوعي بأموره. ثم ان مراجعه قد تعددت. فهو قد رجع الى الكتب التي تحدثت عن هذا العهد والى كتب الرحالة. وهو

---

(١) التاريخ ص٤١٣.

قد اخذ الكثير عن رواة الاخبار ممن شاركوا في الحوادث او حلوا اخبارها. وقد اعتمد في غالب ما اورده عن اول هذا العهد على المؤلفات وعلى الرحالة، لأن ذلك كان بعيدا عن تناول رواته، بينما اعتمد في غالب ما رواه عن أواخره على الرواية، وذلك بحكم المعاصرة. وكلما اقترب العهد الينا زاد محصولنا منه نتيجة لتدفق المعلومات الشفوية واتساعها ومعرفة المؤلف المباشرة.

وكانت امور هذه الفترة معقدة لما فيها من القضايا، ولم يكن السرد وحده يكفي لمعالجتها ويكفي ان نذكر من قضاياها: الحوادث المتصلة بسقوط سلطنة دارفور، طغيان نفوذ البحارة في بحر الغزال، تجارة الرقيق، اتساع ممالك مصر جنوبا مع النيل والى الشرق مع امتداد البحر الأحمر، التصور الاقتصادي، اثر الطبقة التي تعلمت سواء في خلاوى السودان ومدارسه ومرابط متصوفته او في مدارس مصر وازهرها الشريف. هذه مجرد امثلة لقضايا تدخل في تاريخ هذه الفترة. لذلك تطلبت المهمة مقدرة اكثر في الاستيعاب والمعالجة وكان ذلك بالخصوص في اواخر العهد، وهكذا تعدت مهمة المؤلف هنا إعادة صياغةما جاء في المراجع ودخلت دائرة البحث والتأليف.

وقد كان في ميسور نعوم، وهو الموظف المهم في ادارة المخابرات ذات النفوذ الواسع، ان يقف من غير جهد على وثائق الادارات المصرية المختصة بالسودان كالمعية والمالية والحربية ومجلس النظار، وعلى وثائق ادارة السودان التي رحلت من السودان الى مصر عندما استفحلت ثورة المهدي. ولكن نعوما لا يشير الى استعانته بهذه الوثائق، وليس في تاريخه ما يقطع بأنه اعتمد على وثائق رسمية.

وفي ظننا انه ما كان ليغفل عن ذكر وثائق مصر الرسمية لو أنه اعتمد عليها، ودليلنا على ذلك انه ذكر اعتماده على وثائق المهدية فيما بعد. وفي ظننا ايضا ان نعوما حتى وان وقف على الوثائق الرسمية او بعضها ما كان ليوظفها بالقدر الذي يطلب من المؤرخ الآن.

واذا ما جئنا الى المهدية فان جهد نعوم الذاتي يبدو أوضح مما كان في العصر التركي، لأنه يبدأ بمعرفة واسعة وضبط جيد لحوادثها. وقد عاونه على ذلك عمله في المخابرات المصرية والتي كانت ترصد حوادث المهدي وتقيمها. فلما بدأ الكتابة كان الأمر قد اكتمل في مخيلته. وعلينا ان نتذكر هنا ان هذا الطرف من الكتاب هو الاصل في هذا التاريخ الضخم والدافع الاساسي لوضعه. ومن هنا يتوقع المرء جهدا في الاستقراء والتأليف بأكثر مما مضى.

وقد رجع نعوم الى كل المؤلفات التي تكلمت عن هذه الفترة والى اضابير المخابرات الثرة واستمع الى الرواة ونظر في بعض ما صدر عن المهدي واصحابه وانتهى الى خزانة كبرى للبيانات هي ما يشير إليها مرة بمحفوظاته الخاصة ومرة اخرى بالمطول، وهي الخزانة التي امدته بمادة كتابه.

ويذكر نعوم في تاريخه انه وقف على مخطوط وقائع عثمان دقنة وعلى الوثائق التي غنمت اثناء حملة الفتح وعلى وثائق المهدي والخليفة التي غنمت بعد سقوط ام درمان وانه استعان بها[١]. ثم انه لعب الدور الاكبر في جمع وثائق المهدية بعد سقوط ام درمان وكتب عنها تقريرا[٢]. ولكن هل كان اطلاع نعوم بالقدر الذي يظنه الناس؟ وهل كان واعيا بمفهوم توظيف الوثائق في غايات البحث العلمي؟

ان نعوما يقول في تاريخه عن الوثائق التي جمعها في ام درمان «وأتيت بها الى مكتب المخابرات في مصر فإذا هي جامعة لأهم ما دار من الكتب بين الخليفة والمهدي من قبله وبين امرائها وغيرهم في الجهات وقد تحققت منها بعض الوقائع التاريخية واستشهدت بها كثيرا في هذا الكتاب»[٣]. وتعليقا على ذلك نقول ان التحقق من بعض الحوادث او الاستشهاد يختلف عن كون

---

(١) التاريخ (ط.م.) المقدمب ص١.
(٢) التاريخ ص١٢٨٨- ١٢٨٩.
(٣) التاريخ ص١٢٨٩.

البحث قائما على دراسة الوثائق.

ومن الظاهر ان نعوما لم يكن يحفل كثيرا بالوثائق، والا فما باله يقتضب في إشارته الى ما غنم منها؟ ولماذا لا يذكر من الوثائق التي غنمت في عفافيت الا مخطوط الوقائع مع ان ما غنم فيها كان كثيرا، وقد عنت بها المخابرات فصنفتها ووضعت لها الكشافات وترجمت اطرافا منها؟ وقد وضع ونجت تقريره عن ادارة المهدية بشرق السودان اعتمادا على هذه الوثائق ثم الحق في نهايته جداول تعريفية بالوثائق ومقتطفات من نصوصها ولكن نعوما لا يهتم بها مع انه يهتم بالطبول والمخلفات التي غنمت وبيعت في المزاد.

ثم لنَمْضِ قدما وننظر في تعامله مع وثائق المهدية حتى يتبين لنا مدى ادراكه:

يقول عن مخطوط وقائع عثمان دقنة الذي غنم في عفافيت: «وقد وجدت بين دفاتر بيت المال واوراقه تاريخ وقائع عثمان دقنة كما قدمه للخليفة فاطلعت منه على حقائق شتى»[1].

ولكننا نحسب ان وقفته مع هذا المخطوط كانت وقفة قصيرة. ولا نَنْسَ هنا ان نية الكتابة في تاريخ السودان قد جاءت في وقت لاحق، وبالتالي فإننا لا نعاتبه اذا لم ينظر في المخطوط بعناية. وقد نظر نعوم فيما بعد في سعادة المستهدي بسيرة الامام المهدي لاسماعيل عبد القادر الكردفاني واعتمد عليه، ولكنه لم يتبين ان ما اورده عن معارك دقنة لم يكن الا نقلا عن مخطوط الوقائع، فكيف له ألا يدرك هذا الصدى ان كان عارفا بمصدره. ثم انه زعم بأن وصف الوقائع موجه الى الخليفة بينما هو في الحقيقة موجه الى المهدي. ولسنا نرى ان مثله يقع في مثل هذا الخطأ إلا إذا كان عجلا. ولعله هنا يجاري ونجت الذي زعم أن وصف الوقائع قد أعد ليحفظ في محفوظات الخليفة.

---

(١) التاريخ ص١٢٥٢.

ويذكر نعوم كتاب سعادة المستهدي بتقدير عظيم، وقد رفع مؤلفه الى مصاف كبار مؤرخي الاسلام. ولعل ما استهواه انه تحرى الوقائع في السودان كما تحراه هو في مصر وأنه وجد ما كتبه مصدقا لما اثبته. فكأن صاحبنا يؤكد صدق ما وصل إليه بمطابقته لما جاء به اسماعيل الكردفاني. وهو يقول في موضع آخر ان خبر هذه السيرة بلغه وهو يتحرى فاستعان بالتجار حتى ظفر بها «فإذا هي مع كثرة ما فيها من الاطراء والتملق للمهدي وخليفته قد ضمنت الحقيقة احسن تضمين وانطبقت حقائقها على ما تحريت جمعه في مصر فزدت به ثقة واستشهدت بالسيرة في مواضع كثيرة من التاريخ»[1]. وهكذا شهد نعوم للكردفاني بالدقة والسبق، ولكن ما باله يؤاخذه على التملق وقد اتى بمثله عندما تملق رؤساءه! وإذا كان الاعتراف له بالدقة والسبق فضلا فان لنعوم فضلا آخر وهو انه سعى حتى وصل الى النسخة الوحيدة الباقية من الكتاب وحفظها من الضياع.

اما المجموعة الرئيسية من وثائق المهدية فانه وقف عليها في اوائل سبتمبر ١٨٩٨، وقد رفع تقريره عنها في ديسمبر. وقد بدأ التأليف في أواسط ١٩٠١م ثم فرغ من التأليف في اكتوبر ١٩٠٣. وهكذا يكون بين الوقوف على الوثائق وبين بدء التأليف والفراغ منه بمقدار من الزمن لا يكفي للدراسة من الوثائق خصوصا اذا اعتبرنا انه كان في نفس الوقت يكتب ويعود الى المصادر الاخرى.

وقد وضع نعوم قائمة بالكتب التي طبعت بمطبعة المهدية الحجرية[2] اعتمادا على البيانات التي حصل عليها من مختار بادي امير مطبعة المهدية واشر امامها

---

(١) سعادة المستهدي، ص٤٤.

(٢) المخابرات الحربية المصرية ملف ١٩١١.

على ما وقف عليه منها. والغريب في الأمر ان ما غنم حقيقة كان أكثر مما اشر عليه وذلك بدليل ما هو موجود الآن ضمن وثائق المهدية. وقد تعرض نعوم الى هذه المطبوعات في تاريخه الا انه خالف فيه بعض ما ذكره في القائمة.

لقد وصف في القائمة الجزء الرابع من المنشورات المطبوعة بأنه مقالات مع ان هذا هو جزء الخطب. وقد ذكر ان ما طبع من كتاب الأحكام ثلاث ملازم. وهو يذكر الراتب ويفيد بتعدد طبعاته. وقد اورد مصنفا يتضمن منشورات المهدي عن الخليفة عبدالله ولكنه لم يحدد أي الطبعات يعني، اذ ان هناك عدة مصنفات تتضمن مثل هذه المنشورات. ولكن من الواضح انه يعني احدى الطبعتين الكبيرتين. وهو يذكر كتابا يسميه كتاب النصائح ويزعم انه ارسل الى الخارج، وليس هناك كتاب بهذا العنوان، ولعله يقصد خطابات المهدي والخليفة التي طبعت وارسلت الى الخارج. وهو يقول انهم طبعوا رسالة المهدي الاولى الى غردون وملحقيه في كتاب، وهو هنا واهم لان المطبوع الذي يقصده ملزمة من ملازم الطبعة الاولى من الانذارات وليس مطبوعا مستقلا. وقال في التاريخ ان الخليفة جمع مناشير المهدي وطبعها في جزأين[1]. وصواب الأمر ان الخليفة طبع بعض المناشير لا كلها، وكانت الاجزاء أربعة لا جزأين. وقد ذكر هو نفسه في القائمة انها أجزاء اربعة. فما باله يقول هنا جزأين؟ وقد زعم ان الخليفة اسقط من مطبوعاته خطاب المهدي الى السنوسي[2] مع ان هذا الخطاب وارد في طبعتي الانذارات.

ويذكر نعوم ان المهدي كان قد شرع قبل وفاته في تأليف كتاب سماه كتاب المجالس وضمنه ارشادات للصلوات والاذكار وقراءة الراتب وانه كان يقصد ان يضمنه الاحكام الشرعية في المعاملات والديانة ويكون سنة لانصاره

(١) التاريخ ٩٤٣، ١٢٩١.

(٢) التاريخ ٩٤٣.

فمات قبل ان يتمه[1]. وهذا خطأ. اولا لم يكتب المهدي كتابا ولا شرع فيه. وثانيا المجالس عدة كتب لا كتاب واحد. وثالثا قام بوضع المجالس بعض اصحاب المهدي بعد وفاته وضمنوا فيها بعض اقواله وبعض ما كان يستشهد به من الآيات والاشعار والحكم.

اننا نستطيع ان نزعم اعتمادا على ما تقدم ان معرفته بمطبوعات المهدية كانت ضعيفة. واذا كان الامر كذلك في امر المطبوعات على قلتها وعلى شهرتها فما بال علمه بوثائق المهدية الاخرى والتي تبلغ عشرات الآلاف. اننا نكاد نقطع بأن علمه بوثائق المهدية لم يتعد الوصف الخارجي وانه لم يوظف هذه الوثائق الى القدر المطلوب في البحث العلمي. وسبب ذلك في نظرنا يرجع الى امور ثلاثة: اولها قصر المدة بين وقوع وثائق ام درمان في يده وبين تأليف كتابه، وثانيها انه لم يأخذ اصلا بمفهوم استوظاف الوثيقة في الكتابة التاريخية، وثالثها انه كان مأخوذا بالرواية، يأخذها ويعول عليها، وقد وقف منها على ما يكفي. ولو ان نعوما اضاف الى ما جمع من الرواة وما أخذ من المؤلفين المحصول الثر الذي يجنيه المرء من الوثائق لبلغ كتابه مبلغ الاستقامة والكمال. وهذا الذي يهدف إليه الباحثون الآن، فانهم يجمعون حصيلة الوثائق الى حصيلة المراجع فيستقيم لهم النظر بأكثر مما كان ويبلغون درجة أبعد من الوعي.

نعوم والمصدر الشفوي:

اعتمد نعوم كثيرا على المصدر الشفوي وعول عليه، وهو ما يسميه على عادة القدماء الروايات. ولعلك ترى معنا أن المصدر الشفوي اوسع مجالا مما تدل عليه الرواية. وكان غالب اعتماده فيما كتب عن المهدية قائما على هذا المصدر. جمع الاخبار وهو في المخابرات بمصر ودون ما بلغه في أضابيرها. وقد بلغك ان بعض مهمته في المخابرات كانت تدوين ما يجمعه من الرواة

(١) التاريخ ٩٤٣.

القادمين من السودان. ثم اجتمع طوال حملة كتشنر وبعد سقوط ام درمان بالمئات من الامراء والأعيان وكل من ظن فيه خبرا واخذ عنهم. وقد علمنا فيما سبق ان اعتماده على وثائق المهدية لم يكن الا قليلا الامر الذي يدعو الى ان يعتمد على الرواية الشفوية وعلى القليل الذي كتب في تاريخ المهدية واحوالها. وهو يأخذ عن الرواة اغلب ما يرويه عن أواخر سلطنة الفور واواخر العهد التركي المصري. وقد تبين لك ادعاؤه بأنه أخذ تاريخ الفور برمته او جله عن ثقته الطيب محمدين مع ان امره كان بخلاف ذلك. وعسى ان يكون هذا الادعاء دليلا على انه كان في قرارة نفسه يفضل الرواية على غيرها من المصادر ويميل الى التعويل عليها. كذلك كان اعتماده على الرواة كبيرا فيما كتب عن تاريخ سيناء وجغرافيتها.

لقد وصف نعوم كيفية تعامله مع الرواة في مكانين. ففي تاريخ سيناء يقول انه كان حيثما ذهب يجمع المشائخ والخبراء ويتلطف في تسقط اخبارهم واستقصاء احوالهم مبينا لهم ان ذلك في مصلحتهم، وانه لم يكتف بسؤال واحد منهم عن اية حقيقة كانت ولو انها اسم مكان وانما كان يطرح السؤال الواحد على اثنين او أكثر ويسأل كلا منهم على انفراد ثم يجمعهم اذا اقتضى الامر ويسألهم السؤال عينه حتى يستوثق من صحة الجواب فيثبته في يوميته[١].

وفي تاريخ السودان يقول انه اعتمد في معظم ما كتب عن التاريخ الحديث - يعني العهدين التركي المصري والمهدية - والجغرافية على محفوظاته الخاصة واستقصائه الشخصي من ثقات يعدون بالمئات. ثم يقول انه اذا اختلف الرواة في امر جمعهم في مكان واحد واستقصى الحقيقة منهم جميعا حتى اذا ما قضوا اياما متوالية في المحاورة والمذاكرة تدبر ما اجمعوا عليه، فإذا لم يتفق مع ما ثبت عنده من الحقائق او لم يطابق أحكام العقل والعادة استأنف البحث مع جماعة آخرين. وهكذا يمضي حتى يظفر بالحقيقة[٢].

---

(١) تاريخ سيناء ص٤.

(٢) التاريخ (ط.م.) المقدمة ص٣.

ان أول ما يبدأ به هو استرضاء الراوي نفسيا حتى يقبل على الرواية وهو إجراء حكيم لا بد ان يأخذ به جامعو التراث الشعبي. وبغير ذلك لا يقبل الراوي على اعطاء اسراره.

وهذا الذي دفعه الى ان يطمئن رواة سيناء بأن ما يجمعه يعود عليهم بالفائدة. وقد حصل على ما اراد بغير حرج الا ما كان من عادة التحوط عند البدو. اما بالنسبة الى رواة أخبار المهدية فقد كانت مهمته عسيرة، لأنه كان من وجه يتعامل مع اعداء المهدية، وفي ذلك من المخاطرة ما فيه، وليس اعز من كلمة حق تنالها من عدو، لأن الهوى لا ينفك عنه الا فيما ندر، ولأنه من وجه آخر كان يتعامل مع انصار المهدية وهؤلاء لهم ميلهم ولونهم. وفضلا عن ذلك فانهم كانوا في حرج، لأنهم يروون رواياتهم لرجل من رجال السلطة الجديدة وهم كارهون لها وله، وهم يعلمون ما في ذلك من المخاطر اذا زلَّ اللسان. ثم انهم يعلمون ايضا ان العهد الجديد ينظر إليهم وإلى دولتهم الغابرة نظرة العداء فكيف لهم ان يقولوا ما يشاءون بل كيف لهم ان يصرحوا لعدوهم بما كان من امرهم. في هذه الظروف الحرجة جمع نعوم اخبار المهدية، ولا بد انه عانى كثيرا واستنفذ كثيرا من طاقته حتى جعل الخائف يطمئن والمتوجس يستقر ويصدر عن صدورهم ما في مكنونها من المستور.

ولعلك ترى معنا ان نعوما يأخذ بما يجمع عليه الرواة في سيناء ويمضي به في تأليفه بينما هو في تاريخ السودان يرجع بما يجمعون عليه الى العقل والعادة والى حقائق التاريخ فيأخذ ما يتفق توافقه ويترك ما كان نابيا. وبالطبع فانه لم يأخذ رواته عن سيناء جزافا وانما اخذهم بتقدير المؤرخ. وانما الفرق بين الحالتين انه بدأ الجمع عن سيناء وهو لا يعرف عنها الكثير وكان بدؤه بالروايات يأخذها عن المشائخ والخبراء. وكان ابلغ ما يرجو ان يتفق الرواة لأنه لم يكن يملك محصولا من الحقائق يرجع إليها إذا اختلفوا او ابتعد ما اتفقوا عليه عن المحتمل. أما في حالة السودان فانه كان قد جمع الكثير وكان

من الوعي بتاريخه على مقدار عظيم. ولذلك كان يراجع ما يجمع علم
على ضوء ما عنده فيرفضه او يقبله فيثبته.

والرجل حذر في تناوله لأنه لا يقبل بخبر الا اذا اجتمع عليه عدد من الرواة. ثم انه ينظر في الذي يروونه محتكما الى شروطه فلا يأخذ به جزافا.

وأول ما يبدأ به هو ان يسأل الرواة عن الحدث كلا على انفراد. فإذا اتفقوا واتفق ما كانوا عليه مع استقرائه اخذ به. وهذا امر لا اعتراض عليه من حيث المنهج الا انه لم يدون الا ما اتفقوا عليه لننظر فيه نحن ايضا ولا يأتينا هذا الذي اعتمده الا مضمنا في تاريخه. وكان الافضل ان يدون كل رواية على حدة الا ان عذره انه لم يكن جامع روايات وانما كان مؤرخا ينتهي من الروايات إلى أحكام يوردها. اما اذا اختلفوا فانه يجمع الرواة معا ويسألهم نفس السؤال ويجعلهم يتحاورون ويتذاكرون حتى يصلوا الى تصور. وهنا مصدر الخطر، لأن الذي يصل الى التصور هو جمع الرواة - لا نعوم وكأن نعوما بهذا يعهد اليهم بمهمة المؤرخ بينما هو ينتظر النتيجة الجاهزة. ان مهمة المؤرخ هي جمع الروايات والمقارنة بينها ليقف منها على مواضع الاتفاق والاختلاف والوصول منها إلى تصور للحدث. اما اذا تركنا للرواة ان ينتهوا الى شيء فإن هذا يعني التنازل عن مهمة المؤرخ للراوي، وهو يعني ايضا ان كل راوٍ يقبل ان ينظر في روايته بمقتضى الروايات الاخرى وان يتنازل عن بعض ما يرى، وهو أمر يضعف الرواية بقدر ما يضعف الشهادة اتفاق الشهود على تصور جماعي بدلا من ان يشهد كل شاهد بما شهد. وربما كان ما يحمله احد الرواة هو الصواب في حين ما يحمله الآخرون بغير ذلك. فإذا تنازل هذا عن روايته نزولا على رأي الجماعة نكون قد اسقطنا الصواب وأخذنا بغيره. ثم ألسنا نمهد للرواة ليطبخوا الحدث طبخا جديدا يختلف عما كان عليه كل راو بل وقد يختلف عن حقيقة الأمر! ثم أن إثارة الراوي الى اكثر من حد روايته تدفع به الى مزلق، فإذا تنبه ودفعته الغيرة لشيء اندفع ومال الى حيث غيرته. وهو كلما عركته قلب النظر فيما عنده وغيره واسقط واضاف

وافسد، مثل مكان للصيد غني تفسده كثرة الشباك ترمى وأرجل تخوض.

وهو يركن للعقل والعادة ليقبل الرواية او لا يقبل وهو شبيه في ذلك برجال الحديث عندما ينظرون في الأحاديث ورجال الشريعة عندما ينظرون في العزف والعادة. ومثل هذا يقبل وان كان الاصوب ان يشرك القارئ فيما يقبل وفيما يسقط باطلاعه على موضع الخلاف والاتفاق بدلا من ان يجلس على مائدة جاهزة لا يدري كيف جهزت. ثم انه يرجع بما جمع الى محفوظاته الخاصة وعلمه بالتاريخ فيقبل ويرفض. وهنا ايضا يقبل مسلكه على نحو قبولنا لأحكامه للعقل والعادة وبنفس المحاذير. ولكن ألا تذهب معي الى ان صاحبنا قد جمع وانتهى وانه يرجع الى رواة ما بعد الفتح لملء الفجوات والاستوثاق فيما يراه شكا او قلقا!

٥ - تصويبات واستدراكات:

ان مؤلفا ضخما كالذي وضعه نعوم لا يمكن ان يسلم من الخطأ، بل ان الخطأ إرث حواء فينا فلا نسلم منه. وسبحان المنزه عن الخطأ. وقد سبق ان اشرنا الى الاخطاء المطبعية من قبل. وفيما يلي نرجو ان نشير الى بعض الاخطاء المتعلقة بالحقائق، وليس غرضنا من ذلك الحط من مقدرةنعوم وقدر كتابه وانما نبغي من وراء ذلك خدمة الحقيقة، وفي بالنا ان المئات من الطلاب واساتذة التاريخ وجمهور القراء يعتمدون على هذا المؤلف ويرجعون إليه، ومن حق هؤلاء علينا ان ندلهم على مواضع الخطأ. كذلك نرجو ان نستدرك بالتعليق بعض ما فاته او غمض عليه او كان عجلا فيه:

ص٤١١ أشار نعوم الى زيارة السيد محمد عثمان الميرغني الختم الى سنار، وهو يأخذ هذا الخبر من مخطوط ملوك سنار. والذي يروي خبره منذ قدومه الى السودان[1]. وكان من الأصوب ان يذكر نعوم تاريخ هذا الرجل ذي

---

(١) تاريخ ملوك سنار، تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل ص٧٣-٧٥.

التأثير البالغ في تاريخ السودان وما كان له من نشاط في البلاد التي زارها ونفوذ الختمية من بعد بدل الاقتصار على خبره في سنار.

ص ٣٩٥ ذكر نعوم أمير فور الذي اشترك في حرب الحبشة. وهذه إشارة غامضة نقلها نعوم على علاتها من مخطوط ملوك سنار. يقول المخطوط: وكذلك شيخ فور ناس الشيخ (خميس) ولد جنقل[١]. ويقول في مكان آخر: فقطعوا البحر للشرق للسلطان خميس سلطان الفور[٢]. وقد حاول شبيكة ان يزيل هذا الغموض فقال: «لو أن أشار خميس من عائلة دارفور المالكة والمتلجئ بسنار على الملك بأن يعبر الجيش.. التي دبرها خميس أمير دارفور اللاجئ بسنار»[٣]. ولكن حقيقة الامر ان السلطان خميس من المسبعات الذين كانوا يحكمون كردفان. وقد لجأ في ظروف غامضة الى سنار واصبح عضدا ويدا للسلطان بادي بن نول في حربه على الحبشة. وربما كان هو الذي زين لهذا السلطان فتح كردفان. وقد اشترك في الحملة على كردفان وورد ذكره في حوادثها. وفي وثائق الفونج وصف بأنه سلطان فور المسبعات[٤]. وقد جاء الخلط بين المسبعات والفور لأن المسبعات فيما شاع من البيت المالك في دارفور.

ص ٤٩٤ ذكر نعوم ان محمد علي باشا ارسل مع جيش ابنه اسماعيل ثلاثة من نخبة العلماء هم القاضي محمد الاسيوطي الحنفي والسيد احمد البقلي الشافعي والشيخ احمد السلاوي المالكي واوصاهم بأن يحثوا أهل البلاد على الطاعة بلا حرب بحجة انهم مسلمون وان الخضوع للسلطان واجب ديني. ولكن مهمة هؤلاء في واقع الأمر كانت خدمة الجند بالوعظ والإرشاد وإمامة الصلاة والنظر في القضايا وما الى ذلك من الأمور الدينية على نحو ما هو معروف في

---

(١) نفس المصدر ص٢١.

(٢) نفس المصدر ص٢٢.

(٣) مكي شبيكة: السودان عبر القرون ص٧٤-٧٥.

(٤) التاريخ ص٥١٢.

الجيوش الاسلامية. اما المهمة التي ذكرها نعوم فربما تكون مهمة اضافية، او لعلها من اجتهادات نعوم، وهذا هو الأرجح عندنا. وظاهر ان الباشا لم يرسل حنبليا، وربما كان سبب ذلك ان الجند لم يكن بينهم حنابلة. ونحن لا نعهد مثل هؤلاء في جيش الدفتردار الذي فتح كردفان. ولعل الباشا اصحبه ايضا علماء لخدمة الجيش ولكن فات على الرواة خبرهم. وقد مات الاسيوطي في مدني بعد ان انتقلت العاصمة اليها من سنار على عهد اسماعيل[١]. واحمد البقلي بقي في مدني حتى ارجعه عثمان بك الى مصر لعدم وجود شافعية في السودان. اما احمد السلاوي فقد عاد الى مصر بصحبة الدفتردار[٢]. ثم جاء الى السودان مرة اخرى مع خورشيد[٣]. وقد بقي في السودان حتى مات. وفيه تزوج فوق زوجته المغربية وله نسل كثير. وكان له ميل بالغ نحو النخبة المتعلمة من السودانيين، ولعله كان مناصرا للمذهب المالكي الذي يجمع بينه وبينهم.

ص٦٣٢ قال نعوم ان الجعليين وامثالهم ممن نكل بهم الدفتردار بعد مقتل اسماعيل باشا هبوا عندما جاءت المهدية للأخذ بثأر آبائهم من فظائع الدفتردار. والحق ان الجعليين لم يلبوا نداء الثورة الا في وقت متأخر، ولم يكن ذلك الا بعد اعلان سياسة اخلاء السودان. وهو يقول ايضا ان الناس لم يكونوا متعودين على الضرائب، وهذا خطأ، اذ ان الناس كانوا يدفعون العوائد لشيوخهم وسلاطينهم، وربما كان الصواب ان ضرائب الترك كانت فادحة بالقياس وانها كانت تجمع بعنف لم يعرف من قبل الترك.

ص٦٣٥ يقول نعوم ان الحكومة استخفت بشأن محمد أحمد، ولكن الحق انها لم تستخف وانما اخفقت فيما اتخذت من اجراءات.

---

(١) التاريخ ص٥١٢.
(٢) التاريخ ص٥١٤.
(٣) التاريخ ص٥١٤.

ص ٦٣٧ ذكر ان محمد احمد رفع نسبه بعد المهدية والحقه بالرسول ولكن المعروف تاريخيا أن هذا النسب قديم وأنه كان معروفا من قبل محمد أحمد.

ص ٦٦٦ ليس صوابا ان المهدية اطلقت لتجار الرقيق الحرية لبيع الرقيق وشرائهم او انها آوت اللصوص وقطاع الطرق كما يزعم.

ص ٧٠٨ لا نظن ان قتل الجنقاوي يرجع الى ضغينة بينه وبين الخليفة عبدالله ولكننا نعتقد انه قتل لموقفه من المهدية ومن غريمه مادبو علي الذي كان مناصرا للمهدية. انه ضحية انقسامات الزريقات.

ص ٧٢١ قال عبدالله ود الصمد والصواب عبد الصمد شرفي.

ص ٧٥١ قال السيد محمد المرغني والمقصود هو السيد محمد بن السيد محمد سر الختم المرغني.

ص ٩٠٦ ذكر مقاومة السيد محمد عثمان بن السيد الحسن بعبارة غامضة قد يفهم منها انه قاوم الى آخر المهدية. ولكن السيد توفي بالقاهرة بعد خروجه من كسلا بوقت قليل. وقد قاومت عائلة الميرغني المهدية مثل بعض البيوت الدينية الاخرى الا ان مقاومتها كانت فعالة. والخلاف بين المراغنة والمهدية خلاف ديني له اسس موضوعية وليس شخصيا او من أجل النفوذ كما يعتقد.

ص ٩٥٢ بين ايدينا الآن مختصر لمنشور مجلس النظار بفتوى علماء مصر ولكننا لم نهتد بعد الى منشور السلطان عبد الحميد.

ص ٤٥٢ ذكر خبر لقب الرشيد الذي لقب به السلطان عبد الرحمن سلطان الفور ثم قال انه «اللقب الذي عرف به في اختام سلاطين الفور». والحق أن هذا اللقب لا يرد في اختام هذا السلطان والتي ربما تكون سابقة للقب. وقد ورد فعلا في اختام السلاطين من بعده.

ص ١٣١٩ قال ان تاريخ ختم السلطان علي دينار الذي يشير إليه هو سنة ١٣٠٠ وهو خطأ لأن التاريخ المنقوش حقا هو ١٣١٦. ولم يكن علي دينار

سلطانا في ١٣٠٠ وانما تولى السلطنة في ١٣١٦، وقد نص على هذا التاريخ في اختامه.

ص٦٥٢ ذكر ان تاريخ ختم المهدي الذي يذكره هو ١٣٠٢، وهو خطأ والصواب ان تاريخ هذا الختم هو ١٢٩٢هـ.

ص٤١٦ ذكر اختام ملوك سنار وقال انها اكبر اختام ملوك السودان قاطبة والحق ان اكبر الاختام هي اختام سلاطين الفور. والعبارة التي روي انها منقوشة في اختام ملوك سنار لا ترد في الاختام التي وقفنا عليها، وهي اليق بأن تكون في السيوف. ولعل مصدر نعوم هنا مصدر سماعي.

ص٦٦٨ اخطأ نعوم في أمر الخلافة وقال ان تعيين الخلفاء كان في أبا ولكن غالب الرأي ان ذلك كان في قدير. وجاءت خلافة خلفاء المهدي لخلفاء الرسول بعد فتح الابيض. وتسمية السنوسي لم تكن في ابا كما يوحي قول نعوم وانما كانت في الابيض. وقد ظن نعوم ان خطاب المهدي الاول الى السنوسي كان بعد قيام المهدية ولكن الصواب انه كان قبل المهدية، وقد أبلغه فيه، حسبما يرد في مقدمة خطابه الثاني، انه سمع عنه خيرا وانه متأهب بأصحابه للالتحاق به لاحياء الدين. وهكذا بعد نعوم عن الصواب في تاريخ الخطاب ومضمونه.

ص٦٦٨ خلط نعوم في أمر الرايات وصواب الأمر ان راية الخليفة شريف هي الراية الحمراء، وراية الخليفة عبدالله هي السوداء (الزرقاء) وراية الخليفة علي الحلو هي الخضراء وراية الخليفة الثالث وهي التي عرضت على السنوسي هي الصفراء. هذه الرايات هي رايات الاقطاب الاربعة البدوي والرفاعي والجيلاني والدسوقي بالترتيب. وقد ورد اسم كل قطب في رايته مصحوبا بقوله «ولي الله». وكانت هناك راية بيضاء هي راية المهدي. وهذه لا يرد فيها اسم قطب وانما اقتصر على اسم المهدي مصحوبا بقوله: خليفة رسول الله، وقد حملها اخوه محمد عبدالله الذي كان يتولى قيادة الجيش العامة. ولما

قتل في واقعة الجمعة بالابيض ذهبت الراية الى الخليفة عبدالله بحكم انه امير جيش المهدية. والراية الصفراء ايضا كانت عنده. ولا يذكر نعوم الراية البيضاء.

ص٦٩١ ذكر نعوم ان المهدي ارسل من كابه كتابا الى محمد سعيد مدير كردفان ورؤساء الجيش وكتابا آخر الى سكان المدينة من اعيان وعلماء وتجار وغيرهم[١]. وهو هنا يأخذ عن سعادة المستهدي. وقد خلط نعوم هنا خلطا كما خلط مصدره الذي اخذه عنه. وحقيقة الأمر ان المهدي كتب الى اهل الابيض كتابا وهو في الطريق اليهم يؤنبهم على قعودهم عن نصرته. وقد ذكر علي المهدي ان هذا الكتاب ارسل من الكواليب، وذكر اهرولدر انه ارسل من البركة. وهذا يجعل صدوره قبل ١٦ شوال ١٢٩٩هـ وهو تاريخ نزوله في كابه. وفيما بعد ارسل المهدي نسخا من هذا الكتاب الى آخرين ومنهم الشيخ البرير بشمال ادويم، ونسخة البرير مؤرخة في القعدة ١٢٩٩ (انظر المرشد رقم ٤٧-٥٠). اما الكتاب الثاني فقد ارسل من كابه في ١٦ شوال ١٢٩٩هـ وليس في ١٩ منه كما نقلت مصنفات الرسائل، وهو الذي حمله رسولا المهدي الى محمد سعيد باشا، وهو كتاب مشهور تنقله مصنفات كثيرة. الا ان الكردفاني ونعوما لم يتفقا عليه.

وظاهر من نص الكتابين وتوجيهها ان المهدي لم يخص مدير الابيض ـ محمد سعيد ـ وجنده بكتاب خاص وانما ارسل إليهم نسخة من كتابه المؤرخ في ١٦ شوال ١٢٩٩هـ وهو الكتاب الذي يشير نعوم الى مضمونه.

وقد جاء في الرسالة «فاتركوا جميع اولادكم وعائلتكم واخرجوا لملاقاتنا خارج البندر من غير سلاح وكونوا من جملة الانصار. فمن فعل ذلك فقد احرز لنفسه وماله وعليه امان الله ورسوله ويكون له ما ترك من الاموال والأولاد» وهنا نلاحظ اولا انه يقول من غير سلاح وهو قول لا بد أن

(١) التاريخ ص٧٨٧ و٢٨٨.

يكون موجها لحملة السلاح وهم الجند، وبالتالي فهو موجه الى محمد سعيد وجنده، واذا صح افتراضنا هذا فأنه يؤكد قولنا بأن المهدي لم يخص محمد سعيدا وجنده برسالة و انما اعتبرهم في جملة سكان المدينة واعيانها وارسل اليهم نسخة من انذاره. ويقول نعوم ان المهدي طلب ان يخرج الرجال بالعوائل بينما يدعو المهدي في الانذار بأن يخرج الرجال بغير المال والعوائل، وهذا يدل على انه كان يرجو الاستيلاء على المدينة في ايام. والا فكيف للناس ان يتركوا عوائلهم وأموالهم! ثم ان نعوما يقول بأن المهدي قال بأن الملائكة سوف تحرس أموالهم حتى النصر بينما يقول المهدي بأنه يؤمن لهم المال والولد بعد النصر.

خاتمة:

ولد نعوم بشارة شقير في اسرة لبنانية لا نعلم عنها الا القليل. وقد هاجر الى مصر واستقر بها وكتب فيها كتب كتابا مهما في تاريخ السودان وهو الذي يبقى ذكراه بيننا. وقد اصاب اسرته داء الهجرة الذي أصاب أهل لبنان فهاجر البعض منها بينما بقي بعض اخر. وكان نعوم وابناؤه من المهاجرين. ويبدو ان اتجاه الشقيريين كان نحو مصر، ومن هناك اتجه بعضهم الى السودان. وليس بين ايدينا شيء عن طفولته وصباه ولا شيء عن والديه. وكل ما نعلمه عن ايامه في لبنان انه التحق بالكلية الانجيلية السورية والتي صارت فيما بعد الجامعة الامريكية ببيروت وتخرج فيها حائزا على إجازة الآداب.

وهنا ايضا نفتقر الى المعلومات لأننا لا نعرف شيئا عن مقررات الدراسة ولا عن الظروف التي احاطت به في حياته الجامعية، ولكننا بالنظر الى نجاحه في العمل في المخابرات ـ وهو عمل يتطلب قدرا كبيرا من النشاط الذهني ـ وما الفه من الكتب نذهب الى انه تلقى تعليما حسنا. وهناك خبر يقول بأنه انتسب في مرحلة الدراسة الجامعية الى جمعية للطلاب تناوئ الحكم التركي في

سوريا. ومع اننا لا نملك ما يؤكد أو ينفي هذا الخبر فاننا لا نستبعده لأن الجمعيات السرية المناوئة للترك كانت نشطة في سوريا تلك الأيام، وقد اخذ تيارها الطلبة فيمن أخذ. وحتى لو افترضنا انه شارك في هذه الحركة فانه على ما يبدو قد تخلى عن النشط السياسي بعد ان هبط ارض مصر آمنا، ذلك لأن هجرته قد ابعدته عن جو الشام المشحون بالصراع الطائفي والعرقي، ولم يعد هو في بلد للترك فيه تأثير مباشر حتى يحارب هذا التأثير كما فعل من قبل. هذا الى جانب ان العمل في المخابرات يتناقض مع العمل في الحركات السياسية.

كتب نعوم عدة مؤلفات تناولت موضوعات شتى: التاريخ والجغرافيا بمعناهما الطبيعي والبشري الشامل واللغات واللهجات والامثال والعادات والخرافات والأديان والمعتقدات والصناعات والحرف الخ. وهو يتجه في كل ذلك الى التعريف الشامل متتبعا كل التفاصيل المتاحة له مع توخي الموضوعية والابتعاد عن التأثر العاطفي او الاتجاه الخاص. انظر في ذلك مثلا تعريفه بالاسلام ومذاهبه وطرقه: فالحقيقة ترد بعد الحقيقة والمعلومة تعقب المعلومة بغرض التعريف المجرد. وقد عاونه في هذا الاتجاه امران: اولهما اتجاهه الموسوعي في التحصيل والكتابة، وهو اتجاه في زعمنا ينبع من طبعه الشخصي، وقد غلب عليه في كل ما كتب، بل انه ذكر صراحة في مقدمة كتابه عن الامثال انه يرجو ان يتوخى المنهج الموسوعي في التأليف حتى تكون مؤلفاته في النهاية مثل الموسوعة يرجع إليها الناس لشموليتها. والأمر الثاني الذي يعاونه في اتجاهه الموسوعي هو خدمته في المخابرات، وها هنا نجد ان المخابرات أتاحت له ان يقف على معلومات ثرة عن كل ما يتصل بالموضوعات التي يعالجها كما أتاحت له الفرصة للتعامل المباشر مع البيانات بحكم تقصيه للأمور من موضعه في المخابرات. وقد سنحت له الفرصة لزيارة بعض البلدان كالسودان وسيناء فحصل على خبرة بالبلدان وأهلها والتقى بالناس وحصل على مظانها سواء كانت مكتوبة أو مقولة. ولكننا خلافا لما يدعي لا نظن انه

مازج الاهلين لأنه بحكم وضعه الاجتماعي كان مترفعا عن العامة في مصر والسودان. ثم ان المخابرات تبحث في كل أمر وتتقصى في كل شأن مع الاهتمام الدقيق بالتفاصيل. وكان نعوم بالتوافق يعمل في القسم المنوط بجمع المعلومات واعداد التقارير الدورية كما انه كان منوطا بمسألة القادمين من السودان والأسرى عن اخبار السودان وأحواله. وهكذا فان العمل في المخابرات بما فيه من اتجاه التقصي عن كل شيء وما يوفره من المعلومات قد طور اتجاهه الموسوعي ونماه.

كان أول مؤلف يكتبه هو كتاب مرآة الايام والذي يتناول فيه مصر والسودان وبلاد الشام. هل اجتمعت هذه البلدان من قبل او من بعد في تناول تاريخي او وصفي؟ لا نحسب ذلك، ولكن نعوما جمعها هكذا بحكم التقائها في ذهنه، فالأول والثاني يشغلان ذهنه بحكم العمل، والثالث يلحق بها لأنه موطنه. ثم ان التراث العربي يربط بين هذه البلدان ويجعلها تحت باب مشترك في التأليف. وقد اشار نعوم الى هذا الكتاب في مقدمة كتاب الامثال وقال انه تحت الطبع، ولكن يبدو انه لم يقدر له ان يرى النور مطبوعا. ثم جاء كتاب امثال العوام في مصر والسودان والشام والذي طبع بمصر في ١٨٩٤. وكتاب الامثال ما هو الا طرف من كتاب المرآة، عجل المؤلف بطبع الفصول الخاصة بالامثال منه. ويتبين لك من ذلك ان وضع كتاب المرآة كان قبل ١٨٩٤. ثم جاء تاريخ السودان في ١٩٠٣، وهو مؤلفه الرئيسي، على الاقل فيما يخصنا. وقد اشار نعوم في تاريخ السودان الى كتاب تاريخ الحبشة، ولكننا لا نستطيع أن نقطع بانه اكتمل قبل تاريخ السودان، وعلى ما يبدو فان هذا ايضا لم يطبع. وتاريخ سيناء طبع في ١٩١٦، ولكن الجزء المهم منه اعد قبل ذلك بسنوات. اما تاريخ اليمن فلم نقف عليه ولم نر ان نعوما اشار إليه. ومن المحتمل انه كتب بعد سيناء ولم يقدر له ان يطبع ـ هذا اذا قدر انه كتب.

نعوم اذن تناول عدة موضوعات، وقد ظل يكتب لعدة سنوات. فهو

ليس بالكاتب الذي يكتب في موضوع واحد ثم يقعد، او بالذي تناله حمى الكتابة في فترة ثم تغيب عنه. ولعلك معي على انه عندما بدأ تاريخ السودان كان كاتبا متمرسا يعرف متطلبات البحث واصول الكتابة.

ومن الواضح ان نعوما لم يكتب في تاريخ مصر الاصيل ولا تناول هموم مصر الصحيحة. ورغم انه ليس من الانصاف ان نطلب من كاتب ان يكتب في كل ما نريد وان يعطينا على مائدته كل ما نشتهي او نفترض انه تباعد عن موضوع بالذات تحت طائلة امر ما، فان السؤال عن ابتعاد نعوم فيما يكتب عن هموم مصر سؤال جائز. وفي غياب ادلة محسوسة فان اجابتنا على السؤال سوف تكون افتراضية. ان اول ما نرى هو ان قسم المخابرات الذي عمل فيه لم يكن منوطا بمتابعة احوال مصر، ولذلك لم تكن لنعوم خبرة بأمور مصر الصميمة ولا كانت تحت يده المعلومات الخاصة بها. وهكذا نستطيع ان نفترض انه لم يهيأ موضوعيا للكتابة في الشئون المصرية. وامر أخر اكثر افتراضا وهو التباعد عن المواضع الحساسة بدافع التقية، فلا يغضب المصريين ولا يثير الجهات التي يعمل عندها بكشف مواقفه المستورة إزاءهم.

ولم يكن نعوم مؤرخا متخصصا بحكم التأهيل الدراسي وانما اخذ التاريخ بالهواية وبإغراء المعلومات التي توفرت تحت يده. وقد فهم التاريخ في إطاره العام، فهو عنده ليس علما متفردا وانما هو، من حيث انه تسجيل للنشاط الإنساني في غابره، يتعامل مع الجغرافية والجوانب الحضارية من الإنسان كالعقائد والعادات واللغات. ولذلك كان الكلام عن هذه الجوانب يتقدم فصول التايخ.

وقد كان اعتماده فيما كتب في التايخ القديم على المؤلفات، يعرض ما يقف عليه عرضا جديدا ومن غير ان يخرج عن مضمون ما وقف عليه. فعل ذلك في تاريخ سيناء وفي تاريخ السودان القديم وتاريخ الفونج والفور. انه ليس اكثر من قارئ جيد يحسن عرض ما قرأ. اما في التاريخ الحديث فجهده الشخصي واضح علاوة على تحصيل القراءة. والفرق بين الأمرين هو الخبرة،

يفتقدها في التاريخ القديم فينساق مع المراجع، ويملكها في التاريخ الحديث فيكتب بها وبما يقرأ. وقد اجتهد كثيرا للتوفيق بين شتات ما يقرأ وحاول عن طريق المقارنة بين الحوادث والتقصي ومراجعة التواريخ ان يصحح اخطاء المؤرخين. وهو يعول كثيرا في التاريخ الحديث على الروايات التي جمعها من الرواة. ولما لم يكن مدركا بمفهوم استغلال الوثيقة لصالح البحث فان استفادته من الوثائق الهائلة التي وقف عليها كانت محدودة للغاية. ومن الواضح ان ضبط التواريخ والالتزام بوضع التاريخين الهجري والميلادي لكل حادث قد اخذ منه جهدا ووقتا.

واللون الذي يميل إليه نعوم هو التاريخ السياسي العام، فهو لا يحفل بالاقتصاد والزراعة والعمران والافكار والنظم الا عابرا وفي اطار التاريخ العام. وأساس التقنين التاريخي عنده هو الحدث، وما التاريخ عنده الا سلسلة من الحوادث. وهو يعالج الحدث معالجة كاملة راصدا كل التفاصيل ومتباعدا عن كل تأثير عاطفي، من قبله او من قبل الآخرين، وهو هنا يملك احدى ادوات المؤرخ المهمة والتزامه الموضوعي. وتتم معالجته في ثلاث مراحل: في المرحلة الاولى يبين الاسباب وكيف تتجمع هذه الاسباب نحو تكوين الحدث. وفي المرحلة الثانية يصف التفاعل والالتحام وحظ كل طرف من التعامل. وفي المرحلة الثالثة يعطي النتيجة التي انتهى إليها الحدث. وفي كل مرحلة من هذه المراحل يعطي نعوم الخدمة الخبرية كاملة عبر كلمات منضبطة تأتي بقدر المعنى. وفي كل موضع من المواضع يعطيك تاريخ الحدث بالهجرة والميلاد ويعطي ارقام الجيوش والمعدات واسماء القادة ورتبهم والقابهم وعدد القتلى والجرحى والاسرى واسماء المهمين من هؤلاء ومقدار الغنائم واسماء الموظفين والضباط الذين برزوا والذين نالوا الترقيات والأوسمة. وقد عاونه وضعه في المخابرات فابرز كل ذلك بالدقة. وهو ينقل من اضابير المخابرات كثيرا من التقارير عن الوقائع ليكمل بها صورة الوصف الذي يعطيه كما ينقل جملة طيبة من وثائق المهدية.

وعندما يصف الحدث فانه لا يطلب طرفا من الاطراف فيغلبه وانما يسوق روايته حسبما وصلته اخبارها واضعا المعلومة وراء المعلومة ومستندا في كل ما يورد على السند الذي يعتمده. انظر مثلا كيف يصف الخلاف بين المهدي ومحمد شريف نور الدائم وكيف يعطي البيانات من غير تحرج حتى يحسب المرء انه في صف المهدي مع انه في موقفه العام معاد له! وانظر وصفه لوقائع المهدية وكيف يعطي التفاصيل الكاملة للطرفين. وانظر كيف يثبت بلاء الانصار وشجاعتهم في القتال[1]. وانظر كيف يقدر شخص الخليفة مع انه يعاديه ويعتبر حكمه بلاء على السودان[2]. وانظر انه يلتزم بلقب المهدي عند الإشارة الى المهدي التزاما بالتأدب معه مع ان مثله يستعمل المتمهدي صفة له، ولم يشذ عن ذلك الا في موضع واحد وفيما يشبه السقطة غير المحسوبة[3].

واهتمامه بالحدث يدفعه الى موقف آخر في التأليف وهو التركيز على الشخصيات التي تقود الحدث، ومن هنا كان احتفاؤه بالملوك والسلاطين والولاة والقادة. اما عامة الناس وهمومهم ودورهم وما كانوا عليه فأمر لا يشغل نعوم كثيرا.

ولو انك نظرت في الحوادث التي يصفها مبعدا همك عن التفاصيل ودقة العرض فانك تصل الى موقف له آخر، وهو انه لا يصل بالحدث الى روح التاريخ التي تكشف عن المسببات الموضوعية التي تأتي وفق التطورات الاجتماعية والاقتصادية والتي تجعل للحركات شرعتها. ولعل اخفاقه الأعظم في تناوله للتاريخ هو هذا القصور في إدراك مفهوم التاريخ.

انه لا يكاد يدرك المضمون الاسلامي في قيام سلطنتي الفونج والفور ولا تأثير العرب بلغتهم ونفوذهم الاجتماعي ولا يدرك مفعول التجارة على

---

(١) التاريخ ص١٧٨٧ و٢٨٨.

(٢) التاريخ ص١٣١٠.

(٣) التاريخ ص٢٦٩.

السلطنتين وعلاقاتها الاجتماعية. وهو لا يدرك العوامل الحضارية التي جاءت مع الحكم التركي ولا ما كان له من اثر على المجتمع السوداني. وكل ما يعنيه هو أن يصف الحوادث في حدود ما وقف عليه وان يجمعها في سرد واحد دون بحث في التيارات الاجتماعية والسياسية التي تخلق الحوادث او تحركها. ثم انظر الى كيفية تعامله مع المهدية. ان المهدية عنده حدث كبير وقد روى تفاصيله بكل حرص ودقة، بل كان التأريخ للمهدية هو السبب المباشر لوضع كتاب تاريخ السودان. ولكن نعوما يظن في قرارة نفسه بأن المهدية خروج عن الطريق القويم وانها نجحت لمجرد الاخفاق في اتخاذ الاجراءات الإدارية السليمة. وهذه نظرة سطحية موغلة. والا فكيف لنا ان نفسر انخراط الآلاف من البشر في سلكها؟ وكيف لنا ان نفسر اقبال الآلاف على الموت في سبيلها؟ ان نعوما لم يفهم المضمون الديني لهذه الحركة ولا اعترف بشرعتها باعتبارها حركة من حركات التاريخ لها دواعيها. ولعلنا نرجع هذه النظرة الى موقفه من الاسلام بحكم النشأة وتأثيرات الصراع الطائفي في لبنان فنجد له بعض العذر. غير ان ذلك لا يخفي قصور ادراكه التاريخي وقعود وعيه عن مضمون ما يؤرخ له. كذلك لم يفهم نعوم مضمون الخلافة في المهدية، وكانت نظرته لها نظرة سطحية. وبدلا من أن يبحث في روح التاريخ وما وراء الحوادث فانه يخرج من تاريخه بمغزى يسوقه في اسلوب خطابي على النحو الفكتوري الذي كان متأثرا به. ما هي عبرته فيما يرى في تاريخ السودان؟ يقول: «جاء في تاريخه من المواعظ والعبر للامة والافراد ما يرى في تاريخ كل بلد اشتهر أمرها وقدم عهدها وهو ان الجهل وتفرق الكلمة من اكبر دواعي الضعف والانحلال وان العدل قوام الملك ولن يثبت ملك مؤسس على الظلم والفساد وان الباطل لا يدوم مع الزمان ولا يدوم مع الزمان الا الحق بل ترى فيه هذه المواعظ والعبر بابلغ معانيها واعظم صورها ولا سيما في الصورة المهدية[1].

(١) التاريخ (ط.م.) لمقدمة ص٤.

وقد عني نعوم بترتيب ما يكتب عناية كبرى فهو يقسم تاريخ السودان وتاريخ سيناء الى اجزاء تتناسق مع الموضوعات وطول كل موضوع. ثم يقسم كل جزء الى ابواب. وكتاب الامثال مقسم الى ابواب. والباب عنده يقع في فصول. والفصل يقع في بنود. وكان دقيقا في ادائه. وخير ما نصف به هذا الاداء ووعيه به هو ان نقل عنه. قال في تاريخ سيناء انه عني عناية خاصة في ضبط عبارة الكتاب وأحكام وضعه على اسلوب تفهمه العامة وترضى به الخاصة، وضمن فيه الكثير من النكات المستملحة والقصص التقليدية المستظرفة التي تشوق القارئ الى مطالعته بلا تعب او ملل[1]. وفي تاريخ السودان يقول انه وضعه على اسلوب مجمل سهل العبارة جزلها تفهمه العامة وترضى به الخاصة وضمن الكثير من النوادر واللطائف التاريخية والتقليدية يحسن مطالعته ويسهل حفظه. وقد جاء هذا التاريخ «كتابا عاما معجما وافيا فيه كل ما تلذ مطالعته وتهم معرفته عن أحوال السودان من تاريخ وجغرافيا وآداب وفكاهة ورياضة مما يناسب الخاصة والعامة والمدارس والجمهور ولم يبق مطلب من مطالب التاريخ والجغرافية الا اتيت على ذكره في محله عصرا عصرا في حلقات متصلة كأنها سلسلة واحدة من اول عهد التاريخ»[2].

وبعد، اين ينتهي مطافنا هذا الطويل؟

نعوم مؤرخ غير متخصص ولكنه متمرس في الكتابة. وقد حصل على قدر عظيم من البيانات عن الموضوعات التي كتب فيها وخبر تفاصيلها. وهو يورد كل ما يصل إليه بأمانة ودقة بعد ان نظر فيها، وقد احسن العرض والصياغة. ومن هنا فان تاريخه جاء خزانة كبرى للحقائق. ولا يمكن لأي منصف ان يغفل عن هذا الذي بلغه نعوم ولا لأي مطلع ان يتغاضى عما كتب.

(١) التاريخ (ط.م.) المقدمة ص٤.

(٢) التاريخ (ط.م.) المقدمة ص٤.

وقد احسن عرض جغرافية السودان ووصف تكوينه العام وأفاد قارئه بمعلومات دسمة. وفي التاريخ فانه اول من وضع تاريخا للسودان امتد من عصوره الاولى الى اول هذا القرن. وكان بناؤه للتاريخ القديم وفي عمومه بناءً قويا. وقراءته للعهد التركي المصري متزنة وملتزمة بالموضوعية. ووصفه للعهد الثنائي كان غثا ومليئا بعبارات المديح والاطراء لزعماء العهد. وأمّا فيما يتعلق بالمهدية فانه طلب الحيدة والموضوعية وبذل اقصى ما يستطيع لاعطاء وصف امين للحوادث. ولكن اتجاهه العام غلب عليه فانكر شرعتها وعادى هنا وهناك، وبرغم ذلك فان له ومضات مضيئة من الانصاف والعطف. ويقعد نعوم عما يريد في عدة نقاط: اولا لم يدرك مقدار اسهام الوثيقة في البناء التاريخي، وبذلك لم يقدر له ان يستثمر المجموعة الهائلة من الوثائق التي وقف عليها استثمارا علميا، ولو انه اضاف الوثيقة الى الكتاب والرواية لاستوى سند التاريخ عنده وبلغ كماله. ثانيا لم يسبق عمله في التاريخ القديم وَعْيٌ به، ولذلك لم يخرج عن إعادة الصياغة والتلخيص، وقد جاء تلخيصه مخلا في بعض المواضع. ثالثا ظل تعامله مع التاريخ تعاملا شكليا، وذلك بالرغم من ثراء البيانات التي يعطيها ودقة الوصف، لاخفاقه في أن يرى ما وراء الحدث من القوى المحركة، رابعا اقعدت به خلفيته الطائفية عن ادراك قوة الاسلام كمحرك اجتماعي وبالتالي فانه لم يفهم قوة المفهوم الديني للمهدية.

ذلك ما نراه في نعوم وعمله من فلاح واخفاق، ومن خير وشر ولعلك ترى معنا ان الطرف الذي كتبه في التاريخ يبقى معنا رغم تقادم عهده وظهور ما ينافسه من المؤلفات ورغم ما يوجه من نقد واتهام نحو ما كتب المؤرخ الاجنبي عن السودان.

ملحق

بعض الملاحظات والتصويبات في كتاب تاريخ السودان
لنعوم شقير

بقلم المرحوم محمد الأمين شريف

ص ٦٨: ذكر عن تاجوج الحمرانية، انها كانت بنت (أكد) - والصحيح أنها (بنت محمد ود علي) وأكد اصلا من اسماء قبيلة الناتياب البني عامرية الذين هم من خؤولة (تاجوج) ويعرف اليوم بهذا الاسم أحد البطون الكبيرة لتلك القبيلة، ومن الملاحظ ان (نعوم) لم يذكر أصل قبيلة الحمران - بينما تضاربت في اصلهم آراء الاخرين من أمثال محمد عوض وعبد المجيد عابدين و«هارولد» من غير ان يصلوا الى الحقيقة بينما أكد كل من المرحوم محمد صالح ضرار والطيب محمد الطيب اللذين زارا المران في وطنهم بأن أصلهم من (الارتيقة) وقد استوثقت في ذلك انا شخصيا بسؤالي الكثير من زعماء الحمران في اوائل الخمسينات عندما طلب إلي الاستاذ محمد صالح ضرار أن امده بمعلومات عنهم وعن تاجوج. وكنت اذ ذاك ناظر مدرسة الشوك - ليُضمِّن ذلك كتابه (تاجوج والمحلق) الذي كان يجري اعداده. وكان من ضمن اكد ذلك الأرباب عمارة ود خالد حفيد الملك نمر المعروف والحمران أخواله وأخوال والده بل اكثر من ذلك وأقوى دلالة - أن كبير مفتش القضارف إذذاك واسمه (وير) قد سأل بحضوري في الشوك ١٩٥٢ - عمدة الحمران الحالي (علي ود

عوض) عن أصلهم ـ فردَّ عليه بأنهم من الارتيقة وقد هبط اسلافنا من سواكن الى (دبت قلال) بنهر أتبرة شمال فوز رجب ثم صعدنا بالتدرج الى (استيت) هذه الإجابة في مذكراته.

ص١٢٤: يقول ان (عيذاب) في مكان جزيرة (رواية) بالقرب من محمد قول ـ والصحيح ان (عيذاب) في شمال حلايب بعيدا من هذا الموقع.

ص١٢٥: الاسم البيجاوي الذي عرَّبه نعوم بلفظ البجاوي (عفافيت) هو في تسمية البجاوية (أفارف).

ص٩٦٣: يلاحظ ان نعوم لم يذكر (الشيخ الجعلي) ولعله كان حديث عهد، وكذلك لم يذكر ادريس ود الأرباب الذي لم يأخذ الطريق عن تاج الدين رغم انه عدّ من فروع القادرية الكبرى في السودان.

ص١٦٤: كبير المجاذيب هو (حمد) الجد وليس الحفيد (محمد) ويبدو ان نعوم كان متأثرا بدور المجاذيب المقردنياب القوي في أحداث المهدية بشرق السودان، ثم الأولى ان يقول بالدامر وليس ببربر.

ص١٦٤: الملاحظ ايضا انه يسمى الطريقة (الختمية) (بالميرغنية) وهذا ليس صحيحا لأن الميرغنية طريقة قائمة بذاتها.

ص١٨٤: عن بعض تجار سواكن لا تعني كلمة (حجازي) العرق دائما وانما الانتماء التجاري او التجسس ـ لأننا نعرف ان مصطفى جيلاني وهو من كبار تجار سواكن من (الأرتيقة) والشناوي من مصر ومحمودين الذي قال عنه من الأهالي هو نقيب اسواق سواكن كانوا (سواكنية).

ص٢٤٣: من أعظم حسنات البجا بجميع قبائلهم أنه ليس من عاداتهم الاصلية شرب الخمر بجميع اشكاله لذا فهم لا يعرفون قط صناعة

(البوظة) بل ويأنفون عنها ويتعززون منها ويعتبرونها عندهم من أعمال الرقيق! ولكن من استوطن منهم في المدن وعاش أهلها تعلم شربها كغيره من الناس ـ وهذا بالطبع ليس بمقياس الاعتبار صنع (البوظة) من عادات البجا ـ وعلى سبيل التأكيد اقول انه حتى الذين تعلموا شربها لا يحاولون أن يعرفوا صناعتها حتى اليوم ولذا لا أدري من اين أتى نعوم بهذا الرأي ـ اما ما ذكره بركهارث أنه وجد شرب (البوظة) في (فلك). فهذا صحيح لأن (فلك) هي عاصمة ناظر الهدندوة فقد كانت أحدى الاسواق التي علمتهم ذلك لأنها كانت مجتمعا كبيرا ولكن بالتأكيد صناعتها كانت من (الخدم) بعيدا عن مواطن فرقان الأحرار.

ص٢٦٦: يقول عن (السلات) بأنها لحم محَّر على الدوكة والمعروف انها شواء عى الحجارة فقط.

ص٣٧٣: في معاهدة ابن الجهم تورد جميع المصادر اسم كبير البجا (كنون ابن عبد العزيز) بينما يورده نعوم (كدون بن عبد العظيم)! النطق البجاوي المضبوط التي اوردها بلفظ (بلوبه كاكا) هو (تِبلوْيِ كَاكَنْ) اي لا اعرف العربية.

ص٣٨٣: ذكر نقلا من مصادر قديمة عبارة «اما ما وراء سواكن الى المندب فهو الجنس السودان يقال لهم (دنكل)» الحقيقة ان ما عرف من ارض (دنكل) يبدأ امتداده على ساحل البحر الأحمر من (ذولا) جنوب مصرع حتى الصومال.

ص٣٩: عن ذرية (الشيخ حسن ود حسونة) رأيات. عن وجودها وعدم وجودها ـ فالطبقات وبعض الرواة ينفون وجودها. وعثمان حمدالله يثبت وجودها ـ فالطبقات وبعض الرواة ينفون وجودها

وعثمان حمد الله يثبت وجودها ويسنده وجود فعلي لجماعة يقولون إنهم من ذريته ويتولون شئون صريحة.

ص٥٩٧ : ذكر « وفيها توفي الشيخ قمر الدين بن الشيخ حمد ود المجذوب» الى أن قال « وهو صاحب طريقة المجاذيب» وهو بالطبع يعني الشيخ محمد بن قمر الدين وليس والده هذا ـ أمّا عن عبارة « وهو صاحب طريقة المجاذيب» فأن صاحبها هو حمد المجذوب وليس الحفيد (محمد) واي أشهر الأخير الطريقة ونشرها في شرق السودان.

ص٥٢٣ : ان بعض التسميات كالبجة والحاسبة والحدارب والتقري البلو لها دلالات ومفاهيم متعددة ومطّاطة ـ ففيها تتداخل الجوانب العنصرية والاجتماعية واللغوية والقومية ـ الا ان المسألة دقيقة جدا ليس في الميسور ادراكها على حقائقها الا للباحث المتعمق من أهل المنطقة نفسها لذا فان تقسيم نعوم لمملكة بني عامر على الأقسام الأربعة المذكورة تقسيم غير دقيق ـ فالبني عامر هو اسم المملكة او القبيلة الشامل الذي ينسحب على جميع الأقسام، وفي حالة التفريغ يوجد فعلا فرع ينفرد باسم (البجا) كعنصر او قبيلة قائم بذاته وفي نفس الوقت تنسحب هذه التسمية في بعض الحالات والظروف على غير هذا العنصر كمدلول اجتماعي او لغوي كما وأنه الاسم القومي لكافة قبائل المنطقة في الوقت الحاضر، اما عن الخاسة فليس هذا هنا عنصر او قبيلة بذاتها تنفرد بهذه التسمية، ولكن كان لها في الماضي ولعله حتى عهد نعوم ـ مدلول اجتماعي يماثل مدلول (البجاوي) ولكن اليوم فمدلولها لغوي فقط اي كل ما يتحدث بلغة الخاسة يسمى (خاساوي) بصرف النظر عن عنصره (أنظر مذكرتي عن صعوبات اللغة البجاوية المحفوظة بدار الوثائق) اما عن الناتياب فهم من قبيلة البني عامر الذين كانوا

يمثلون طبقة النبلاء وفيهم كانت النظارات والرئاسات وهم من اصول جعلية فرع (الشعدنياب) وورثوا سلطة البجا من أخوالهم (البلو) منذ أربعة قرون تقريبًا، (والبلو) هم الذين عناهم نعوم (ببني عامر) كفرع من المملكة وهو يقصد انهم اصحاب الاسم اصلا وهذه مشكوك فيه (أنظر ايضا قبائل البجاليون).

ص٧٤٧: ذكر عن «قباب» بأنه في ضواحي سواكن وكان الاولى أن يقول أنه في ضواحي اركويت او سنكات لأنه يقع في جنوبها.

٨٩٧: صحة اسم «عمر ود الكردي»، الحمراني هي عمر ود الكدوري.

ص٨٩٧: صحة التاريخ في عبارة انهم صالحوا الحكومة ايام موس باشا في ١٨٨٦ هي ان يكون حوالي ١٨٦٤م.

ص٩٠٥: ذكر ان مصطفى علي هدل الأمير المنتدب من قبل الأمير عثمان دقنة الى منطقة كسلا لنشر المهدية فيها هو من الترعاب وهم احد بطون قبيلة المدندوة من الرحم لأن اصولهم في المكابرات الجعليين، وهذا غير صحيح لأن مصطفى علي هدل هو في الارتيقة فرع (الهموشب). وأهله يسكنون اليوم شمال الخشم القربة شرق نهر عطبرة

ص٩٠٧: ذكر عن الأمير عمارة الضاوي انه من البوادر والصحيح في الاسم انه محمد ابراهيم الضاوي والقبيلة من الحمران وليس من البوادرة.

ص٩٠٨: (محمد ولد حامد) هو قريب (محمد موس) بك ناظر المدندوة وليس ابن اخته لزم ثم ان المقصود بموس بك هنا وفي صفحة ٩٠٩ التالية هو محمد موس وليس (موس) نفسه لأنه ابنه الذي تولى امر النظارة بعده وقد توفي موس قبل وصول المهدية الى الشرق.

٩١٠ : صحة كلمة (الميتكناب) هي الملهيتكناب اي اصحاب (الملهيت) وهي منطقة بذاتها كانت تسكنها هذه القبيلة.

ملحوظة: لم اهتم كثيرا للأخطاء المطبعية لأنها لا تعوق الفهم.

مكي الطيب شبيكة ١٩٠٥ - ١٩٨٠

مقدمة:

بعض هذا البحث اعد بمناسبة الاحتفال الذي اقامته جمعية التاريخ بجامعة الخرطوم تكريما للفقيد بمناسبة مرور خمسين عاما على تعيينه مدرسا للتاريخ بكلية غردون. وقد نشر البحث في أربع مقالات متتالية بجريدة الصحافة في مارس ١٩٧٧. وبعضه اعد لتقديم المرحوم لمحاضرة القاها بجامعة الخرطوم عن الوضع الدبلوماسي للنيل وروافده. وبعضه الاخير أضيف بعد وفاته استكمالا.

غير ان مشروع الكتابة عن شبيكة كان قديما في ذهني. فقد اتفق عدد من المؤرخين كان في مقدمتهم المرحوم الدكتور عباس ابراهيم محمد علي على وضع كتاب تذكاري يقدم للدكتور شبيكة قبل تركه الجامعة نهائيا. وكنت في حيرة، اذ كنت ارى احيانا ان اكتب بحثا في جانب يتصل بالموضوع الذي كرس له حياته وهو تاريخ السودان وان اهديه إليه، ثم ارى أحيانا أخرى أن أكتب عن شبيكة نفسه. ثم رأيت اني اهديت إليه كتاب «المرشد الى وثائق المهدي» وهو كتاب نوه الدكتور بأهميته كثيرا، فلا يكون معنى لأن أكرر اهداء بحث آخر إليه. وقد خطر لي ان التعريف به أولى وأنسب.ولذلك استقرت نفسي على بحث عنه.

وقد وقفت على مادة طيبة عن حياته في ملف خدمته المحفوظ بدار الوثائق المركزية كما ان مقدمات كتبه قد بينت لي خلفية دراساته. وكتبه

نفسها كانت دليلا على منهجه في البحث والتأليف. ثم القى الدكتور محاضرة بجامعة الخرطوم يوم تكريمه بعنوان «أنا والتاريخ»، وقد نشرت جريدة الصحافة ملخصا لهذه المحاضرة مع بعض إضافات هنا وهناك. وقد جنيت من المحاضرة ومن ملخصها فوائد كثيرة عاونتني في كتابة هذا البحث. وفي المحاضرة التي القاها بجامعة الخرطوم افتتاحا لسلسلة المحاضرات التي القيت بمناسبة الاحتفال باليوبيل الفضي لدار الوثائق المركزية القى شبيكة مزيدا من الأضواء على حياته العلمية الحافلة.

الاسرة:

ينتمي الدكتور مكي الى قبيلة الرباطاب. وفي الرباطاب الى فرع العبابسة، وموطن أهله أصلا جزيرة مقرات الواقعة في مواجهة مدينة أبي حمد. وكان لجده شبيكة ساقية بها، وهي الساقية التي ضرب المثل بخرابها في دار الرباطاب فيقال هذا الشيء رقد رقاد ساقية شبيكة. وكان شبيكة يعمل بالزراعة في ساقيته هذه كما أنه كان يعمل بالتجارة بين كرسكو وأبي حمد. ولكن يبدو ان تجارته لم تدر كما كان يرجو، والا لما هجرها شبيكة وهجر معها موطنه.

ولما توفي ابن عمه خليفة، وكان مستوطنا برفاعة، ترك قريته وذهب الى رفاعة وتزوج بزوجة ابن عمه هذا. وقد استقر برفاعة نهائيا وامتهن الزراعة وتربية الماشية ولم يعد الى قريته الاصلية مرة اخرى. وقد توفي هذا الجد في ام درمان اثناء المهدية.

وكان الطيب، والد الدكتور مكي، أكبر ابنائه. وقد عاد بعد سقوط المهدية الى رفاعة. ثم هجرها وانتقل الى الكاملين في ظروف غير واضحة. وهناك تزوج بأم مكي واستقر حتى مات.

وأخوه دفع الله كان تاجرا ثريا، وقد أورث مهنته هذه لأبنائه. وهم يملكون الآن مخازن شهيرة للأدوية وأعمالا تجارية اخرى. وأخوه الآخر محمد

كان معلما، وقد استوطن ام درمان. وقد أسهم، فيما روت لي محدثتي، في بناء مدرسة النهضة وفي تأسيس مدرسة الكاملين. وهو أيضا قد ألحق ابناءه بمهنته فصار الطيب والطاهر وابراهيم معلمين مثل ابيهم. وقد شذ عنهم صلاح، وهو قاض كبير. وللطيب بن محمد هذا اتجاهات أدبية. وكانت عنده مجموعة طيبة من كتب الأدب كنا نستعير منها بفضل اريحيته عندما كنا طلبة في مدرسة وادي سيدنا الثانوية، كما كنا نستعير من كتب استاذنا الهادي ابي بكر الذي كان معجبا بالناقد المصري السحرتي وبفضله على العقاد وطه حسين وأحمد أمين ويتوسم فيه وجه التطور والتقدم في الأدب العربي ونقده.

وكان انتقال الجد شبيكة في فترة التركية. وقد شهدت هذه الفترة هجرات واسعة من مناطق الشمال الى اواسط السودان وجنوبه هربا من الضرائب الفادحة وضغط النظام وضيق ظروف الحياة وبحثا عن فرص العمل الواسعة واملا في الثراء الموعود، وقد قدر لهؤلاء المهاجرين وابنائهم من بعد أن يلعبوا ادوارا خطيرة في تاريخ السودان كما قدر لجماعات منهم ان يشتهروا مثل البحارة في الجنوب والجلابة في الغرب والثوار من امثال المهدي وابي قرجة والنور عنقرة والزبير رحمة. وهؤلاء يملأون الصفحات من تاريخ السودان. ولكن اين غير هؤلاء وأين الذين بنوا الخلاوى والذين اقاموا المساجد. وأين الذين طافوا المجاهل على دوابهم يحملون متاع التجارة في الاكياس والاخراج ويحملون معها كتاب الله وما اوتوا من علم وخبرة وتبصر بأمور الحياة. وأين الذين عمروا القرى ودفعوا بالزراعة الى الامام. وأين تأثير هذه الهجرة عموما وتموجات السكان في مسار تاريخنا؟ ان تأثير الهجرة جملة وتأثير المهاجرين في مواقعهم المختلفة في عملية بناء السودان وتكوينه وفي تعميره لم يوضح الى الآن بصورة مرضية. قد يكون هناك ذكر لبعض المهاجرين، وقد يكون هناك استطراد في ذكر بعض مواقفهم، ولكن لم يقع لي فيما طالعت من كتب دراسة جادة لهذه الظاهرة وما كان لها من أثر في حياتنا وفي تكوين السودان البشري والحضاري.

وكانت رفاعة التي انتقل اليها الجد موطن خليط من الناس وفدوا من جهات مختلفة وكونوا مجتمع ترابط ووئام. وكانت الكاملين التي انتقل إليها الأب من بعد هي البقعة التي أنشأ بها أحمد باشا ابو ودان، حكمدار السودان في عهد محمد علي والذي مات بالخرطوم في ظروف مريبة، ابعادية واسعة، أو قل مشروعا زراعيا بمفهوم اليوم، وزرع فيها محصولات متنوعة واقام بها المصانع لانتاج الصابون والسكر والنيلة والعرقي. وقد اتت هذه الاعمال بجماعات وافدة ايضا.

الدكتور مكي اذن ابن اسرة مهاجرة. ولا بد ان يؤخذ اثر هذه الهجرة لفهم جذوره وخلفيات دوره. وقد استوطنت الاسرة في اواسط السودان غير بعيد عن الخرطوم عاصمة الادارة التركية المصرية وهم بخلاف الذين هاجروا الى الاصقاع البعيدة كالجنوب والغرب والتي اصبحت مسرح المغامرات وموطن الثورات ومهد الاضطرابات. ان اسرة شبيكة قد انضمت الى مهاجرين كان لهم دور يختلف عن دور هؤلاء المغامرين الثائرين، وهم المهاجرون الذين باشروا الحياة المستقرة الهادئة وامتهنوا الزراعة والتجارة واندمجوا مع الناس صنوا بصنو واسهموا في حركة العمران.

وقد استقرت الاسرة في مبدأ الامر في بقعتين، ليستا في عداد المدن فيعد ابناؤها من اهل المدن، وليستا في عداد الريف فيصبح ابناؤها من أهل الريف. وانما كانتا وسطا بين الريف وبين المدينة، أو كما قال توفيق صالح جبريل عن الدامر:

ايا دامر المجذوب لا أنت قرية ‍ ‍ ‍ بداوتها تبدو ولا انت بندر

هذه الوسطية مهمة اذا ما أخذنا تأثيرها على الناشئين بها. وكان مجتمع البقعتين مجتمع الخليط من الناس لا المجتمع الذي تغلب فيه قبيلة او يهيمن على امره عنصر معين. ومن شأن مثل هذا المجتمع أن يكون ابناؤه وسطا فلا يميلون ميل الهوى والتحزب. وقد كانا من المراكز الاولى للانصهار كما كانا من نقاط الوثب الحضاري. كانت احداهما نقطة الوثب الاولى للزراعة الحديثة

في اوائل العهد التركي على يد أحمد باشا وكانت الاخرى نقطة الوثب لتعليم البنات. والى هذا اليوم تقود رفاعة حركة التعليم وتسهم فيها بقدر وافر بفضل مدارسها وبفضل ابنائها.

ثم انتقلت الاسرة الى العاصمة واتخذ ابناؤها مهنا حضارية كالتجارة والتعليم ولحقوا بذلك بأهل المدن كلية بعد ان كانوا في نقطة الوسط.

نشأته:

لقد ولد مكي الطيب شبيكة بالكاملين في سنة ١٩٠٥ ودرس في المدرسة الاولية بها. وكان ابوه قد فجع بوفاة أخيه الاكبر يوسف الذي مات بداء السحائي وهو في المدرسة الوسطى. وقد غلبت عليه ابوته الحميمة فرأى الا يذهب مكي الى المدرسة الوسطى وفضل ان يلحق بمدرسة الحياة. وكانت لمكي تجربة من قبل في السعي والتجارة، اذ كان هو والصبية يذهبون الى الحقول ويجمعون مما تركه المزارعون عدة زكائب من الفول السوداني ويبيعونها. وقد ساعدته هذه الخلفية في العمل التجاري وشجعته فأقبل على التجارة بجد وحرص. ويروي مكي أنه كان ناجحا وراضيا بجهده وبما يجني منه. وهو ذكر أنه وفق في نوبة من نوبات التجارة فجمع كمية وفيرة من الذرة من منطقة المناقل وأتى بها الى الكاملين وباعها وجنى من ورائها ربحا.

ولكن الاقدار تأتي برجل عظيم من رجال التعليم وهو بابكر بدري، هذا الرجل الذي يدين له التعليم في السودان بفضل عظيم وتدين له كل امرأة خطت حرفا بفضل اعظم، فيلح على أبيه حتى يقنعه بارسال مكي الى المدرسة الوسطى. وقد كتب الأب الى اخيه محمد والذي كان كما قلنا يعمل في حقل التعليم فوافق على الأمر وشجعه. وهكذا عاد مكي الى الدراسة. وهكذا تشاء الاقدار ان يتحول مجرى حياة مكي من تاجر صغير في الكاملين يتاجر في البن والبلح والفول السوداني الى استاذ أجيال متلاحقة من الزملاء والابناء والأحفاد والى مؤرخ يترك بصماته غائرة وأثره خالدا في تاريخ التأريخ في بلادنا.

التحق مكي بكلية غردون التذكارية بالقسم الأوسط ولما أكمل تعليمه الأوسط انتقل الى ما هو أعلى وهو القسم الثانوي، وكان من قدره ان يكون بقسم المدرسين. وبينما هو في أول السنة الرابعة يلعب القدر دوره مرة اخرى فيمرض بارودي افندي الذي كان يدرس التاريخ ويتعذر عليه ان يقدم من بلده لبنان الى الخرطوم. ولما لم يكن الوصول الى بديل من الخارج متاحا في تلك الظروف فقد استقر الرأي على تعيين أحد طلبة السنة الرابعة. وقد وقع الاختيار على مكي باعتباره أكبر تلاميذ الصف سنا واحسنهم تحصيلا واعتبر كما لو أكمل المرحلة الثانية وقيل انه سوف يعد دروسه بمعاونة المستر لين مدرس المنهج. وبالفعل عين مدرسا في المجموعة السابقة بمرتب سنوي يبلغ ٩٦ جنيها. فانظر بربك الى هذا المرتب وانظر الى الفرق بين ما كان وبين ما هو كائن الآن.

استاذ التاريخ:

كان تعيين مكي اعتبارا من ١٥ يناير ١٩٢٧ فيما يقول ملف خدمته أو ١٨ يناير فيما قال هو في مقال نشر بجريدة الصحافة.

ومن الطريف أن مكي ظل يذكر في الاستمارات الرسمية أنه مكمل للثانوية، وهو اعتبار اعطي له بواقع التقارير الرسمية. وكان من الممكن ان يتفادى هذه النقطة لولا امانته ودقته. وغيره كان يهمل هذا الباب من الاستمارة للتحرج أو كان يقول أنه حاصل على الشهادة خصوصا وهو يحمل من الشهادات أرفعها. وكان أيضا يبين في الاستمارات امام الجنسية أنه رباطابي. لا سوداني، وكان من عادة الجميع في تلك الايام بيان القبيلة امام الجنسية لأن الوحدة الاجتماعية المهمة كانت القبيلة ولأن المقصود بهذا البيان هو الانتماء الى الوحدة الاجتماعية لا الانتماء القومي. وطريفة ثالثة أنه لقب بلقب الشيخ في أوائل خدمته. وكان يلبس القفطان والجبة فلما تركها وتحول الى الزي الاوربي أضحى شبيكة أفندي جريا على عادة تلك الأيام ايضا.

وبعد خمسة أشهر من تعيينه انتقل الى المدارس الوسطى، لأن تعيينه في الكلية كان مؤقتا، فدرس في مدرسة الخرطوم لنصف عام ثم في مدرسة ام درمان لعامين ثم عاد الى مدرسة الخرطوم ليدرس بها لنصف عام. ثم نقل الى مدرسة بربر وبقي بها سنة دراسية كاملة أي حتى ٢٢ أغسطس ١٩٣٠. وبينما هو في بربر اختير للالتحاق بالجامعة الامريكية ببيروت. ومن أواخر ١٩٣١ حتى أواخر ١٩٣٥ تلقى دروسه في هذه الجامعة. وقد نال فيها الشهادة الجامعية .B.A وكان معه في هذه الدفعة الاستاذ نصر الحاج علي مدير المعارف ومدير جامعة الخرطوم فيما بعد. وكان قد سبقهما عدد من الخريجين. ثم ذهب من بعدهما عدد آخر. وقد جاء في تقرير ان اداءهما في الجامعة قد فاق اداء كل من سبقهما.

عاد مكي الى السودان وتسلم عمله اعتبارا من أول اكتوبر ١٩٣٥ بمستوى نائب ناظر مدرسة وسطى بالدرجة G.H.1 وقد التحق على التو بالقسم الاوسط بكلية غردون منتدبا من المعارف في وظيفة «متخصص تاريخ» وأوكل إليه تدريس هذه المادة، ومع ذلك فأنه درس الرياضة للسنة الاولى لفترة. وقد بقي على هذه الصفة حتى نهاية ١٩٤٢.

وقد جاء في تقرير عن ادائه أنه من خبرة أساتذة مصلحة المعـارف «ويليـق به ان يعمل بالمدارس العليا وأنه يميل بطبعه الى البحث والدراسة وله اتجاهات واسعة. انه محبوب بين الطلبة وبين الاساتذة لما جبل عليه من التعامل الحسـن».

وجاء في تقرير آخر (أنه اثناء عمله كمدرس للتاريخ قد أظهر رغبة أكيدة ومخلصة في الأبحاث التاريخية. وانه لائق لعمله من حيث الاتجاه ومن حيث المقدرة وقد تملك الخبرة المطلوبة من واقع البحث)..

وفي أول ١٩٤٣ أصبح محاضرا للتاريخ والتربية الوطنية بمدرسة الآداب العليا وبعد عامين يشيد المستر اسكوت بعمله ثم يعقب بضرورة بقائه بمدرسة الآداب العليا لانه يريد شخصا يعرف اللغة العربية ويستعين به في تدريس

الوثائق العربية، وهو تقدير صائب، لان مكي انجز أعماله الأولى معتمدا على الوثائق العربية.

وفي صيف ١٩٤٣ توجه الى القاهرة في عطلته وقضى بدار الوثائق المصرية وكانت عندئذٍ بقصر عابدين، تسعة وأربعين يوما. وقد عاد اليها مرات في عطلاته السنوية.

وفي ١٩٤٧ حصل على منحة من المجلس البريطاني لمدة عامين، ثم مدت المنحة لفترة حتى يكمل بحثه. وكان التحاقه بكلية بدفورد بجامعة لندن تحت اشراف الاستاذة المشهورة لينيان بنسون والتي اضحت قبل أن يكمل مكي بحثه مديرة للجامعة وقد عاد من هذه البعثة وهو يحمل شهادة الدكتوراه في فلسفة التاريخ، وهو أول سوداني يحصل على هذه الشهادة في هذه المادة، وهو ان لم يخني حدسي أول سوداني حصل على الدكتوراه اطلاقا.

عاد مكي الى الكلية وقد بدأت تخطو نحو الكلية الجامعية..

وفي يوليو ١٩٥١ ترقى الى استاذ مشارك Reader وأذكر ونحن في السنة الأولى أن دخل علينا الاستاذ ثيوبولد، وكان يدرسنا التاريخ، وابلغنا بهذه الترقية مهنئا ايانا بها، ولكننا لم نكن نعلم خطر هذه الترقية ولا وزنها بالنسبة لاستاذ سوداني يعمل بين اساتذة أجانب ويتنافس معهم بواقع العمل والإنجاز.

وكانت خطوات مكي في الخدمة تسير على خطين فهو يخطو ويترقى بواقع عمله العلمي بالكلية. وهو في نفس الوقت يتبع الى المعارف. وقد انتهت هذه الازدواجية في ١٩٥٢ عندما قرر الحاكم العام بناء على توصية لجنة الخدمة شطبه من كشف المعارف نهائيا بعد ترقيته مع الموظف الذي يليه في كشف المعارف.

وفي يوليو ١٩٥٥ بلغ درجة الاستاذ اي البروفسير، وهو أول سوداني يبلغ هذه الدرجة. وقد بلغها عن جدارة واقتدار. وفي نفس الوقت صار عميدا لكلية الآداب وهو أيضا أول سوداني يتولى عمادة الكلية في الجامعة...

وفي ديسمبر ١٩٥٩ أحيل الى المعاش. ومن ثم ذهب الى المناقل حيث يملك ارضا آلت إليه من ارث ابيه وأصبح مزارعا في المشروع إضافة الى توكيل طلبة بنزين وجاز في ٢٤ القرشي. وكان يفكر في هذه الفترة في انشاء مزرعة للدواجن غير أن هذا المشروع لم ير النور.

أجل عاد مكي الى الريف بعد أن قضى هذه الفترة الطويلة في المدينة وعمل في أرقى مراكز العلم في بلادنا. وقد استطاع ان يندمج في مجتمع المزارعين لتواضعه وبساطته وخلفية صباه في الريف. وهو يقول إن تجربته هذه قد أعطته حصيلة عملية عظيمة فضلا عن انها درت له عائدا طيبا من المال. ولعله لهذا السبب كان يرجو ان يعود الى الريف مرة اخرى بعد ان ينتهي عقده مع الجامعة نهائيا.

وفي أغسطس ١٩٦٢ عاد الى الجامعة استاذا مشرفا على الدراسات العليا وعميدا لكلية الآداب. وقد توثقت صلاتي به في هذه الفترة وعرفت امانته ودقته ودأبه، وكان وهو الاستاذ المشرف الذي ينبغي ان يذهب إليه الطالب يأتي الى حيث اعمل مرارا في الاسبوع ليرى ما قمت به وكان يشجعني وينظر فيما أعد ويراجع الحوادث والشخصيات والتواريخ بدقة كانت تثير اعجابي. وكنت طامحا في أول أمري، طموح الشباب بتحويل رسالتي من الماجستير الى الدكتوراه ولكنه ابى ان ينظر في التحويل وأصر على موقفه حتى اقتنع من واقع البحث وتأكد من مستواه بعد ان كتبت الطرف الأكبر من الرسالة وقرر تحويله. فله شكري على هذه التربية فوق شكري على التدريب.

وفي اغسطس ١٩٦٩ التحق بجامعة الكويت استاذا للتاريخ ومشرفا على الابحاث التاريخية. وقد فتحت له هذه المناسبة بابا جديدا فعالج البحث في تاريخ الجزيرة العربية والخليج العربي معتمدا على الوثائق البريطانية التي رجع إليها في دورها بلندن..

وفي ١٩٧٤ عاد الى السودان ومنحته جامعة الخرطوم زمالة الجامعة ووظيفة الاستاذ المتمرس emeritorus على عهد صنوه في العلم والمكانة استاذنا الدكتور

عبدالله الطيب. وقد انتهت زمالته في الجامعة في سبتمبر ١٩٧٧.

وقد أوكلت إليه منظمة اليونسكو الاشراف على مجلد من المجلدات التي ستصدره المنظمة عن تاريخ افريقيا، ويشترك معه في هذا العمل عدد من اساتذة الجامعة هذا بالإضافة الى بحوثه الخاصة.

وفي ٩ يناير ١٩٨٠ توفي إلى رحمة الله.

في العمل الوطني:

ان الشهادة الرفيعة التي حصل عليها في جامعة بيروت قد وضعته في مكان مرموق بين الخريجين. وقد اضاف إليه عمله في كلية غردون بريقا. ثم أن طيب معشره وعدم تحزبه وبعده عن الغلو وحسن تعامله مع الجميع قد أوجد له رصيدا عظيما من الشعبية بين الخريجين. ولما بدأ العمل في انشاء مؤتمر الخريجين كان مكي في مقدمة العاملين. وقد اختير عضوا في اللجنة التمهيدية للمؤتمر والتي كونت في ١٩٣٨. وهو الذي قدم للمؤتمرين لوائح المؤتمر ونظمه نيابة عن لجنة خاصة وكان عضوا في اللجنة الستينية وفي اللجنة التنفيذية من ١٩٣٩ الى ١٩٤٢ وكان في كل انتخاب يفوز بأصوات ضخمة، وقد قدرت المخابرات ان فوزه الكاسح يرجع الى تأييد الشباب له. ولما اختلف الخريجون حول كيفية التعاون مع الاذاعة اثناء الحرب وسقطت اللجنة القائمة واختيرت لجنة جديدة من جراء هذا الاختلاف كان هو مندوب اللجنة الجديدة للتفاوض مع الحكومة حول شروط تعاون المؤتمر مع الإذاعة. وقد وفق في الوصول الى اتفاق مرض. وبعد ست سنوات من العمل ابتعد مكي عن قيادة المؤتمر بعدا بنفسه عن التحزب والتطاحن.

وكان رغم عدم تحزبه يميل الى الختمية ويؤمن بقيادة السيد علي السياسية. وكان اتحاديا يؤمن بالاتحاد بين مصر والسودان. وقد نشر في جريدة الرأي العام في النصف الاول من ١٩٤٦ سلسلة من المقالات بعنوان لماذا انا اتحادي وامهره بقلم اتحادي كبير. ثم وجه خطابا في سنة ١٩٥٣ على صفحات الرأي

العام الى السيد علي بعنوان «قُدْ السفينة» وهو العنوان الذي حوله استاذنا محمد توفيق أحمد الى (قِدْ السفينة) وجعله نكتة سياسية في الصميم حسب اتجاهه. وكان موضوع الخطاب انتساب جماعات سياسية متعددة ومختلفة الى السيد علي وادعاء كل جماعة أنها حائزة على موافقة السيد وتأييده. وبعد معركة انتخابات برلمان الحكم الذاتي وقبل أن تعلن النتائج وجه مكي خطابا الى اعضاء هذا البرلمان طارحا فيه رأيه السياسي وهو أن يتم استقلال السودان أولا ثم يعقب ذلك اتحاد بين البلدين مصر والسودان. ولعل مكي كان يريد بذلك ان يثبت ذاتية السودان والتي كانت موضوع دراسته من فجر التاريخ، ثم ان يحقق بالاتحاد بين البلدين المستقلين الروابط الأصيلة التي تقصاها في بحوثه من واقع الماضي والمصالح القوية المشتركة التي يراها من واقع الحاضر. وهو في ذلك يختلف عن اتحادي آخر هو توفيق صالح جبريل الذي كان يتصور الاتحاد اغنية سماوية ويرى الرابطة وصلا شاعريا يتمثل فيه دلامي كأنها أسوان وكسلا وكأنها دمياط. ان توفيقا لم يفكر في صيغ السياسة كما فعل مكي ولا وضع برنامجا لما يعتقد ولا نظر في تفصيل ما نبض به قلبه، بل كان يكفيه الوحي بالاتحاد وما وراء الوحي هو خروج الانجليز...

ومع أن مكي كان ختميا أو كان على الأقل على صلة بقيادتها ومع أنه كان اتحاديا في اتجاهه السياسي، فإنه لم يظهر في دراساته ميلا الى أي طرف ولم يمالئ لغرض أو هوى بل ظل مستقلا برأيه ويترك الحرية لنفسه ليصل الى الحقيقة التي يرجوها هو وينتظرها قارئه من واقع الوثائق وثبت الحقائق..

مؤرخا:

بدأ مكي يتعشق التاريخ منذ فترة مبكرة من حياته وقد روى هو أن اول عهده بالتاريخ كان يوم وجد كتاب نعوم شقير في تاريخ السودان وجغرافيته بمنزل عمه محمد شبيكة بالكاملين. وقد درس التاريخ في المدارس مثلما يفعل أترابه. ثم اصبح مدرسا للتاريخ قبل أن يكمل منهج قسم المدرسين بالكلية

وظل يدرس التاريخ حتى ذهب الى بيروت. وهناك درس التاريخ على الاصول الجامعية الصحيحة وأصبح مؤهلا للبحث المستقل عن كتب المناهج.

وقد التقى في بيروت بالاستاذ اسد رستم صاحب «مصطلح التاريخ» والذي كان يبحث في حقبة محمد علي باشا في الشام بين ١٨٣٠ و١٨٤٠ ويرتاد دار الوثائق المصرية ويقف على وثائقها. وقد عرف منه شبيكة وجود هذا الكنز الذي كان يرعاه الملك فؤاد وعرف فرص البحث القائم على الوثائق.

ذهب مكي الى القاهرة في مايو ١٩٤٣ بغرض الوقوف على الوثائق الخاصة بالسودان والاستفادة منها في تدريس التاريخ: وقد ذكر هو ذلك صراحة في مقدمة «السودان في قرن» وفي مقدمة «تاريخ ملوك السودان» كما ذكره ايضا في تقرير رفعه الى ادارة الكلية عن عمله بالقاهرة. ولسنا ندري لو كان يفكر ايضا في وضع الدراسات ونشرها اضافة الى اعداد المحاضرات. وعلى اي فقد كرر مكي ذهابه الى القاهرة في عطلاته السنوية وارتاد دار الوثائق المصرية بقصر عابدين وقرأ الوثائق المتعلقة بالعهد التركي في السودان وقام بنقل مجموعة مختارة منها. وهو يقول في خطاب الى سكرتير لجنة المشاريع بالكلية في ٢٠ اغسطس ١٩٥٠ أنه قام رغم اعتلال صحته بنقل المجموعة وأنه أعدها للنشر عن طريق الرونيو أو الطبع وابلغه بأنه سوف يقوم بتحقيقها عندما تسمح صحته.

وأذكر اني وقفت على هذه المجموعة واطلعت على عدد من وثائقها. وكانت عندئذٍ بمكتبة جامعة الخرطوم. فلما عدت إليها بعد سنوات لأتحقق من سياسة العهد التركي إزاء وظيفة الأرض وما يتعلق بتملكها والانتفاع منها لم أجدها حيث كانت. وقد علمت من صاحبها أنها معارة لأحد الاساتذة فتطمئن نفسي اذ أعلم أن هذا الاستاذ يقوم جادا ببحث في القانون، وأعلم فوق ذلك أنه سوف يعيد المجموعة الى حيث كانت بعد أن يفرغ منها.. وفي دار الوثائق المصرية وقف على رسالة من غردون عن كتاب «تاريخ ملوك

السودان، ثم وجد في دار الكتب المصرية نسخة من هذا الكتاب والذي وقف على نسخ منه في الخرطوم. وهذا الذي دعاه الى الاهتمام به، وقد اهتدى إلى أن هذا الكتاب هو اساس ما يعرف عن تاريخ مملكة الفونج.

وقصة هذا الكتاب تبدأ بأحمد كاتب الشونة الذي وضع الطرف الأكبر منه أي حتى عهد احمد باشا أبو ودان ثم جاء الزبير ود ضوه واضاف الكلام عن الادارة المصرية حتى عهد موسى حمدي. وقد نظر الزبير فيما كتبه أحمد فهذب اسلوبه واضاف إليه اضافات واسقط منه ما شاء أن يسقط ولخص حيث ظن أن التطويل لا يفيد، بل أنه عارضه في بعض المواضع. ثم نظر فيه ابراهيم عبد الدافع فهذب نسخة الزبير وأضاف إليها كلاما يتصل بوالد الزبير. وقد اكتفى بهذا الجهد ولم يضف شيئا الى لب الكتاب. وكان آخر من نظر الأمين الضرير الذي اضاف الطرف الذي يتعلق بفترة جعفر مظهر باشا وممتاز باشا ورفع أسلوب الكتاب الى رصانة اكثر. وفي ظني أن وراءه أيضا شخصًا آخر هو القاضي السلاوي الذي كان محور نشاط ثقافي كبير وقد ذكرت طرفا من ذلك في مقدمة تحقيق شرح السلاوي لارجوزة ابراهيم عبد الدافع التي جمع فيها اعلام طبقات ود ضيف الله ومن جاء بعدهم من الاعلام، وهو تحقيق يشترك فيه معي صديقي البروفسير يوسف فضل حسن.

لقد نظر مكي في هذا الكتاب وراجع نسخه المختلفة، وهو الذي أهتدى الى التاريخ الذي سردناه وبين تعاقب كتابه. والتحقيق الذي نشره يتميز بالدقة. وهو يورد النص اولا في ٣٩ صفحة ويلتزم بحرفيته ولكن دون ان يذكر اي نسخة اعتمد وان كنا نظن انه اعتمد نسخة دار الكتب المصرية بحكم مناسبة التأليف. ثم يورد تعليقاته بعد ذلك في ٣٣ صفحة، وقد اورد هنا معلومات وبيانات من واقع دراساته ومن واقع الوثائق التي وقف عليها. اما خلاصة التحقيق وما يتصل بالتأليف والنسخ الخطية وخطر الكتاب نفسه كمصدر للتاريخ وكيف كان أخذ المؤرخين له فقد بينها في مقدمة تبلغ ١٥ صفحة.

وقد طبع الكتاب بمطبعة ماكوركوديل ونشر في ١٩٤٧. ويبدو من غلاف الكتاب ان المسئولين بالكلية كانوا يؤملون اصدار مجموعة من المطبوعات. فالغلاف يتصدره هذا العنوان: مطبوعات كلية غردون التذكارية بالخرطوم، وهو اعلان عن مطبوعات قادمة. ثم يأتي بعده أنه الكتاب الأول في التاريخ مما يعني تنوع المطبوعات وترقب كتب اخرى في التاريخ. وكان هذا اول كتاب يطبع لمكي، بل أول تحقيق علمي يقوم به سوداني، كما كان أصله بالتوافق أول كتاب في التاريخ يخطه سوداني.

وفي ١٩٤٧ حمل مكي مذكراته وذهب الى بربر وهناك وضع كتابه المشهور والمهم: السودان في قرن ١٨١٩- ١٩١٩. ويقع هذا الكتاب في اربعة أطراف. أما طرفه الاول فيتعلق بالفترة السابقة للفتح المصري، أي بعهد الفونج وقد استعان فيه بمادة تاريخ ملوك السودان. ويبلغ ذلك ١٢ صفحة. والطرف الثاني خاص بالعهد التركي، وهو يبلغ ١٢٥ صفحة، وهو انجاز علمي بالغ الأهمية لانه يعتمد على الوثائق الاصلية التي وقف عليها بالقاهرة فضلا عن الاستعانة بكتب الرحالة وتاريخ ملوك السودان والمصادر الاخرى. وفي ظنّي ان شبيكة اعطى هنا صورة منضبطة عن هذا العهد بعيدا عن شطط الرحالة ومبالغات المؤيدين والمعارضين على السواء. وقد اعتمد في طرفه الأخير على تقارير مخابرات الجيش وعلى روايات المعاصرين.

أما الطرف الثالث فقد خصص لفترة المهدية، ويبلغ ذلك ١٣٤ صفحة، أي أنه اطول الاطراف. وقد اعتمد فيه مكي على اوراق المخابرات وما دونه المشاهدون والكتب التي صدرت بالعربية والانجليزية على اختلاف اتجاهاتها ونزعاتها وعلى الاوراق التي جمعها السيد عبد الرحمن المهدي وعلى روايات المعاصرين وعلى أبحاث طلبته. وهذه المصادر لم تكن جديدة، فقد وقف عليها كلها نعوم شقير من قبل ما عدا اوراق السيد عبد الرحمن المهدي وبعض الروايات، ولكن الجديد في الأمر هو أخذ مكي لهذه الفترة من وجهة نظر

تاريخية بحتة بما لها وما عليها. كان ذلك أمرا جديدا ولعلنا نرجع الى هذا فيما بعد.

وفي الطرف الرابع كتب مكي عن العهد الثنائي حتى عام ١٩١٩. وهذا الطرف يبلغ ٧٤ صفحة. وقد اعتمد فيه على اوراق الفتح وتقارير الحاكم العام وجملة من الوثائق التاريخية كانت مودعة بمكتبة الكلية..

اما في المقدمة فقد بين تاريخ البحث وقصة تعامله مع الوثائق ومع الحقائق.

إن كتاب السودان في قرن «كتاب اساسي لأن مؤلفه عرض تاريخ قرن كامل بأمانة ودقة وباتجاه في التأليف لم يكن معهودا في موضوعه. وهو أساسي من جهة أخرى لأن صاحبه كان متعلقا به، ولانه كان نقطة البدء لبحوث أخرى..».

ونذكر هنا أن لجنة جوائز الملك فاروق، كانت ترسل السودانيين في بعثات الى اوربا على نفقة الحكومة المصرية، وقد وقفت على الكتاب أثناء استعراضها للتأليف العلمي في موضوع التاريخ ورأت أنه مستحق للتقدير. وكانت بسبيل ابعاث مكي الى الخارج على نفقتها لولا أنها علمت أنه في بعثة في انجلترا. وقد اكتفت بان اخطرته بتقديرها ونواياها. ونذكر ايضا أن كاتبا مصريا كان قد نشر مقالا عنه في مجلة الرسالة ونوه به وقرظه. وذلك أمر لم يكن مؤاتيا الا للقليل من المؤلفات. وقد نوهت نفس المجلة بكتاب الطريق إلى البرلمان للمرحوم اسماعيل الأزهري.

وفي الفترة من ١٩٤٧ الى ١٩٤٩ ذهب مكي الى لندن وانتسب الى جامعة لندن تحت اشراف الاستاذة المشهورة لينيان بنسون. وكان الهدف من البعثة هو الوقوف على الوثائق البريطانية المتعلقة بالسودان بغية الاستفادة منها في التدريس، غير ان الاستاذة بنسون وجهته الى أن يكون بحثه لنيل الدكتوراه وبالفعل وضع مكي رسالته وكانت بعنوان «السودان في عهد الثورة المهدية

١٨٨١- ١٨٨٥ » أي أنه ركز هنا على الطرف الثالث من كتابه السالف...

نشر « السودان في قرن » في ١٩٤٧. ثم وضع رسالته عن الثورة المهدية في ١٩٤٩. ثم جاء كتابه « السياسة البريطانية في السودان ١٨٨٢- ١٩٠٢ » وهو بالانجليزية ويأخذ هذه السياسة من بدء التدخل الانجليزي في مصر ويقف بنهاية الوثائق المتاحة..

وأساس هذا الكتاب هو رسالته الجامعية والتي تكون الفصول التسعة الاولى. اما الفصول الستة التالية فهي فصول إضافية عن حماية النيل من التغول الفرنسي والايطالي، ويقع ذلك في فصلين، وعن حملة الفتح في فصلين وعن حادث فشودة في فصل واتفاقية الحكم الثنائي في فصل. وهذه الفصول الاخيرة جمعت مادتها من الوثائق التي اطلقت للدراسة بعد استكمال رسالته، فهي اذن مواصلة اصلية للدراسة وليست مجرد ملحق..

ثم جاء كتاب « السودان المستقل » بالانجليزية والذي نشر في ١٩٥٩. وأساسه كتاب السياسة البريطانية. ثم اضيفت إليه فصول ثلاثة عن العهد التركي وعهد المهدية. وبناء على اقتراح المستر سبللر أضاف مقدمة عن تاريخ السودان القديم حتى الفتح المصري. ثم اضاف بعض الفصول عن العهد الثنائي. وبذلك صار تاريخه شاملا من القديم حتى الاستقلال. وقد نبه مكي قارئه، على عادته، الى كل ذلك وبين بوضوح ان الطرف الذي ارخه من واقع الوثائق هو ما يتعلق بالفترة ما بين ١٨٢٠- ١٩٠٠..

ويبدو ان هذا الكتاب قد أوحى إليه بأن يضع مؤلفا في نفس الموضوع باللغة العربية لان فكرته تماثل فكرة « السودان عبر القرون » والذي صدر عن لجنة التأليف والنشر بمصر. ويقول مكي في مقدمة الطبعة الثالثة من مؤلفه هذا أنه شاء أن يترك السودان في قرن كما هو لأنه اكتسب شخصيةخاصة بعد أن طبع ثلاث مرات واراد أن يضع مؤلفا شاملا يأخذ تاريخ السودان حتى استقلاله.

واذا ما رجعنا الى الكتاب فانا نجد ان ركنه الاساسي هو «كتاب السودان في قرن». فقد ضمنه الوثائق التي كشفت في دور الوثائق وعدل فيه هنا وهناك وفي ظني ان التعديل لم يكن الا طفيفا وأنه لم يكن الا في طرفه الأخير. اما ما اضافه على السودان في قرن فعدة فصول: فصل عن تاريخ السودان القديم والعهد المسيحي فقد كتبه اعتمادا على مؤلفات آركل ومحاضرات الاستاذ المصري فوزي جاد الله الذي كان يدرس التايخ القديم بكلية الخرطوم الجامعية ومذكرات الطلبة، وفصل عن العروبة والاسلام كتبه اعتمادا على كتاب الاسلام والنوبة في القرون الوسطى للاستاذ مصطفى مسعد. وفصل عن الفونج وعهدهم اعتمد فيه على كتاب مملكة الفونج بسنار لكروفورد وكتاب تاريخ ملوك سنار وما إليها من المصادر المعروفة. ويبلغ ذلك كله ٩٢ صفحة ترد في اول الكتاب.

ثم يرد بعد ذلك «السودان في قرن» مضمنا. ثم يليه فصل عن الفترة من ١٩١٩ الى ١٩٣٩. وقد استعان فيه بكتاب السودان المستقل وكتاب تاريخ السودان الحديث لهولت ومذكرات المرحوم الدكتور جعفر محمد علي بخيت عن اوراق كرومر. ويبلغ هذا الطرف ٢٥ صفحة.

وهكذا يكون السودان عبر القرون حصيلة مؤلفاته السابقة مضافا إليها بعض أطراف ليست من صلب بحوثه ويكون الصنو العربي لمؤلف السودان المستقل الذي صدر بالانجليزية..

ثم يضع بعد ذلك كتاب تاريخ شعوب وادي النيل، مصر والسودان، في القرن التاسع عشر. وهو مؤلف ضخم. وتبلغ صفحاته ٧٩٠ صفحة. وقد صدر عن دار الثقافة ببيروت في مايو ١٩٦٥. وهو كتاب فيما يقول موجه على غير عادته، الى وجهة خاصة وهي حكم وتسلط محمد علي وأسرته على شقي الوادي ثم احتلال الانجليز وتسلطهم من بعد على البلدين والثورتان العرابية والمهدية والموجهتان ضد اسرة محمد علي. وقد ركز فيه «على ما قامت به شعوب وادي النيل من مقاومة وما نزل بها من ظلم» معتمدا على الوثائق.

ومع أن هذا الذي بينه في المقدمة يحمل طابعا عنيفا قد ينكب به فانه مضى في تأليفه على منهجه الهادئ الصبور ولم تخذله امانته التاريخية ولا دقته في التقصي...

والكتاب في حد ذاته طريف لأنه ربط بين تاريخ مصر وتاريخ السودان ربطا عضويا. وهذا ما نراه لأول مرة، لأن المؤرخين من قبله اما متخصص في السودان ويأخذ تاريخ مصر عرضا واما متخصص في تاريخ مصر ويتعرض الى تاريخ السودان استطرادا. أما هنا فالتاريخان متداخلان بل هما تاريخ واحد. المسرح واحد. ومن يعتليه يلعب في هذا الطرف ويلعب في نفس الوقت في الطرف الآخر بقدر ما يتطلبه الدور. وكأني اقول لمن يأخذون على الادارة الخديوية بمصر ويرمونها بالعظائم ثم يستنكرون الثورة عليها في السودان: أنظروا. ليس ذلك فحسب بل إن فكرة الرواية واحدة وهي تسلط اسرة محمد علي والانجليز من جانب وهبات شعوب الوادي ضد هذا التسلط من جانب آخر..

وقد اصدر ايضا دراسات متفرعة هي في الواقع محاضرات القاها. منها محاضرة (الخرطوم بين المهدي وغردون) والتي نشرتها لجنة الدراسات الإضافية بجامعة الخرطوم وكتاب «مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط» الذي قام بنشره معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة و«مملكة الفونج الاسلامية» ثم السودان والثورة المهدية «الذي يقع في اربعة اجزاء صدرت عن دار النشر بجامعة الخرطوم وأصل ذلك محاضراته لطلبته وما أضاف إليها من «المرشد الى وثائق المهدي» لصاحب هذه السطور ومن سعادة المستهدي لاسماعيل الكردفاني.

بدأنا قصة التاريخ من دار الوثائق المصرية ثم ذهبنا الى دار الوثائق البريطانية والمصادر المتوفرة في السودان واستعرضنا مؤلفات مكي وبينا كيف تطورت هذه المؤلفات وكيف تداخلت. ولعلنا نكون قد لاحظنا ان القراءة كانت في أول الأمر لاعداد محاضراته لطلبته في الكلية ثم اضحت للبحث

العلمي وبغرض الاسهام في الوعي التاريخي. ولعلنا نكون قد لاحظنا ايضا ان بدء أمره كان تاريخ السودان الذي كان يدرسه في الكلية ثم توسع ذلك فشمل تاريخ مصر. ولما كانت السياسة البريطانية تؤثر في التاريخين أضحت هذه السياسة موضوعه الثالث..

وقبل ان نمضي الى الموضوع الرابع الذي انتقل إليه يحسن بنا ان نرجع قليلا. ففي سنة ١٩٥٠ بدأ مكي مشروع دراسة لتاريخ السودان تستغرق خمس سنوات. وقد ابلغ ادارة الكلية في سبتمبر ١٩٥٣ انه استكمل جمع مادته وأنه سوف يتمكن فيما تبقى من وقت من كتابة ما توصل إليه من نتائج. وقد فعل ذلك فيما بينا من كتب. وهو يقول لهذه الادارة إنه قد حان الوقت للإعداد لمشروع آخر ويقترح ان يكون المشروع موضوعا مثل السياسة البريطانية في افريقيا الاستوائية بين ١٨٨٠-١٩٠٢. هل كان هذا من وحي كتابه عن السياسة البريطانية في السودان، لا ادري. ولكن اقتراحه هذا قد أثار فضولي لأنه اهتمام مبكر بتاريخ افريقيا. ولو أن شبيكة فعل ما نوى لاضحى من رواد التاريخ الافريقي الذي يحتل اهتماما خاصا الآن. ولكنه فضل انسياقا مع تاريخ السودان أن ينساب شمالا مع النيل بدل الصعود جنوبا وان يركز اهتمامه على وادي النيل.

ثم قذفت به الظروف الى الكويت وفتحت له المجال للتأليف في تاريخ الجزيرة العربية والخليج العربي. على انه لم يلبث ان عاد الى موضوعه المفضل وهو تاريخ مصر والسودان وما يتصل منه بالخصوص بالسياسة البريطانية ويعتمد فيه على وثائق الحكومة البريطانية.

فقد وضع كتاب «بريطانيا وثورة ١٩١٩ المصرية» وتولى معهد البحوث والدراسات العربية نشره. ثم وضع كتابا عن حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ المشهور وهو ما زال مخطوطا وكتاب العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الاولى اعد للإلقاء في معهد البحوث والدراسات. ثم أنه صور عن دار الوثائق

البريطانية الوثائق المتصلة بالسودان من سنة ١٩٣٩ الى سنة ١٩٤٢. وهكذا توالت بحوثه وتوالى نشرها.

مكي والتاريخ:

نتساءل بعد الذي تقدم اي لون من المؤرخين كان شبيكة؟ ما هو منهجه في البحث والتأليف؟ وما هي نظرته الى الحياة والى العلاقات البشرية التي يعالجها؟ وما هي علاقاته بالشخصيات والحوادث التي يتعرض لها؟

ان حوادث التاريخ من حيث هي حوادث هي هي كوقائع وقعت في زمن معين وبفعل بشر معين، والشخصيات التاريخية التي يؤرخ لها هي هي، والوثائق لتاريخية التي يعتمد عليها زيد هي نفس الوثائق التي قد يعتمد عليها عمرو. ولكن كلامنا يخرج بشيء مغاير وبرؤيا مغايرة، وكل حسبما يرى. فالاختلاف يكون فينا نحن، ليس من وجه الصدق والدقة والدأب فحسب وانما قبل ذلك باختلاف النظرة. المادة التاريخية اذا ليست موضع الاختلاف اذا تيسرت، فهي مسألة ظرفية ولكن الذي يختلف هو المؤرخ نفسه، لأن مؤرخا يختلف عن مؤرخ آخر بواقع الزمن وبواقع البيئة والنشأة، وهو يختلف حسب المعتقد الديني والسياسي والاجتماعي كما يختلف باختلاف المزاج، ما يحب وما يكره وما يرجو وما لا يرجو وما يثيره وما لا يثيره.

أين اذا موضع شبيكة من ذلك؟

انه مؤرخ صبور دؤوب لا يكل ولا يفتر. وهو بسيط في اسلوبه اذا كتب او اذا تكلم مثلما هو بسيط في مظهره لا يتأنق ولا يتكلف ولا يجري وراء الشطط وهو أمين ومخلص، ويعالج حوادثه وشخصياته بأمانة ودقة فلا يأخذ بالهوى والميل ولا تحس أن في قلبه اخذا تحت طائلة الغضب او عطاء بأريحية المن. وهو رجل معتدل في نفسه ومنضبط في عاطفته فلا يفلت بها لسانه ولا يرمي بها قلمه وهو مستعد للتضحية بالمجد السياسي والخط الحزبي في سبيل حياد الاستاذ الجامعي وموضوعية المؤرخ.

وكمؤرخ فإنه لا يملي على نفسه ولا يملي على غيره، يعطي الحرية لنفسه فيقبل على البحث بغير رأي مسبق أو موقف مقرر أو زعم يرى اثباته أو نفيه على نحو ما يفعل أهل العقائد، وانما ينظر في المواقف والحوادث كما تبدو من الأسانيد، ويتصورها كما تتراءى أمامه شخوصا من بين الورق، وهو يعطي نفس الحرية للقارئ فيتركه ليصل الى ما يراه من خلال ما يقرأ وعلى أساس ما يعطي من البيانات لا بما يفرضه عليه او يمليه، فيفصل بين الحقائق والآراء ويذكر أين وجد هذا وأين وقف على ذلك ولماذا يميل الى هذا الرأي ولماذا يحيد عن ذلك.

وهو يكتب في التاريخ العام فيسجل كل النشاط الإنساني. وخطه المفضل هو السرد متسقا مع الوثائق ولكنه يقف هنا وهناك ليشرح ويعلق ويعطي النتائج. الا انه غير كلف بالتحليل والغوص وراء المعاني وتتبع النفس الإنسانية الى ما يحركها من أعماقها نحو الأهداف والغايات. وموضوعه المفضل هو وصف سياسات الدول وطرحها وتطبيقها وتقبل الناس لها او رفضها. ثم هو يمتد من ذلك الى التاريخ الدبلوماسي، لأن الدبلوماسية كانت عاملا مؤثرا في حوادث الفترة التي أرخ لها ولعله لهذا درس سياسة بريطانيا نحو مصر والسودان ورصد بمقدرة فائقة مسألة ومهمة غردون وفكر في دراسة سياسة بريطانيا في أفريقيا المدارية.

والتاريخ العام عنده يرد في شكل شرائح أو قل في شكل نشاطات: زراعة، صناعة، واقعة، حادثة وما الى ذلك. وكل شريحة يمكن أن تقرأ بمعزل عن الأخرى. أنظر مثلا فهرس كتاب السودان في قرن أو السودان عبر القرون أو تاريخ شعوب وادي النيل ولاحظ عناوينها الفرعية وراجع بينها وبين ما يرد في صلب الكتب من الشرائح. أن هذا التصرف محصلة رأي آخر عنده، وهو أن التفاصيل هي التي تكون في نظره الحوادث، وهذه الجزئيات الصغيرة هي التي تفضي الى الحوادث الكبيرة. وحيث أنه وقف على هذا التاريخ في جزئياته من واقع الوثائق والقرائن وكون من خلالها جلة الرأي

والتصور فأنه يتبع نفس الخطى في التأليف فيريك الأمر جزءا جزءا.

وهو قليلا ما يتعرض الى النظريات والأفكار أو يتعرض الى وصف النظم وتحليلها، لأن همه الأكبر هو الحادث. والشخص الذي يظهر في الصورة هو المحرك للحادث، وهو يحفل به بهذا القدر، أما الشخص نفسه كشخص فهو قليل الاحتفال به. وهو قليل الثقة بالروايات التي يرويها الرواة وان كان يعتمدها ويستشهد بها كعامل مكمل لما وقف عليه في الوثائق.

وكمؤلف فانه صريح مع نفسه وصريح مع قارئه، اذ يمضي حيث وجد الوثائق ويقف حيث وقفت. انه صريح في ذلك ويذكره بوضوح حتى تكون على بينة منه ومما يقوله ومما يقف دونه.

وقد وقف شبيكة على جلة من الوثائق والمصادر والمراجع لا أظنها أتفقت لرجل من جيله في موضوع ما قرأ. وقد نظر فيها بعناية وأجاد النظر. ولا شك ان هذا يعطيه سبقا على غيره ويعطي لبحوثه أهمية خاصة.

ولعل فضيلته الأولى هي أنه رفع بأسلوبه هذا ومنهجه تاريخ المهدية من موضوع الأطراء الذي يأخذه به أتباعها ومن موضوع التجني الذي سار عليه خصومها الى موضع العلم والأخذ بالتجرد، حيث يوزن كل شيء بوزنه الحقيقي ويقاس كل أمر بطوله وعرضه لا بهوى الذي يزن ولا بعاطفة الذي يقيس. وفضيلته الثانية انه جعل تاريخ العهد التركي في استواء بعد أن لعبت به الأهواء السياسية وغايات الوطنية. وفضيلته الثالثة الدأب والصبر والمضاء مع الأمانة مع النفس والتاريخ. والفضيلة الرابعة الكشف المتواصل عن تاريخ السودان قديما وحديثا منقبا في كل ما يكشف من وثائق وقارئا لكل ما يصدر من كتب وباذلا كل ما يملك من مال ونفس للوصول الى الحقيقة.

فهرس